الاصطفاء

في سيرة المصطفى

صلى الله عليه وسلم

محمد بهاء الحبال

الجزء الثاني

دار إحياء التراث العربي
قطر

الأصطفا

في سيرة المصطفى ﷺ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مكتبة الأنصاري
الرقم العام : ١٧٧٧
الرقم الفني : ٢٩ ٢٢ ١٠
تاريخ الورود : ١٤٠٨/٩/٨

الأصطفا

في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري العامة
الرقم العام : ٣٠٠٥
رقم التصنيف : ٩١٢ خ ح ١

محمد نبهان الخباز
إمام وخطيب جامع الأفندي بحماه
والمدرس الديني العام

٩١٢
م ٤ خ

قال الله تعالى
(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)
" قرآن كريم "

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : .....
رقم التصنيف : .....

الجزء الثاني

٢٢٨

إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

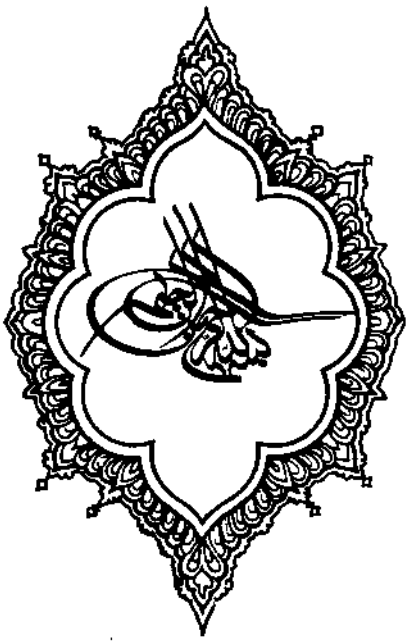

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام.

وبعد: فمن هنا نبدأ الجزء الثاني بعد أن وفقنا الله تعالى بإتمام الجزء الأول، وأوله مؤامرة قريش على قتل رسول الله، متابعين العدد في الصفحات، وسالكين[1] ما سلكناه في الجزء الأول، والله تعالى الموفق والمعين.

المؤلف

(١) في الأصل (وسالكين حسب ما سلكناه). وقد حذفنا كلمة (حسب)، لأنها حشو. المحقق.

١٣٠ ــ مؤامرة قريش على قتل رسول الله ﷺ

لقد بلغ اضطهاد قريشٍ للمسلمين، أنهم اضطروهم إلى الهجرة، ففريق هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر من بقي مع رسول الله ﷺ إلى المدينة. ولما علمت قريش انتشار الدعوة، وتتابع أصحاب رسول الله ﷺ بالهجرة أخيراً إلى المدينة فراراً لسلامة عقيدتهم، وتخلصاً من تعذيب المشركين لهم؛ وعلمت أيضاً أن للرسول ﷺ شيعة وأنصاراً[1] له في المدينة، وأنه لا بدَّ من أن يلتحق بهم؛ تشاوروا فيما يصنعون في أمره؛ فاجتمعوا في (دار الندوة) مقر المؤامرات على الرسول ودينه وكانت من قبل داراً للمشورة فيما يدلهمّ على مكة وأهلها.

تشاورت قريش في أمر الرسول ﷺ، في حبسه أو إخراجه عنهم، ثم اتفقوا على أن يتخيَّرُوا من كل قبيلةٍ منهم شاباً جلداً، فيقتلونه جميعاً، فيتفرق دمه في القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم ومقاومتهم جميعاً، ويقال: إن هذا الرأي كان رأي أبي جهلٍ، وهكذا نجد دائماً اسم أبي جهلٍ، وأبي لهبٍ في كل مؤامرة ضدَّ النبي ﷺ، وكل إيذاءٍ واضطهادٍ، كأنه لا عمل لهما غير ذلك. استعدوا لقتله عليه الصلاة والسلام من ليلتهم، فلما كانت العتمة اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه؛ وقد بلغ ذلك النبي ﷺ فأمر علياً أن ينام على فراشه، ويتَّشح بردَهُ الأخضر، وأن يتخلَّفَ عنه، ليؤدي ما كان عند رسول الله ﷺ من الودائع إلى أربابها، فامتثل أمره، فكان أول من شرَىَ نفسه ابتغاء مرضاة الله، ووقى بنفسه، رسولَ الله ﷺ.

---

(١) في الأصل (وأنصار) بدون ألف. والصواب بالألف لأنه اسم (أن). المحقق.

١٣١ ــ هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة

لما بلغ ﷺ ثلاثاً وخمسين سنة، وأخذ الإسلام ينمو في بعض القبائل، واشتد إيذاء المشركين له ولأصحابه، خرج رسول الله ﷺ وهم يرصدونه، فأخذ حفنةً من تراب داره، ونثرها على رؤوسهم، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يس، والقرآنِ الحكيمِ، إنكَ لمنَ المرسلين، على صراطٍ مستقيم، تنزيلَ العزيز الرحيم، لتنذر قوماً ما أنذرَ اباؤهم فهم غافلون، لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقانِ فهم مُقْمَحُونَ، وجعلنا من بينِ أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[1].

ثم انصرف وخرج من بينهم، فلم يبصروا طه الأمين، ولم يروه؛ فلما أفاقوا من غشيتهم وما ألقاه الله عليهم من النوم، جعلوا يطلعون على داخل البيت، فيرون شخصاً نائماً وعليه بُرْدُ الرسول ﷺ، وكان النائم علياً، فيقولون: إن محمداً لنائم؛ فأقاموا بالباب يحرسون علياً، وهم يحسبونه النبيَّ ﷺ؛ فلما أصبحوا، قام عليٌّ[2] عن الفراش، فقالوا له: أين صاحبك وابن عمك؟ قال: لا أدري، فعلموا أن النبي ﷺ قد نجا.

قال ابن هشام في سيرته[3]: فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيَّبكم الله؛ قد والله خرج عليكم محمدٌ ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترَوْنَ ما بكم؟ قال: فوضع كلُّ رجلٍ منهم يَدَهُ على رأسهِ، فإذا عليه ترابٌ، ثم جعلوا يتطلَّعُونَ، فيرون علياً على الفراش متَسَجياً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إنَّ هذا لمحمدٌ نائماً عليه بُرْدُهُ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا.

---

(١) من سورة ياسين الآيات من (١-٩).
(٢) في الأصل (عليَّ). والصواب (عليٌّ).
(٣) الجزء الثاني صحيفة (٩٦).

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: ﴿ وإذ يمكرُ بكَ الذين كفروا ليثبتُوكَ، أو يقتلوكَ، أو يخرجوكَ، ويمكرونَ ويمكرُ اللهُ، واللهُ خيرُ الماكرين ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ أم يقولون شاعرٌ نتربَّصُ به ريبَ المنون، قل تربَّصُوا فإني معكم من المتربصين ﴾[2].

١٣٢ ــ الرسولُ ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه يستعدان للهجرة

أخرج البخاري في صحيحه، في خبر طويل، عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «قد أريتُ دارَ هجرتكم، ذاتَ نخلٍ بين لابتين...» وفيه: أنه قال لأبي بكر «قد أُذِنَ لي في الخروج».

قال ابن إسحاق: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان لا يخطىء رسولُ الله ﷺ أن يأتي بيتَ أبي بكرٍ أحدَ طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية؛ حتى إذا كان ذلك اليوم الذي أذِنَ اللهُ فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظَهْرَيْ قومه، أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة في ساعة لا يأتي فيها، قالت: فلما رآهُ أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمرٍ حَدَثَ، قالت: فلما تأخّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكرٍ إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكرٍ، فقال رسول الله ﷺ: «أخْرِجْ عني مَنْ عندكَ» فقال: يا رسول الله: إنما هما ابنتاي، وما ذَاكَ فداكَ أبي وأمي؟ فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة» قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة، قالتْ: فوالله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثم قال: يا نبيَّ اللهِ، إن هاتين راحلتانِ قد كنتُ أعددتهما لهذا. فاستأجرا عبدَ اللهِ بن أريقط، رجلاً من بني الدِّيل[3] بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن

---

(١) من سورة الأنفال آية (٣٠).

(٢) من سورة الطور آية (٣٠-٣١) والمنون: الموت. وريب المنون: ما يريب و يعرض منها.

(٣) في الأصل: (الدِّيل) بفتح الدال. والصواب كسرها. المحقق.

عمرو، وكان مشركاً، يدلُّهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

١٣٣ ــ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يتأخر ليردَّ الودائع

قال ابن إسحاق: ولم يعلم فيما بلغني، بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر رضي الله عنهم، أما عليّ فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس؛ واعجباه، كيف يتآمرون على قتله، وهو المعتمد عندهم، والأمين على ودائعهم، ولكن الحقد والحسد والزعامة وحب الظهور، تركهم في ظلمات لا يبصرون.

١٣٤ ــ الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في الغار ــ غار ثور ــ

لما كان ثلث الليل الأخير، خرج الرسول الأمين وخرج أبو بكرٍ معه من خوخة ــ باب ــ من دار أبي بكر، وانطلقا جنوباً إلى غار ثورٍ، وكان اتجاههما جنوباً إليه ــ وهو طريق اليمن ــ لم يكن مما يرد على البال.

لم يعلم بمخبئهما في الغار، غير عبدالله بن أبي بكر، وأختيه عائشة وأسماء، ومولاهم عامر بن فُهَيرة؛ أما عبدالله فكان يقضي نهاره بين قريش يستمع إلى ما يأتمرون بمحمدٍ، ليقصَّه ليلاً على النبي ﷺ وعلى أبيه؛ وأما عامر فكان يرعى غنم أبي بكر، وكان إذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا؛ وإذا عاد عبدالله بن أبي بكر من عندهما، تبعه عامر بن فُهيرة بالغنم فعفَّى على أثره؛ وكان النبيُّ ﷺ يحاول دخول الغار، وأبو بكر يمنعه ويقول: والذي بعثك بالحقّ نبياً لا تدخله حتى أدخله قبلك، فأختبره إن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخل رضي الله عنه وجعل يمس بيده أرض الغار، وكلما رأى جُحْراً سدَّهُ بقطعة من ثوب خَلِقٍ أو حجر، ثم قال: ادخل الآن يا رسول الله فإني سوَّيْتُ لك مكاناً آمناً.

وأقاما بالغار ثلاثة أيام، كانت قريش أثناءها تجدُّ في طلبهما غير وانية؛

وكيف لا تفعل، وهي ترى الخطر محدقاً بها، إن هي لم تدرك محمداً، ولم تَحُلْ بينه، وبين المدينة يثرب.

آلم قريشاً، أن يخرج محمدٌ سليماً، وخشوا أن ينشر هذا الدينَ، وتمتدّ ظلاله، إلى ما وراء مكة؛ ثم يعودَ[1] إليها، فينكّس أصنامهم، ويذهب ريحهم؛ أغلوا في الأجر لمن يأتي بمحمدٍ وصاحبهِ؛ وبعثوا بقافتهم قافوا طريقهما، وقصُّوا أثرهما.

سار هؤلاء القافة على هدى علمهم حتى وصلوا باب الغار، فرآهم[2] أبو بكر فقال: يا رسول الله إن القومَ لحقُوا بنا، ولو طأطأوا رؤوسهم لرأونا؛ فقال له الحبيب الأعظم ﷺ مطمئناً يهدىء أبا بكرٍ من روعه: «ما بالكَ باثنين الله ثالثهما». وصلت القافةُ باب الغار؛ فإذا بالشكّ يصيبهم في علمهم، وما سار بهم هذا العلم قبل ذلك إلى خطأ، وما هداهم إلى ضلال، ولكن ماذا يصنعون؟ رأوا بأبصارهم ما يرمي بهذا العلم تحت الأقدام، رأوا خيوط العنكبوت، قد سدَّ نسيجُها باب الغار، نسجاً محكماً، ﴿وإن أوهن البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون﴾[3].

رجعوا وقد فقدوا علمهم وضالتهم مهزومين، تقهقروا أمام هذا الجيش الذي جاء ليحرس حبيب الله ومصطفاه ﷺ، والصديق، من قافتهم وقُصَّاص أثرهم.

وقايةُ الله أغنَت عن مضاعفةٍ ... من الدروع وعن عالٍ من الأطُم

لم يترك رسولُ الله ﷺ مكةَ مهاجراً منها إلى المدينة فراراً من خشونة العيش في مكة، وطلباً لنعيم العيش في المدينة؛ كلاَّ فتلكَ نفسٌ سَمَتْ فوق الدنيا وما فيها، نفسٌ تبغي غذاءها من موائد الوحي السماوي، نفسٌ تريدُ إسعادَ الناس، والناسُ لا يريدون نفسٌ لا يزيدها العنتُ في سبيل الله إلا مضيّاً في هذه السبيل، لا تبالي عقبات، ولا تصدها صدمات، هنالك

---

(١) (يعودَ) بالنصب. وهو في الأصل بالرفع. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) (فرآهم). في الأصل بدون فاء. المحقق.

(٣) جزء من الآية رقم (٤١) من سورة العنكبوت. المحقق.

أمر واحد لا ثاني له هو الذي تحسب له هذه النفسُ الشريفةُ الكاملة حساباً، هو: «إن لم يكن بكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي».

ما ترك الرسول ﷺ مكة قِلىً لها، فقد كانت أحب البلاد إليه، وألصقها بنفسه؛ ولكن رأى جوَّها بعد علاج طويلٍ، استمر ثلاثة عشر عاماً، مشبعاً بالجراثيم الوثنية، لا تعيش فيه دعوة التوحيد ولا يصلح في أرضها غرسُ دينٍ جديد، مهما كان الخير في هذه الدعوة، ومهما كان الصلاح والإصلاح في هذا الدين؛ والدين فوق الوطن؛ فخير[1] الوطن للمواطنين، وخيرُ الدين للناس أجمعين، قال الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾[2].

لذا هاجر الرسول ﷺ بهذا الدين إلى بلدٍ يصلح فيه غرسُه، وتنمو فيه تعاليمه، وترتفع فيه رايتُه، ويمتدُّ فيه ظلُّه، ويجدُ فيه أنصاراً صالحين له ينصرونه، وأقواماً أبراراً، يرونَ الأموالَ والنفوسَ رخيصةً دونه، كل ذلك قد تحقق في هذه الهجرة للمدينة.

فأقام النبي ﷺ ورفيقه أبو بكر في الغار، وسيدنا محمدٌ ﷺ لا يفترُ عن ذكر الله، إليه جل شأنه أسلم محمدٌ ﷺ أمرَهُ[3]، وعوَّل عليه. متوكلاً محتسباً كلَّ ما يصيبه ابتغاء مرضاة الله وإلى الله تصير الأمور؛ وأبو بكر يُرْهِفُ أذنَهُ يريد أن يعرف هل الذين يقفونَ أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحاً؟

وتصبَّبَ أبو بكر عرقاً، حين سمع تسلّق بعض القرشيين الغار فيحزن ويطمئنه الرسول ﷺ بقوله: لا تحزن إن الله معنا؛ فعاد هذا المتسلّقُ أدراجَه[4]، فسأله أصحابُه: مالك لم تنظر إلى الغار؟ فقال: إن عليه

---

(١) لو قال (فهو خير الوطن الخ) لكان أوضح. المحقق.

(٢) الآية رقم (١٠٧) من سورة الأنبياء المحقق. لا من سورة الحج كما قال المصنف. المحقق.

(٣) في الأصل (إليه جل شأنه أسلم محمد ﷺ أمره إليه). وقد حذفنا كلمة (إليه) الأخيرة لتكررها. المحقق.

(٤) في الأصل (فعاد أدراجه هذا المتسلق أدراجه). وقد حذفنا كلمة (أدراجه) الأخيرة لتكررها. المحقق.

العنكبوت من قبل ميلادِ محمدٍ، وقد رأيتُ حمامتين بفم الغار فعرفتُ أن ليس أحدٌ فيه[1]، وجاء في كتب الحديث: أن أبا بكر لما شعر بدنوّ الباحثين قال هامساً: لو نظر أحدُهم تحت قدميه لأبصرنا؛ فأجابه النبيُّ ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنُّكَ باثنين الله ثالثهما؟».

وزاد القرشيين اقتناعاً بأن الغار ليس به أحدٌ أن رأوا الشجرة تدلّتْ فروعها إلى فوهته، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع، إذ ذاك انصرفوا...

١٣٥ ــ معجزات الغار تكريماً ودفاعاً وحماية عن حبيب الله ومجتباه ﷺ

نسجُ العنكبوت، والحمامتان، والشجرة، تلك معجزات حدثت. تقص علينا كتُبُ السيرة الموثوقة في أمر الاختفاء (بغارثور) ووجه هذه المعجزات فيها، أنها لم تكن موجودة قبل دخوله ﷺ، حتى إذا لجأ النبي وصاحبه إلى الغار، أسرعت العنكبوت إلى نسج[2] بيتها تستترُ به مَنْ في الغار عن الأعين، كما أسرعت البعوضة إلى أنف النمرود لتهلكه وتنقذ الناس من ظلمه، وأسرعت[3] الطير الأبابيل لتهلك أبرهة انتصاراً لبيت الله، وهنا تسرع العنكبوت، وتجيء الحمامتان وتبيض عند بابه، وتنمو الشجرة بقدرة القادر سبحانه، لترد الأعداء[4] عن نبي الله ومصطفاه، يقول المستشرق درْ منجم في كتابه[5]: هذه الأمور الثلاثة، وحدها، هي المعجزات التي وردت في التاريخ الإسلامي الجدّ: (نسيجُ عنكبوت، وغرام حمامةٍ، ونموُّ شجرةٍ، وهي خوارق ثلاث تجد لها نظائر في أرض الله كلَّ يوم).

---

(١) أنظر (كتاب حياة محمد) ص ٢٠٧.

(٢) (نسج). في الأصل: (نسيج). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٣) في الأصل (وإسراع الطير الإبيل). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٤) في الأصل (لترد عن نبي الله). فزدنا كلمة (الأعداء) زيادة في الإيضاح. المحقق.

(٥) أنظر كتابه (حياة محمد) لدر منجم ص ١٦٩.

وفي مطاردة قريش محمداً لقتله، وفي قصة الغار، نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وإذ يمكرُ بكَ الذينَ كفروا. ليُثْبتُوك أو يقتلوكَ أو يُخرجوكَ، ويمكرونَ ويمكرُ اللهُ، واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ إلاَّ تنصروهُ فقد نَصرَهُ اللهُ، إذ أخرجه الذينَ كفرُوا ثاني اثنين إذ هما في الغارِ، إذ يقولُ لصاحبه لا تحزَنْ إنَّ اللهَ معنا، فَأنزَلَ اللهُ سكينتَهُ عليه، وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْها، وجعل كلمةَ الذينَ كفرُوا السُّفْلَى، وكلمةُ اللهِ هي العليا، واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ (٢).

وإلى قصة الغار، أشار صاحب الهمزية رحمة الله بقوله:

أخـــرجـــوهُ منهـــا وآواهُ غـــارٌ ... وحَـــمَـــتْـــهُ حـــامـــةٌ ورقـــاء
وَكَـفَـتْـهُ بـنـسـجِـهـا عـنـكـبـوتٌ ... مـا كَـفَـتْـهُ الـحـمـامةُ الحـصـداء
واخـتـفَـى منهـم على قـربِ مَـرْآ ... هُ ومـن شـدةِ الـظـهـورِ الخـفـاء

١٣٦ ــ الخروج إلى يثرب مدينة النور والهدى

بعد مضي ثلاثة أيام من مكوث الرسول ﷺ في الغار مع صديقه أبي بكر رضي الله عنه، وقد عرفا أنه سكن الطلبُ من قريشٍ عنهما، أتاهما صاحبُهما ببعيريهما، وبعيرٍ له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكرٍ بطعامهما فلما أزمعا على المسير، لم تجدْ أسماء ما تعلّقُ به الطعامَ والماء في رحالهما، فشقّت (٣) نِطاقَها، وعلّقَتْ الطعام بنصفه، وانتطقتْ بالنصف الآخر فَسُمِّيَتْ لذلك (ذات النطاقين). وأمتطى كل رجلٍ بعيرهُ، ومعهما طعامهما، وكان مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه خمسة آلاف درهمٍ هي كل ماله؛ وزادهما اختفاؤهما بالغار، وعلمهما بإمعانِ قريشٍ في تتبعهما حرصاً وحذراً، فاتخذا إلى المدينة طريقاً غير الطريق، الذي أَلِفَ الناسُ؛ سلك بهما دليلهما (عبدالله بن أريقط أحد بني الدُّئلِ)(٤) طريقاً إلى الجنوب بأسفل مكة، ثم متجهاً إلى تهامة على مقربة

---

(١) من سورة الأنفال آية (٣٠).
(٢) من سورة التوبة آية (٤٠).
(٣) (فشقت). في الأصل بدون فاء. المحقق.
(٤) (بني الديل). في الأصل (الدُّئل). المحقق.

من شاطيء البحر الأحمر، ومنه إلى عُسفان، فَجَح، ومنه إلى قُدَيْد، إلى الخرَّار ومنه إلى الجذاجد، ثم إلى العرج، ومنه إلى قباء[1]؛ ومنها إلى المدينة المنورة.

وإلى توجهه ﷺ إلى المدينة قال صاحبُ الهمزية:

وَنَحَا المصطفى المدينةَ واشتا ... قَتْ إليه من مكة الأنحاء

١٣٧ ــ حوادث وأمور في طريق الهجرة ومنها قصة سراقة

عادت قريشٌ وشبابها بالخيبة، حيث إنهم لم يعثروا على محمدٍ وصاحبه واجتمعت في ندوتها، ورصدت لتنفيذ غايتها، مائة ناقة لمن يأسر محمداً أو يقتله، وكذا مائة أخرى لمن يأسر أو يقتل أبا بكر.

قال ابن هشام في سيرته[2]: قال ابن إسحاق: قال سراقة بن مالك بن جُعْشُم: لما خرج رسولُ الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريشٌ فيه مائة ناقةٍ لمن رَدَّهُ عليهم، فبينما أنا جالسٌ في نادي قومي إذ أقبل رجلٌ حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيتُ رَكَبَةً ثلاثة، مَرُّوا عليَّ آنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه، فأومأتُ إليه بعيني، أن اسكُتْ، ثم قلت: إنما هم بنو فلان، يبتغونَ ضالَّةً لهم، ثم سكت ــ ليضلل الرجل، وليفوز بمغنم النوق المائة ــ ثم مكثتُ قليلاً، ثم قمتُ فدخلتُ بيتي، ثم أمرتُ بفرسي، فَقُيِّدَ لي، إلى بطن الوادي، وأمرتُ بسلاحي فأخرج لي من دُبُرِ حجرتي، ثم أخذت قِداحي التي أستقسمُ بها، ثم انطلقتُ، فلبستُ لأمتي ــ درعي وسلاحي ــ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهمُ الذي أكره «لا يضره»، قال: وكنتُ أرجو أن أرده على قريش فآخذُ المائة ناقة، قال: فركبتُ على أثره، فبينا فرسي يشتدُّ بي، عَثَرَ بي فسقطتُ عنه، قال: فقلتُ: ما هذا؟ ثم أخرجتُ قداحي، فاستقسمتُ بها[4]، فخرج السهم الذي أكره «لا يضره»، فأبيتُ إلا أن أتبعه،

---

(١) كان على المصنف أن يقول: (وفي توجهه الخ) ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) أنظر (سيرة ابن هشام) ج ٢ ص ١٠٢.

(٣) أنظر المصدر السابق ص ١٠٥.

(٤) استقسموا بها: أي إنهم كتبوا على أحد القداح: نعم، وعلى الثاني: لا، فإذا خرج على نعم سافروا ونفذوا رغبتهم، وإذا طلع على لا أحجموا عن تنفيذ ما يريدون.

فركبتُ في أثره، فبينا فرسي يشتدُّ بي عثر بي، فسقطتُ عنه، فقلت: ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره «لا يضره»، فأبيتُ إلا أن أتبعه، فركبتُ في أثره، فلما بدا لي القومُ، ورأيتهم عثر بي فرسي، فذهبتْ يداهُ في الأرض وسقطتُ عنه، ثم انتزَع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار[1]، فعرفتُ حين رأيت ذلك، أنه قد مُنِعَ مني وأنه ظاهر، فناديتُ القومَ، فقلتُ: أنا سراقة بن جُعْشُم، انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منّا؟ فقال لي أبو بكر ذلك، قلتُ: تكتب لي كتاباً يكون آيةً بيني وبينك، قال: اكتُب له يا أبا بكر، فكتب لي كتاباً في عظم، أو في رقعةٍ من أديم، أو في خزفةٍ، ثم ألقاه إليَّ؛ فأخذتُه، فجعلتُه في كنانتي، ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان؛ حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف، خرجتُ ومعي الكتاب لألقاه، فلقيتُه بالجعرانة[2]، فدخلتُ في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح، ويقولون: إليك إليك، ماذا تريد؟ فدنوتُ من رسول الله ﷺ وهو على ناقتهِ، والله لكأني أنظر إلى ساقهِ في غَرْزِهِ[3]، كأنها جُمّارة، فرفعتُ يدي بالكتاب، ثم قلتُ: يا رسول الله هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جُعْشُم، فقال رسول الله ﷺ: (يومُ وفاء وبرٍّ، ادْنُهُ) فدنوتُ منه، فأسلمت، ثم تذكَّرْتُ شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلتُ: يا رسول الله الضالَّةُ من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتُها لإبلي، هل لي من أجرٍ في أن أسقيها؟ قال: «نعم في كل ذاتِ كبدٍ حَرَّى أجرٌ». ثم رجعتُ إلى قومي، فَسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صدقتي.

جاء في كتاب إنسان العيون[4]: بأن سراقة بعد أن أخذ الكتاب من رسول

---

(١) الإعصار: ريح شديدة معها غبار.

(٢) الجعرانة: هي مكان بين الطائف ومكة، وهي لمكة أقرب، وقد نزلها الرسول صلى الله عليه وسلم في رجوعه من حنين، لما قسَّم غنائم هوازن.

(٣) الغرز: ركاب للفرس والإبل يضع الرجل رجله فيه أثناء ركوبه.

(٤) في سيرة الأمين المأمون. ج ٢ ص ٢٢٠.

الله ﷺ رجع إلى مكة، فاجتمع الناس فأنكر أنه رأى محمداً ﷺ، فلا زال به أبو جهلٍ حتى اعترف وأخبرهم بالقصة. وفي ذلك يقول سراقة مخاطباً لأبي جهل:

أبا حَكَمٍ واللهِ لو كنتَ شاهداً ... لأمرِ جوادي إذ تَسُوخُ قوائمُه
علمتَ ولم تشككْ بأن محمداً ... رسولٌ ببرهانٍ فمن ذا يُقاومه؟

وإلى قصة سراقة هذه أشار صاحب الهمزية بقوله:

واقتفَى أثْرَهُ سراقةُ فاستهـ ... ـوته في الأرض صافنٌ جرداء
ثم ناداهُ بعد ما سيمت الخَسْـ ... ـفَ وقد ينجدُ الفريقَ النداء

١٣٨ ــ قصة أم معبد وشاتها

بعد حادثة سراقة المتقدمة، تابع رسول الله ﷺ سيره، وهو يسيرُ مرَّ على خيمة تقعد بفنائها امرأة عُرفتْ بالقوة والصبر والعفة، يقال لها: (أم معبدٍ) واسمها (عاتكة بنت خالد، وقد أسلمت مع زوجها) وكانت تطعمُ وتسقي من يمر عليها؛ فلما اقتربوا منها، سألوها أن تبيعهم تمراً أو لحماً، وكانت سنة شهباء، وكان القوم مجدبين. فلم يصيبوا عندها شيئاً مما طلبوا، وقالت لهم: والله لو كان عندنا شيء لأضفناكم؛ فأخذ النبي ﷺ يتلفتُ، فنظر إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فقالت: هذه شاةٌ خَلَّفَها الجهدُ، وقعد بها الضعفُ عن الذهاب مع الغنم، فقال: هل بها من لبنٍ؟ فقالت: هي أضعف من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، وفي رواية أنها قالت: والله لم ينزُ عليها الفحل، فإن رأيت بها حلباً فاحلبها؛ فأخذها رسول الله ﷺ، ومسح بيدهِ ضرعَها، وسمَّى الله تعالى ودعا وقال: اللهم بارك لها في شاتها؛ وما أن فرغ الرسول ﷺ من دعائه حتى فرَّجَتِ الشاةُ ما بين رجليها، وَدَرَّ ضرعُها وكثر لبنُها وسال، وأخذت تجترُّ، فدعا النبيُّ ﷺ بإناء كبيرٍ يروي الرهط ويشبعهم، فحلب فيه لبناً كثيراً، حتى علتْهُ الرغوة، فسقاها، فشربت حتى

رويت وسق أصحابه حتى رووا، ثم شرب هو وقال: «ساقي القوم آخرهم شرباً» ثم حلب فيه ثانية، وتركه عندها، ثم ارتحلوا عنها.

وبعد برهةٍ جاء زوجُها أبو معبد، يسوق أعنزاً عجافاً مهزولات، فلما رأى اللبنَ دهش وعجب وقال: من أين لكم هذا؟ والشاة ضعيفة ولا حلوبة في البيت؟ فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مرَّ بنا رجلٌ مبارك، كان من حديثه كيتَ وكيتَ، ومن حاله كذا وكذا، قال: والله إني لأراهُ صاحبَ قريْشٍ الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد، فقالت: (رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة، أبلج[1] الوجه، حسن الخلق، لم تعبْهُ ثُجلةٌ[2] ولم تُزْرِ به صَعْلَةٌ[3] وسيم قسيم، في عينيه دَعَجٌ[4]، وفي أشفارِهِ وطفٌ[5] وفي صوتِهِ صَحَلٌ[6]، أحور[7]، أكحل[8]، أزجّ[9]، أقرن[10]، شديد سواد الشعر، في عنقِهِ سَطَعٌ[11]، وفي وأبهاه[12] من بعيدٍ، وأحلاه وأحسنه من قريبٍ، حلو المنطق، فصل لا نَزْرٌ ولا هَـذْرٌ[13]، كـأنَّ مـنـطـقـه خـرزات[14] نـظـمـن يـتـحـدرنَ، رَبْـعَـةٌ[15] لا

---

(١) أي مشرق.

(٢) ضخم بطن.

(٣) صغر رأس.

(٣) (صُعلة) بضم الصاد. وفي الأصل بفتحها. والتصحيح من مختصر سيرة الرسول لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب طبع ونشر بيروت لبنان. المحقق.

(٤) سعة العين مع سواد.

(٥) في شعر أجفانه طول.

(٦) صوت كالبحة.

(٧) شدة بياض العين مع شدة سوادها.

(٨) سواد في أجفان العين.

(٩) تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد.

(١٠) مقرون الحاجبين.

(١١) ارتفاع وطول.

(١٢) (وأبهاه). في الأصل (وأبهاهم). والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(١٣) (لا نَزرٌ ولا هَذْرٌ) أي لا قليلٌ ولا كثيرٌ. لسان العرب. المحقق. أي ليس به عي ولا هذيان.

(١٤) أي جواهر.

(١٥) وسط ما بين الطويل والقصير.

تنشؤهُ[1] من طول، ولا تقتحمه عينُ من قصرٍ[2]، غصنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعُوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود[3]، محشود[4]، لا عابس ولا مفند[5].

وما كادتْ أمُّ معبد تفرغ من هذا الوصف، حتى قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولو كنتُ، وافقتُه يا أم معبد لالتمستُ أن أصحبه، ولأفعلَنْ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً.

وأما أم معبد فإنها قد هاجرت بعد ذلك إلى النبي ﷺ ولحقت به إلى المدينة رضي الله عنها.

وإلى شاة أم معبدٍ وحلبها أشار الإمام السبكي بقوله:

مسحتَ على شاةٍ لدىَ أم معبدٍ بجهدٍ فألفتْها أدرَّ حلوبةِ

كما أشار لذلك صاحب الهمزية بقوله:

دَرَّتِ الشاةُ مرَّتْ عليها فلمها ثروة بها ونماء

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد تابع هجرته المباركة إلى المدينة.

وكان الناسُ في مكة حيارَى، قد مكثوا ثلاث ليالٍ، لا يدرون أين توجَّهَ محمدٌ رسولُ الله وأصحابه، حتى سمعوا صوتاً يتغنَّى و يقول:

جزَى الله ربُّ الناس[6] خيرَ جزائه رفيقينِ حلاَّ خيمتي أم معبدِ
همـا نـزلا بـالبر، وارتحـلا بـه فأفلح من أمسَى رفيقَ محمدِ

---

(١) تبغضه.

(٢) في مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب طبع ونشر بيروت/لبنان: (لا تقتحمه عين من قصر، ولا تَشْنَؤه من طول). وهي أوضح. المحقق.

(٣) يخدمه أصحابه و يعظمونه.

(٤) يجتمعون حوله.

(٥) من الفند، أي: حاشاه من الخرف أو المرض.

(٦) (ربُّ الناس). في الأصل (رب العالمين). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

سلُوا أختَكم عن شاتها وإنائها فإنكمو[1] إن تسألوا الشاة تشهَدِ

فلما سمعوا ذلك عرفوا حيث توجَّهَ رسولُ الله ﷺ، وأدركوا أن وجهتَه إلى المدينة.

١٣٩ ــ متابعة السير في لظَى الطريق إلى المدينة

انطلق سيدنا محمدٌ ﷺ وصاحبه أبو بكر بعد أن ودَّعا أمَّ معبدٍ في طريقهما[2] إلى المدينة، يقطعانِ بطونَ الأودية وسهول تهامة في قيظٍ محرقٍ، تتلظَّى له رمالُ الصحراء، ويجتازان آكاماً ووِهاداً، ولا يجدانِ أكثر الأمر ما يتَّقيانِ به شُواظَ الهاجرة، ولا يجدانِ ملجأ من قسوة ما يحيطُ بهما، وأمْناً مما يتخوَّفانِ أن يفجأهما، إلا في صبرهما، وحسن ثقتهما بالله تعالى، وعظيم إيمانهما بالحق الذي أنزل على رسوله؛ وظلاً كذلك سبعة أيام متتابعة ينيخان في حمَّارة القيظ، و يسريانِ على سفينة الصحراء الليل كله، يَجدانِ في سكينته وفي ضوء النجوم اللامعة في ظلمته، ما يطمئنُّ له قلباهما، وتستريح له نفساهما؛ فلما بلغا مقام قبيلة بني سَهْمٍ، وجاء إليهما شيخُها (بُرَيْدَةُ) يحييّهما، زالت مخاوفهُما، واطمأنَّت لنصر الله تعالى قلوبُهما وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنَى.

١٤٠ ــ مسلمُو يثرب في انتظار الرسول ﷺ

في فترة رحلة الرسول ﷺ وصاحبه الصديق أبي بكر رضي الله عنه المتعبة والمضنية، كانت الأخبار قد ترامت إلى يثرب بهجرة النبي ﷺ وصاحبه، ليلحقا أصحابها الذين هاجروا من قبل إليها؛ لقد ظلَّ هؤلاء المؤمنون في المدينة، ينتظرون مَقْدَمَ صاحب الرسالة، قائدهم العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، ينتظرون بفارغ الصبر قدومه، بنفوس ممتلئة شوقاً لرؤيته والاستماع لدرر توجيهاته؛ وكان الكثيرون منهم قد سمعوا من أقواله الحكيمة،

---

(١) (فإنكمو) زدنا الواو لوزن البيت. المحقق.

(٢) (في طريقهما). في الأصل: (طريقها). المحقق.

وتوجيهاته العالية. ما أسحرهم من جزالة لفظه ورقة بيانه، وفي قوة عزمه ما جعلهم للقياهُ أشدّ اشتياقاً، وإلى رؤيته أشدّ تطلعاً، وإنك لتقدر معي، مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يثرب من لم يروا محمداً من قبل؛ وإنما اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه الذين كانوا أشد المسلمين لدين الله دعوة، ولرسول الله ﷺ حباً، جلس سعد بن زرارة ومُصْعَبُ بن عمير في حائطٍ بني ظفر ــ بستان ــ واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا؛ فبلغ نبأ اجتماعهما سعد بن معاذ وأسيد بن حُضَيْر، وكانا يومئذٍ سيدي قومهما، فقال سعدٌ لأسيدٍ: انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا دارنا، ليُسفِّها ضعفاءنا، فازجرهما وانهَهما، فإن سعد بنُ زرارة ابن خالتي، ولا أجد عليه مَقْدَماً، فذهب أسيدٌ إليهما يزجرهما، فقال له مُصعَبٌ: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً قبلتَهُ، وإن كرهتَهُ كُفَّ عنكَ ما تكره؟ قال أسيدٌ: أنصفتَ، وركَزَ حربتَهُ وجلس إليهما؛ وسمع إلى مصعب فقام مسلماً، وعاد إلى سعدٍ بوجهٍ غير الوجهِ الذي تركه به؛ فغاظ ذلك سعداً وقام هو إلى الرجلين، فكان أمره كأمر صاحبِهِ، وكان من أثر ذلك أن ذهب سعدٌ إلى قومه فقال: يا بني عبد الأشهل: كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدُنا وأوصلُنا وأفضلُنا رأياً، وأيمُنا نقيبةً، قال: فإن كلام نسائكم ورجالكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله؛ فأسلم بنو عبد الأشهل جميعاً رجالاً ونساء[1].

وبلغ من انتشار الإسلام بيثرب، ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبي ﷺ إليها، ما لم يحلم به مسلمو مكة؛ وما طوَّع لبعض الشبان من المسلمين أن يعبثوا بأصنام المشركين من أهلهم.

كان لعمرو بن الجَمُوح (صنمٌ) من خشبٍ يدعوه (مناةَ) قد اتخذه في داره، كما كان الأشراف يصنعون، وكان عمرو سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم؛ فلما أسلم فتيان قومه وأبناؤه، كانوا يُريحون بالليل على صنمه، فيحملونه، فيكبُّونه على رأسه في إحدى الحفر التي يخرج أهل يثرب

(١) أنظر كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص ٢١٢.

لقضاء حاجاتهم بها، فأصبح عمرو فلم يجد الصنم، التمسه حتى يعثر به، ثم غسله وطهّرهُ وردَّهُ مكانه، وهو يُبرقُ و يُرعدُ و يتهدَّدُ و يتوعَّدُ، وكرَّر فتيانُ بني سلمة عبثَهم بمناةِ ابنِ الجموح، وهو كل يوم يغسله و يطهّرهُ، فلما ضاق بهم ذرعاً علَّقَ على الصنم سيفَهُ وقال له: إن كان فيكَ خيرٌ فامتنِع، فهذا السيفُ معكَ؛ وأصبح فالتمسه فوجده في بئرٍ مقروناً إلى كلبٍ ميتٍ وليس معه السيف؛ فلما كلَّمه رجالُ قومه أسلم بعد أن رأى بعينيهِ ما في الشرك والوثنية من ضلالٍ[1].

تحرَّق المسلمون في يثرب شوقاً إلى مقدم حبيب الله ومصطفاه ﷺ عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكة، كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلمَّسونَهُ، حتى تغلبهم الشمس بحرارتها على اللجوء إلى الظلال في هذه الأيام الحارة.

١٤١ ــ رسول الله ﷺ في قباء

وصل المهاجر الصادق عليه الصلاة والسلام إلى قباء، وهي من عوالي المدينة المنورة في تلك الأيام، في يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول، ونزل رسول الله ﷺ بها على ما يقوله ابن إسحاق، على كلثوم بن هِدْمٍ أخي بني عمرو بن عوف، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة، والصحيح أنه نزل على كلثوم، وكان ﷺ يخرج ويجلس في بيت سعد بن خيثمة، لأن سعداً لا أهل له، وكان منزله منزل العزّاب[2] من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد نزل على خبيب بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح، وكانت المسافةُ بين قباء والمدينة فرسخين.

ولما نزل عليه الصلاة والسلام على كلثوم بن هِدْم كان مشركاً، وما إن نزل رسول الله ﷺ عنده، أن[3] أعلن إسلامه، وقيل: إنه أسلم قبل نزول

---

(١) عن المصدر السابق ص ٢١٢. وانظر كتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ج ١ ص ٢٣٤.

(٢) (العزاب) هكذا في الأصل. والصواب (الأعزاب) جمع (عزَب). يقال: (رجل عزَب وامرأة عزَب). وقد قيل: (امرأة عزبة) بالتاء. المحقق.

(٣) (أن أعلن). الصواب: (حتى أعلن). المحقق.

رسول الله ﷺ عنده، ولم يشهد من مشاهد الرسول ﷺ ولا مشهداً لأنه ماتَ، وكان أول صحابي يموت بعد هجرة الرسول ﷺ .

أما سعد بن خيثمة الأوسي، فقد أسلم قبل الهجرة، وكان أحد النقباء في بيعة العقبة، واستشهد يوم بدرٍ، وقتل أبو خيثمة يوم أحدٍ، ويقال لسعد بن خيثمة: سعد الخير.

أقام ﷺ في قباء يوم الأثنين[1] ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وغادر صبيحة يوم الجمعة، على ما حققه ثقات المؤرخين.

١٤٢ ــ أعمال الرسول ﷺ في قباء

أقام رسول الله ﷺ أربعة أيام في قباء، وكان أول عملٍ قام به، أنه كان لكلثوم بن الهِدْم مربدٌ بقباء، وهو المكان الذي يُبْسَطُ فيه التمر ليجفَّ، فأخذه ﷺ منه، فأسَّسَهُ وبناه مسجداً، قال العلامة السهيلي: لما قدم رسول الله ﷺ قباء، قال عمار بن ياسر: ما لرسولِ الله ﷺ بُدٌّ من أن يُجعل له مكانٌ يستظلُّ فيه إذا استيقظ ويصلي فيه؛ فجمع حجارة فبنى مسجد قُباء، فهو أول مسجدٍ بني لعامة المسلمين، وهو أول مسجدٍ صلَّى فيه النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه جماعةً ظاهراً؛ فهو أول مسجد بني في الإسلام.[2]

فالجمهور من العلماء، أن المراد به: مسجد قباء وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحقّ أن تقوم فيه﴾[3].

---

(١) جاء في كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ١ ص ٢٤٧: وفي كتب شرف المصطفى لابن الجوزي، عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين، واستنبىء يوم الاثنين ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين وخرج مهاجراً من مكة يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين، وقُبِضَ ﷺ يوم الاثنين، وفي رواية: وخرج من الغار ليلة الاثنين وقدم المدينة يوم الجمعة.

(٢) (بني في الإسلام) ذكر المؤلف بعد هذه العبارة كلاماً حذفناه لتكرره، نصه (وأول مسجد صلى فيه النبي ﷺ بأصحابه جماعة ظاهراً). المحقق.

(٣) أنظر كتاب (وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى) ج ١ ص ٢٥١. والآية من سورة التوبة آية (١٠٨).

لم يزل ذلك المسجد محبباً إلى رسول الله ﷺ (فكان يزوره كلَّ سبتٍ راكباً وماشياً ويصلي فيه ركعتين) أخرجه الستة إلا الترمذي.

وهو أول مسجد وموضع صلى فيه النبي ﷺ بعد الهجرة جماعة، روى سهلُ بن حنيف رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «مَنْ توضَّأ فأحسنَ الوضوء، ثم دخل مسجدَ قباء، فركع فيه أربع ركعات، كان ذلك عَدْلَ[1] رقبةٍ» أخرجه الطبراني في الكبير وابن ماجه وفي روايةٍ لابن ماجه زيادة: «وكان له كأجر عمرة».

وقباء كما رأيتها بنفسي: تقع في الجنوب الغربي من المدينة المنورة، يبعد مسجد قباء عن المدينة ثلاثة كيلومتر ونصف، وقباء قرية كبيرة، يقع غرب مسجدها (بئر أريس) الذي سقط فيه خاتم النبي ﷺ من إصبع عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو محاط ببساتين من جهاته الأربع وقد جددت الحكومة السعودية بناءه ووسعته ليسع الزائرين الجدد في عصرنا الحاضر.

وروى ابنُ أبي شيبة: أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان يقول وهم يبنون في مسجد قباء:

أفْلَحَ مَنْ يعالجُ المساجدَا

فقال رسول الله ﷺ: (المساجدا) فقال عبد الله:

و يقرأ القرآنَ قائماً وقاعداً

فقال رسول الله ﷺ: (وقاعدا) فقال عبد الله:

ولا يَبيتُ الليلَ عنه راقداً[2]

---

(١) (عدلَ) ضبط المؤلف بالرفع وصححناه بالنصب لأنه خبر كان. المحقق.

(٢) عن المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٤.

١٤٣ ــ هجرة سيدنا علي ووصوله إلى قباء

نَفَّذَ سيدنا علي رضي الله عنه وصيةَ رسول الله ﷺ من ردّ الودائع والأمانات التي كانت لأهل مكة عند سيدنا محمدٍ ﷺ، ثم هيّأ نفسه للهجرة واللحوق بابن عمه رسول الله ﷺ، فحمل معه ما يحتاج إليه.

وسار، ومعه الفواطم وأم أيمن، وولدها أيمن وجماعة من ضعفاء المؤمنين وما يزال يجد السير في الهاجرة، حتى وصل قباء، ونزل على كلثوم بن الهِدْم اقتداء برسول الله ﷺ؛ وكان عليٌّ رضي الله عنه في طريقه يسير الليل، ويكمن النهار، حتى تفطرت قدماه، فاعتنقه النبيُّ ﷺ وبكى رحمة به لما بقدميه من الورم، وتفل في يديه ﷺ وأمرّهما على قدمي عليٍّ، فلم يشكهما [1] بعد ذلك.

١٤٤ ــ متابعة سير الرسول ﷺ إلى المدينة

قال ابن القيم في كتابه الهدى: فلما كان يوم الجمعة، ركب الرسولُ ﷺ بأمر الله، قاصداً المدينة، فأدركتْهُ صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي وكان أسعد بن زرارة أول من جمع بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ في حَرَّةِ بني بياضة، وكانت أول جمعةٍ صلاها بالمدينة.

وبعد صلاة الجمعة ركب الرسول ﷺ راحلته متوجهاً إلى المدينة.

روى أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أقبل إلى المدينة، وهو مردف أبا بكر، قال صاحب كتاب الفتح: يجوز أنه أردفه خلفه على راحلته، ويجوز أن يكون أردفه على راحلةٍ أخرى.

وكان كلما مرَّ ركب النبي ﷺ على دارٍ من دور الأنصار، يَدْعونه إلى المقام عندهم، يقولون: هَلُمَّ يا رسول الله إلى القوة والمنعة، ويأخذون بزمام الناقة، فيقول النبيُّ ﷺ: خلُّوا سبيلها، فإنها مأمورة، فيخلُّون سبيلها: وهكذا كلما مر على دار من دور الأنصار، فانطلقت حتى أتتْ دار بني مالك بن النجار،

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ١٦٨.

فبركت على باب مسجده، أي على مكانه الذي بني فيه، وهو يومئذٍ مِرْبَد لغلامين يتيمين من بني النجار؛ فلما بركَتْ لم ينزل رسولُ الله ﷺ عنها؛ فوثبتْ ثم سارت، غير بعيدٍ، ورسولُ الله واضعٌ لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرةٍ، فبركت فيه، ووضعت جرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ؛ فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ (١).

وعندما نزل رسول الله ﷺ في عوالي المدينة في بني عمرو بن عوف جاء ملأ كثير من المدينة شباباً وشيباً ذكوراً وإناثاً متقلدي سيوفهم، وساروا مع الرسول ﷺ حتى بركت ناقته بفناء دار أبي أيوب رضي الله عنه.

روى البخاري عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله»، وروى أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة، لعبتِ الحبشة بحرابهم فَرحاً بقدومه عليه الصلاة والسلام، وسرى السرورُ إلى القلوب، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير(٢)، عند قدومه ﷺ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، جلس النساء والصبيان والولائد يقلن جهراً:

طَلَعَ البدرُ علينا ... من ثنيَّاتِ الوداع(٣)
وجب الشكرُ علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئتَ بالأمر المطاع

ونقل صاحب كتاب المواهب اللدنية، ما أخرجه البيهقي وشيخه الحاكم عن أنسٍ رضي الله عنه قال: لما بركت الناقة على باب أبي أيوب: خرج جَوارٍ من بني النجار يضربن بالدفوف و يقلن:

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله).

(٢) الأجاجير: الأسطح.

(٣) ثنية مشرفة على المدينة، يطؤها من يريد مكة، وهي موضع وداع المسافرين من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وعندها الآن أقيم مقهى إسمه (عروة).

نحـنُ جَـوار مـن بني النـجـار يـا حـبـذا محـمـدٌ [1] مـن جـارِ

فقال الرسول ﷺ : أتحبونني؟ قلن: نعم يا رسول الله، فقال: الله يعلم أن قلبي يحبكم [2]، فتفرَّق الغلمانُ والخدمُ في الطرق ينادون جاء رسول الله، جاء رسول الله، وفي روايةٍ: فخرج الناس حين قدم الرسول ﷺ المدينة في الطرق، والغلمانُ والخدمُ يقولون: جاء محمدٌ رسول الله، الله أكبر، جاء محمد رسول الله.

١٤٥ ــ الرسول ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري

ذكرت فيما سبق، أن ناقة رسول الله ﷺ بركَتْ قرب دار أبي أيوب الأنصاري، وحمل أبو أيوب رحل نزيله المصطفى ﷺ ، فوضعه في بيته، ونزل عليه الصلاة والسلام على أبي أيوب في بيته، حتى بنى مسكنَهُ ومسجده، قال أبو أيوب: لما نزل عليَّ رسولُ الله ﷺ في بيتي، نزل في السِّفْلِ، ــ أي في الطابق السفلي من دار أبي أيوب ــ وأنا وأم أيوب في العلو ــ أي في الطابق الأعلَى ــ فقلتُ له: يا نبيَّ الله بأبي أنت وأمي إن لأكره، وأعظم أن أكونَ فَوْقَكَ، فاظهرْ أنتَ فكن [3] في العُلْو، وننزلُ نحن فنكون [4] في السفل، فقال ﷺ : يا أبا أيوب، إنه أرفق بنا، وبمن يغشانا [5]، أن نكون في سفل البيت، فكان رسول الله ﷺ في سفله.

ولقد انكسر حبّ لنا ــ الجرة الكبيرة ــ فيه ماء، فقمتُ أنا وأم أيوب بقطيفةٍ لنا، ما كان لنا [6] غيرها ننشف بها الماء خوفاً أن يكثر على رسول الله ﷺ فيؤذيه.

---

(١) (يا حبذا محمدٌ) ضبط المؤلف كلمة (محمد) بالجر وصححناه بالرفع. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) ج ٢ ص ٢٤٦.

(٣) (فاظهرْ أنت فكن في العُلْو). في الأصل: (فأظهر أنت تكن في العلْوَ). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٤) في الأصل (نكون) بدون فاء. المحقق.

(٥) أي يأتينا للسلام والبيعة والإسلام.

(٦) في الأصل: (ما لنا كان). وفي سيرة ابن هشام (ما لنا لحاف) وهو الصواب. المحقق.

وكنا نصنعُ له العشاءَ، ثم نبعثُ به إليه، فإذا ردَّ علينا فضله، تيممتُ ــقصدتُــ أنا وأم أيوب، موضع يده، فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه، ليلةً بعشاء، وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً، فردَّهُ رسول الله ﷺ ولم أرَ ليدهِ فيه أثراً، فجئتُه فزعاً وقلتُ: يا رسول الله بأبي أنتَ وأمي رددتَ عَشاءك؟ فقال: إني وجدتُ فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجلٌ أُناجي، فكلوهُ، فأكلناهُ ولم نصنع له بعد من ذلك شيئاً.

١٤٦ ــ ذكر الهجرة في القرآن

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إلاَّ تَنْصُرُوهُ فقد نَصَرَهُ الله إذْ أخرجَهُ الذينَ كفرُوا ثاني اثنين إذ هما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبه: لا تحزَنْ إن الله مَعَنَا﴾[1].

هذا إعلامٌ من الله تبارك وتعالى: أصحاب رسول الله ﷺ أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه، وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، إذ يقول لصاحبه، يقول: إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر: لا تحزن، وذلك أنه خاف من الطلب، أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: لا تحزن إن الله معنا، وإن الله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا، ولن يصلوا إلينا، وقد نصره الله على عدوه، وهو بهذا الحال من الخوف، وقلة العدد.

فائدة مهمة: قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين. واستنبىء يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين، وابتدىء للتاريخ في الاسلام من هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وأول من اتخذ التاريخ الهجري، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة سبع عشرة من الهجرة.

---

(١) من سورة التوبة آية (٤٠).

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ١٧٠.

١٤٧ ــ خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاَّها بالمدينة

هـذا نـصُّ الخـطـبـة التي خـطبهـا رسـول الله ﷺ في أول جـمـعةٍ صـلاهـا بالمدينة المنورة، في بني سالم بن عوفٍ[١]: «الحمد لله أحمده، وأستعينُه وأستغفرهُ، وأستهديه وأومنُ به ولا أكفرهُ، وأعادي مَنْ يكفرهُ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأنَّ محمداً عبـدُهُ ورسولُه، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترةٍ من الرسلِ، وقلّةٍ من العلمِ، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان، ودنوٍّ من الساعة، وقُرْبٍ من الأجل، من يطع الله ورسولَهُ فقد رشد، ومن يعصِهمَا فقد غَوَى وفرَط، وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوْصَى به المسلمُ المسلمَ، ثم أن يحضَّهُ على الآخرة، وأن يأمرَهُ بتقوى الله، فاحذروا ما حذّركم اللهُ من نفسهِ، ولا أفضل من ذلك نصيحةً، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجلٍ، ومخافة من ربه، عون صدق على ما تبغونَ من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرِّ والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكراً، في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم، وما كان من سوى ذلك، يودُّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم اللهُ نفسَهُ، واللهُ رؤوف بالعباد، والذي صَدَقَ قولهُ، وأنجزَ وَعْدَهُ، لا خلف لذلك، فإنه يقولُ عز وجلَّ: ﴿ما يبدلُ القولُ لديَّ وما أنا بظلام للعبيد﴾[٢]، فاتقُوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرِّ والعلانية، فإنه من يتقِ الله يكفر عنه سيئاتِه، ويعظمْ له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوَى الله يوقي مقتَهُ، ويوقي سخطَهُ، وإن تقوَى الله بيّضُ الوجوهَ، ورضي الربَّ، ورفع الدرجةَ، خذُوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم اللهُ كتابَهُ، ونهج لكم سبيلَهُ، ليعلمَ الذين صدقُوا ويعلمَ

---

(١) صلى رسول الله ﷺ أول جمعة بالمدينة في المسجد الذي في بطن الوادي بمن معه من المسلمين وهم مائة، وسمي هذا المسجد بمسجد الجمعة ــ وقد ذكرته في حينه بعد خروج النبي ﷺ من قباء، والمسجد هذا يقع على يمين السالك نحو قباء.

(٢) الآية رقم (٢٩) من سورة (ق). المحقق.

الكاذبين، فأحسنوا كما أحسنَ اللهُ إليكم، **وعادُوا أعداءهُ**، وجاهدُوا في الله حقَّ جهادِه، هو اجتباكم وسماكمُ المسلمينَ، **ليهلك من هلك** عن بيّنَةٍ، ويحيا مَنْ حيَّ عن بينةٍ، ولا قوةَ إلا بالله، **فأكثروا ذكرَ الله، واعملوا** لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله، **يَكْفِهِ اللهُ ما بينه وبين الناس**، ذلك بأنَّ الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، **ويملكُ من الناس ولا يملكون** منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم»[1].

١٤٨ ــ التعليق على هذه الخطبة الهامة

هذه هي أول خطبة يرتجلها ويخطبها حبيب **الله ومصطفاه** ﷺ، بالمدينة في أول جمعةٍ، ونلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يذكر **فيها أهل مكة**، ولا ما كان من عنادهم وإصرارهم على الكفر، **ومؤامرتهم على اغتياله** ﷺ، وإيذائهم للمسلمين؛ بل **قصر خطبته على حضّ المسلمين** على التقوى، وتذكيرهم بالله تعالى وتقواه، وما للتقوى من نتائج محمودة في الدنيا والآخرة، وهذا في الحق غاية الأدب، ومنتهى ما يصل إليه حلم الحليم، وبراعة الحكيم؛ ولو كان غير رسول الله ﷺ، **لاستفزَّهُ الغضب** وعدَّدَ مثالبهم، وما أبطنوه له، لأنهم همُ الذين حذلوه واضطهدوهُ وتآمروا عليه، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، مسقط رأسه الذي أحبه ونشأ على أرضه وترعرع في خيراته، وتنشق طيب رباه؛ وهم كانوا عقبةً كؤوداً في سبيل رسالة ربه، وقد صدق الله رب العالمين حيث قال مخاطباً حبيبه ومصطفاه ﷺ: ﴿ وإنكَ لعلى خلقٍ عظيم ﴾[2].

نعم إن هذا خلق كريم، وأدب عظيم، قلّ من يتصف به[3]، ويكون عليه[4] ونحن نرى في عصرنا الحاضر، رجال الدعوات وأهل المبادىء، يستعملون

---

(١) الخطبة هذه في تاريخ الطبري وأخذتها عن كتاب (محمد رسول الله) ص ١٧٢.

(٢) من سورة (ن) آية (٤).

(٣) (به) في الأصل (بها) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٤) في الأصل (عليها). والصواب (عليه) لأن الضمير يعود على (أدب). المحقق.

في خطبهم أقبح الألفاظ، وأشنع الشتائم في مهاتراتهم لأسباب تافهة، ومع ذلك يزعمون أنهم قادة وسادة، ينشرون العلم والمدنية والحضارة، و ينشدون الإصلاح والحرية، والأجدر بهم أن يدرسوا سيرة قائد القواد، وسيد الأسياد، وإمام اهل الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

أرى لزاماً عليَّ، أن أذكر ترجمة حياة أبي أيوب الأنصاري قبل أن أدخل في تتمة بحثنا، أعمال الرسول ﷺ بالمدينة فأقول:

١٤٩ ــ ترجمة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه

إنه السيد الكبير، والصحابي الأنصاري الجليل (خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة الخزرجي النجاري البدري رضي الله عنه) وحسبه في مجال الفخار أن اختصَّهُ رسولُ الله ﷺ عند مقدمه إلى المدينة، بالنزول عليه في بني النجار ومكث ﷺ سبعة أشهر عنده، كما أفاده ابن سعد في طبقاته الكبرى، إلى أن بنيتْ لرسول الله ﷺ حجرة وبني المسجد الشريف، ولما ظفر به أبو أيوب خالد بن زيد من مكانةٍ مكينةٍ عند رسول الله ﷺ، حدَّثَ عنه أكابر المحدثين، وفي طليعتهم جابر بن سمرة، والبراء بن عازب، والمقداد بن معد يكرب، وسعيد بن المسيب، وغير هؤلاء من أجلَّهِ رجال الحديث.

شهد أبو أيوب بدراً، ثم لم يتخلف عن غزاةٍ إلا عاماً واحداً[1]، استعمل على الجيش (شاب هو يزيد بن معاوية) فقعد أبو أيوب عن الغزو ثم جعل يتلهف ويقول: ما عليَّ من استعمل عليّ، ولكنه مرض[2] فجأة فجاءه يزيد بن معاوية يعوده، و يقول له: ما حاجتك؟ فيجيبه أبو أيوب: نعم إذا أنا متُّ فاركب

---

(١) في كتاب الإصابة جـ ٢ ص ٩٠ طبع مطبعة السعادة بمصر، وفي طبقات ابن سعد المجلد الثالث /دار صادر بيروت ص ٤٨٥ ما نصه: (لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو في أخرى، إلا عاماً واحداً فإنه استعمل على الجيش رجل شاب فقعد الخ. ولم يذكر المصدران المذكوران اسم الشاب الذي استعمل على الجيش. المحقق.

(٢) حين مرض كان على الجيش يزيد بن معاوية. انظر المصدرين السابقين. المحقق.

بي، ثم سغ بي في أرض العدو ما وجدتَ مساغاً ــ أي ادخل فيها ما وجدت مدخلاً ــ فإذا لم تجد مساغاً، فادفني ثم ارجع.

فلما مات ركب به، ثم سار به، ثم دفنه.

وقد روى بعض الرواة: أن أبا أيوب قال ليزيد حين سأله ما حاجتك؟ أقرىء الناسَ مني السلام، ولينطلقوا بي، وليبعدوا ما استطاعوا. قال: ففعلوا، وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدُوابأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾[1] لا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

و يروي سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: قال أهل المدينة لرسول الله ﷺ: ادخل المدينة راشداً مهدياً، فدخلها، وخرج الناس ينظرون إليه، كلما مرَّ على قومٍ قالوا: يا رسول الله ها هنا، فقال: دعوها فإنها مأمورة ــ يعني ناقته ــ حتى بركتْ على باب أبي أيوب، وفي هذا الشرف الرفيع الذي سما إليه أبو أيوب، بتشريف رسول الله ﷺ بيتَهُ.

وكان رسول الله ﷺ يحبه، قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: خلوتُ برسول الله ﷺ فقلت: أيّ أصحابك أحب إليك؟ قال: اكتم عليَّ حياتي[2]، قلتُ: نعم، قال: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي ثم سكت، فقلت: ثم من؟ قال: من عسى أن يكون بعد هؤلاء إلا الزبير وطلحة وسعد، وأبو عبيدة ومعاذ وأبو طلحة وأبو أيوب، وأنتَ وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وابن مسعود، وابن عفان، ثم هؤلاء الرهط من الموالي: سلمان وصهيب وبلال، وسالم مولى أبي حذيفة، هؤلاء خاصتي.

وكان أبو أيوب حريصاً كل الحرص على حياة الرسول الكريم، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: دخل[3] رسول الله ﷺ بصفية بات أبو أيوب

(١) الآية رقم (٤١) من سورة: التوبة. المحقق.

(٢) أي: مدة حياتي. المحقق.

(٣) هكذا في الأصل والصواب: (لما دخل الخ). المحقق.

على باب النبي ﷺ ، فلما أصبح فرآني رسول الله ﷺ كَبَّرَ، ومع أبي أيوب السيف، فقال: يا رسول الله كانت جارية حديثة عهدٍ بعرسٍ، وكنتَ قتلتَ أباها وأخاها وزوجها، فلم آمنها عليكَ، فضحك رسول الله ﷺ وقال: خيراً.

وكان أبو أيوب صريحاً يجهر بالحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، هكذا تعلم من رسول الله ﷺ، روى الزهري عن سالم قال: أعرستُ فدعا أبي الناس فيهم أبو أيوب، وقد ستروا بيتي بجنادي[1] أخضر، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه، فنظروا فإذا البيتُ مستور، فقال: يا عبد الله تسترون الجدُرَ؟ فقال أبي[2] واستحيا: غَلَبَنا النساء يا أبا أيوب فقال: من خشيتُ أن تغلبه النساء، فلم أخش أن يضللنه، لا أدخل لكم بيتاً، ولا آكل لكم طعاماً.

هذا وقد كان أبو أيوب على حظٍّ عظيمٍ من الحكمة وسعة الصدر؛ قال أبو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم: انضمَّ مركبنا إلى مركب أبي أيوب الأنصاري في البحر، وكان معنا رجلٌ مزَّاحٌ، فكان يقول لصاحب طعامنا: جزاكَ اللهُ خيراً وبراً، فغضب، فقلنا لأبي[3]: هنا من إذا قلنا له: جزاك الله خيراً، يغضب، فقال: اقلبوه له. فكنا نتحدث، إن من لم يصلحه الخير أصلحه الشرُّ، فقال له المزّاحُ: جزاك اللهُ شراً وعرّاً[4]، فضحك وقال: ما تدعُ مزاحك.

وقد استعمل سيدنا علي رضي الله عنه أبا أيوب على المدينة، ولم يشهد أبو أيوب مع علي (صفّين)، ودخل أبو أيوب على معاوية فقال: صدق رسول الله ، سمعتُه يقول: «يا معشر الأنصار إنكم سترون بعدي أَثَرَة[5]، فاصبروا»، فبلغَتْ معاويةَ فصدَّقَهُ، وقال: ما أجرأه، لا أكلمه أبداً، ولا يؤويني وإياه سقفٌ، وخرج من فوره إلى الغزو، فمرض ومات.

وقال الأصمعي راوياً عن أبيه: إن أبا أيوب قُبر مع سور القسطنطينية وبني

---

(١) الجنادى: جنس من الأنماط تستر به الجدران.

(٢) (واستحيا) في الأصل (راستحيا) بالراء. المحقق.

(٣) لعل الصواب (لأبي أيوب). المحقق.

(٤) العر: معناه السوء.

(٥) أثرة: يستأثر أمراء الجور بعد بالفيء دون الأنصار. المحقق.

عليه، فلما أصبحوا قالت الروم: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن قالوا: مات رجلٌ من أكابر أصحاب نبينا محمدٍ ﷺ، والله لئن نُبِشَ لأضرب[1] بناقوس في بلاد العرب، فكانوا إذا قحطوا كشفوا عن قبره، فأمطروا.

وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين. قال الواقدي: بلغني أن الروم يتعاهدون قبره، ويستسقون به[2]، سقى الله قبره شآبيب الرحمة، وغيث الرضوان.

١٥٠ ــ من وحي الهجرة المحمدية

كلمات قليلات، أكتبها من وحي الهجرة قبل أن أتابع سيري في تتمة مواضيع الكتاب، فأقول: إن في التاريخ ساعات فاصلةً، ولحظات حاسمةً، إذا مال فيها ميزان القدر قيدَ شعرة يمنةً أو يَسْرَة، تبعثُهُ نتائج خالدة كبيرة، وآثار باقية خطيرة، تجرُّ وراءها خيراً كثيراً، أو شراً مستطيراً، وتنشر في الدنيا ضياءً باهراً، أو تمدَّ ظلاماً حالكاً، ومن أجلِّ تلكَ اللحظات، وأعظم هذه الساعات: ليلة الهجرة، وهي الليلة الخالدة في تاريخ الإسلام، أو هي الليلة التي قلبت تاريخ الأنام.

فيها اجتمعت قريشٌ شيوخاً وقادة وشباباً في دار الندوة يضعون الخطط و يدبرون الحيل، لكي يأخذوا على دعوة محمدٍ سبيلها، و يسدُّوا طريقَها، فقد هالهم أن يقوم فيهم داعٍ يدعوهم إلى دين جديدٍ، ويحقّر آلهتهم و يسفّه أحلامهم، ثم يسلخ بينهم ثلاثة عشر عاماً، لا يخفت خلالها صوتهُ، ولا تفتر حرارتهُ، وقد جاهدوهُ كثيراً، وصابروه طويلاً، وهو لا ينثني ولا يضعف، وقد صار له أنصار يزداد على الأيام عددُهم، وتتضاعف مع الزمان قوتُهم، وإنها لقوةٌ إذا أخذتْ طريقها حتى وصلت إلى ذروتها، هددتْهم في أموالهم، وأضعفَتْ[3] من قريشٍ سلطانها الذي ورثته كابراً عن كابرٍ، واعتدَّتْ به في الغابر والحاضر، وانتهى بهم

---

(١) (لأضرب) هكذا في الأصل. ولعله (لأضربنّ) كما تقضي قواعد النحو. المحقق.

(٢) لو كان الاستسقاء بأصحاب القبور جائزاً شرعاً، لاستسق الصحابة والسلف الصالح بقبر أشرف الخلق على الإطلاق محمد ﷺ. المحقق.

(٣) في الأصل (وأصعفت) بالصاد. المحقق.

تدبيرهمُ الآثم وتفكيرهم الضال الخاطىء، إلى ان يقتلوا محمداً ليخلو لهم وجه الأرض، وتطمئنّ منهم الخواطر، وتستقر المضاجع، و يستمر سلطان الطغاة الأقوياء، على المستذلين الضعفاء، وفاتهم أن الله تعالى أرسل رسولَهُ بالهدَى ودينِ الحق ليظهره على الدين كله، وأنهم إن مكروا فالله خير الماكرين.

ولقد بطل تدبيرهم، وخاب تقديرهم، وعصم اللهُ لخير الدنيا أنفَسَ حياة وأغلاها، وأكرمَ نفسٍ وأتقاها، من أشنع جريمةٍ عرفَتْها الدنيا؛ جريمة تنشقُّ منها الأرض، وتخرُّ لها الجبالُ هدّاً، فأوحى إلى نبيه ورسوله ﷺ الخطةَ التي دبّرُوها، والجريمةَ التي بيَّتُوها، وأن يتركَ محمدٌ مكة إلى مدينة يثرب، حيث تجدُ دعوتُه جوّها الذي ينمو فيه غرسُها، وأفقها الذي يستديرُ فيه بدرُها، وتتمُّ نورُها، و يأبَى اللهُ إلا أن يتمَّ نورَهُ، ولو كرهَ الكافرون.

ما أضعف حيلة الإنسان، وما أعجزه أمام بأس الله وقوتِه، واللهُ أشدُّ بأساً، وأشدُّ تنكيلاً.

استطاع محمدٌ في حماية الله أن يخترقَ هذا السورَ من السيوف المصلتة والرماحِ المشرعة، الذي ضربه شبابُ قريشٍ الأقوياء حول بيتِه، وأن ينفذ إلى بيت صاحبه أبي بكر، ثم يخلصا معاً إلى غار ثور، وهنا تقف الدنيا تنظر خاشعةً، وتترقبُ واجفة، نهايةَ هذا الصراع بين الباطلِ في طغيانه، والحق في سلطانه، و بين حيلة الإنسان باطشاً جبّاراً، وحول الله قادراً قهّاراً، و يتساءل ضمير الكون، أينتصر الحق على الباطل، فتحلُّ عبادة الله وحده، مكان عبادة الأوثان وتقوم الحرية والعدل مقام العبودية والطغيان؟ أم تكون الأخرى فيظلّ الضمير الإنساني تزعجهُ آلامه، وتثقله آثامُه؟ ثم يجيب القدَرُ على هذا التساؤل جواباً حاسماً، و يردُّ ردّاً قاطعاً، و يبحثُ أدلاءُ قُريشٍ كثيراً، و يقتفي روّادُهم الأثر طويلاً؛ ثم يقفون أمام الغارِ تَسري إلى داخلِه أصواتُهم، وتُسمع حركاتُهم، حتى يقولَ أبو بكر رضي الله عنه: (لو أن أحدهم نَظر تحت أقدامِه لرآنا)، و يُعمي اللهُ أبصارَهم، و يُضِلُّ أحلامهم، فيرجعون عنه خائبين، و يرتدون حائرين، و يكتب اللهُ للإسلام أن يُنصر، وللشرك أن يهزمَ و يدحرَ،

وفي هذا المكان الضيق من ذلك الجبل الأجرد، يتقرَّرُ مصير الإسلام، و يتهيأ للإنسانية أن تنتقل إلى طورٍ جديدٍ، تنال فيه كرامتها، وتستردُّ عزّتها.

وفي هذه اللحظة الرهيبة التي يتذبذبُ فيها ميزانُ التاريخ، يقضي اللهُ للروح الإنساني أن يكسر أغلاله، و يُلقي أحماله، ويمضي حراً طليقاً.

إذا نحن استعرضنا قصة الهجرة ــ التي شرحتها من سابق ــ كان من أروع ما يطالعنا فيها تلك الشجاعة الفائقة التي اتصف بها النبي الكريم وهو في الغار فقد كان الخطر ماثلا أمام عينيه، وهو خطر تُستهدف له حياتُه، كما تتعرَّضُ له دعوتُه، وهي عنده أنفس قيمةً وأعظم قدراً، وكان يعلم يقيناً أنه لا عاصم له من بطش قريشٍ، إن وقع في أيديهم، فما تنفعه قرابةُ الأقرباء، ولا تنجيه شفاعة الشفعاء، وقد جعل شبحُ الموتِ يدنو من الغار، حتى التصق أبو بكر رضي الله عنه بنبيّه الكريم، وهمس في أذنه تلك الكلمة التي تهتز إشفاقاً، وترعد اضطراباً، فردَّ ردّ المطمئن الواثق: «لا تحزن إن الله معنا»، وما ظنك بإيمان الرسول ﷺ الذي يوقِن بأن الله يحميهِ ويحفظه ويقيه، والله أقوَى جانباً وأعز نفراً؟ بل ما ظنك بمن أرسله ربُّه ليضطلع بأعظم رسالةٍ عالميةٍ، و يتحمل أفدحَ أمانةٍ، معتزماً أن يقوم بها ولو وقف دونه أهلُ الأرض، وكان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً.

وما أروع فضيلة الوفاء، وإنكار النفس تبدُو في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فإن علياً جازف بأن يخدعَ المشركين من شبان قريش المتربصين، فينامُ مكان محمدٍ صلى الله عليه وسلم، و يتسجّى ببردهِ الحضرمي، إيهاماً لهم وتضليلاً، وهو يعلم أنه قد عرض في هذه الخدعة حياته، فإن قريشاً في غلظة أكبادها واتقادِ أحقادها، ما كانت لتغفرَ له، أنه أعانَ على الهربِ[1] خصمها ونجاته، وأنه سخر منها سخريةً مُرّة، واحتقرها احتقاراً أليماً.

---

(١) الصواب (على هرب) بدون (ال). المحقق.

وهذا أبو بكر الصديق في شيخوخته التي بطبيعتها تنعم التفكير، وتطيل التدبير، وتحسب العواقب، وتقدّرُ النتائج، يقوم في الطريق إلى الغار، فيمشي خلفَ رسول الله ﷺ حيناً، وأمامه حيناً، ويسأله الرسول ﷺ في ذلك فيجيبُ: أخشى الطلب يا رسول الله، فأمشي خلفكَ، ثم أذكر الرصدَ فأمشي بين يديكَ، ثم يصلانِ إلى الغار، ويهمُّ رسولُ ﷺ بالدخول، فيقول أبو بكر: مكانكَ يا رسول الله حتى أدخل قبلكَ فأستبرئه؛ ثم يدخل ليطمئن على حياة الرسول الكريم بما عسى أن يكون في الغار، من سبع تخشى هجمتهُ، أو ثعبان تخشى سورتُه[1].

أي تضحية، وأي إنكارٍ للنفس، يرفع أبو بكرٍ منارهما للإنسانية، فيريها كيف تهونُ الحياةُ في سبيل ما هو أعز وأكرم من الحياة، في سبيل دين الله القويم، وصراطه المستقيم، وفي سبيل ناشر هذا الدين سيد الأنبياء والمرسلين، وأي مثل رائع يضربه للناس، ليعرفوا أن كل دعوة، لا ينهض بأعبائها إلا المخلصون، وأن رجلاً واحداً يهب نفسه للفكرة، خير لها من أمم وشعوب.

وكم في هذه القصة من عظاتٍ بليغةٍ. تلك الألفة والمحبة بين الأخوة المهاجرين والأنصار، أصبحوا بنعمةٍ الله إخواناً.

هذا ما أردتُ ذكره من وحي الهجرة المباركة، أسأل الله العلي القدير أن يعيدها، والأمة الإسلامية ترفل بثياب مجدها وعزها والحمد لله رب العالمين.

١٥١ ــ تكوين الأمة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ

بعد أن استتبَّ المقام برسول الله ﷺ في المدينة، واستقبال أهلها الرائع الذي لمسه ﷺ، ورأى استعدادَ الجميع، لتقبل دعوته، وشدّ أزره، فقد بالغوا في اللقاء، له بما عاهدوه عليه، وإبلاغهم[2] في تكريمه، وإكرام من هاجر معه من صحبه؛ ورأى من اليهود القاطنين بها، التزلُّفَ له، ومحاولتهم في اجتذابه إليهم.

---

(١) أي: سطوته واعتداؤه. المحقق.

(٢) لعل الأرجح «ومبالغتهم في تكريمه». المحقق.

أخذ ﷺ في تكوين أمته الإسلامية، ووضع الحجر الأول في بنائها، على أساس متين، فأخذ يجيل النظر، ويطيل الفكر في ذلك، فهداهُ اللهُ تعالى إلى أنه لا يمكن أن تقوم للأمم قائمةٌ إذا لم يتّحد أبناؤها، وتتفق في غاياتها، وتكون الجبهة الداخلية سليمة من الأحقاد والمظالم، يسودها الإخاء والمحبة والعدل، فما هو السبيل إلى توحيد هذه الأمة التي يريد تكوينها؟ وما هي الوسائل التي تقضي على التناغض والانقسام من بين أفرادها؟ نعم لقد وُفِّقَ رسول الله ﷺ إلى جمع كلمة الأمة على الإيمان بالله تعالى، والإقرار بوحدانيته، والتصديق برسوله، وما جاء الله به من ربه، ولكن ما هو السبيل العملي لغرس روح المحبة والألفةِ بين أفراد هذه الأمة، والقضاء على كل ما منْ شأنه أن يقفَ في طريق هذه المحبة، أو يسبب تعكير صفوها، أو يدعو إلى انقسامها؟

لعلَّ هذا ما كان يشغل باله عليه الصلاة والسلام، منذ أن وطئتْ قدماهُ أرضَ المدينة، ونزل في ضيافة أبي أيوب الأنصاري، ثم لم يلبث أن هُدِيَ إلى أن الإنسانَ مكوَّن من جوهرين هما: النفسُ والبدن، فالنفسُ هي الجوهر الشفّاف الذي لا يُرَى، وهي الأصل في الإنسان، وهي المهيمنة على جميع حركاته وسكناته، والبدنُ هو الهيكل الجثماني، والمظهر الخارجي لها، الذي تصدر منه الأعمال الحسنة والسيئة، وأن النفس عادةً إنما تندفع وراء لذّة البدن، التي قد تتعارض مع ما يرضي الله تعالى، وما تقضي به الشرائع؛ وقد طُبِعتِ النفوسُ على حبِّ المال، والتغالي في جمعهِ، والإكثار منه، باعتبارهِ هو الوسيلةُ الوحيدةُ لهناء الجسم، وتكامل لذته، وفي سبيلهِ تتقاتلُ الأفراد، وتتطاحن الشعوب.

من أجل هذا رأى رسول الله ﷺ أن يوجّهَ دعوتَهُ إلى النفوس، ويهيب بها أن تترفع عن شهوات الأبدان في هذه الدنيا الفانية، وتسمو إلى الكمال الإنساني، لتحظى بالسعادة الحقّة في الحياة الأخرى.

وسبيل ذلك أن لا تجعل منه غاية تركن إليها، وتلتذُّ بها في الحياة، بل يجب أن تعدَّهُ وسيلةً للحصول على سعادة النفس وتلذذها بفعل كل ما يجلب

رحمة الله تعالى، ونيل نعيمه الدائم في الحياة الأخرى، وهنا بادر رسول الله ﷺ، فجمع الناسَ وخطب فيهم أول خطبة له بالمدينة، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: (أما بعد) أيها الناس قدّموا لأنفسكم، تعلمن والله ليُصعقنّ أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتِكَ رسولي، فبلغك؟ ألم أوتِكَ مالاً وأفضلت عليكَ؟ فما قدمتَ لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً، فلا يرَى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ تمرةٍ فليفعلْ، ومن لم يجد، فبكلمةٍ طيبةٍ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، والسلام عليكم ورحمة الله.

فما أن سمع الناسُ هذا من رسول الله ﷺ حتى تبارَى المسلمون في بذل أموالهم، حتى أن منهم من أراد أن ينزل عن كل أمواله، وتجمعت لديه أموال وفيرة، يقدمونها له، لينفقها في أوجه الخير في سبيل الله؛ وبهذا كان جهاد النفس بإنفاق المال لابتغاء مرضاة الله، مقدّماً عن الجهاد بالنفس في سبيل الله؛ وعندما أيقن رسول الله ﷺ أنه وُفِقَ إلى انتزاع حب المادة من قلوب المؤمنين؛ خطا الخطوة الثانية، حيث جمع المؤمنين، ودعاهم إلى حب الله، والتحابّ فيه، ونبذ التباغض والشرور من بينهم والالتفاف حول كتاب الله، وخطب فيهم خطبته الثانية فقال: «إن الحمد لله أحْمَدُهُ وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد اللهُ فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ إن أحسنَ الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زيّنهُ الله في قلبه، وأدخلهُ في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس إنه أحسن الحديث، وأبلغه أجراً[1] ما أحب اللهَ، أحبُّوا اللهَ من كل قلوبكم، ولا تملُّوا كلام الله وذكره، ولا تقْسُ عنه قلوبُكم، فإن[2] من كل

(١) (وأبلغه أجرا ما أحب الله) هذه العبارة غير مفهومة. وفي تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٣٩ طبع بيروت لم يذكر كلمة (أجرا). ونص العبارة (إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا ما أحب الله الخ). المحقق.

(٢) في المصدر السابق (فإنه).

ما يخلق الله يختار ويصطفي، وقد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتيَ الناس الحلال والحرام[1]، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابُّوا بروح الله بينكم، وإن[2] الله يغضبُ أن يُنكثَ عهدُهُ، والسلام عليكم[3]»[4].

وأخذ رسول الله ﷺ يؤاخي بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.

١٥٢ ــ رسول الله ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحاق: وآخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ــ بعد أن نزلوا المدينة، واتخذوها مقراً لهم ووطناً، ليُذهبَ عنهم وحشة الغربة، و يؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، و يشد أزر بعضهم ببعض، ولتقوية الجبهة الداخلية ــ. تآخوا في الله أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ــ مثيل ــ ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين.

وكان حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله، وعمُّ رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحدٍ حين حضره القتال، إن حدث به حادثُ الموت.

وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيّارُ في الجنة رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه أخو بني سلمة أخوين.

---

(١) في الأصل (ومن كل ما أوتي الناس ومن الحلال) بزيادة كلمة (ومن). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) في المصدر السابق (إن) بدون وان. المحقق.

(٣) في المصدر السابق (والسلام) فقط دون ذكر كلمة (عليكم). المحقق.

(٤) الخطاب الأول والخطاب الثاني لرسول الله ﷺ عن كتاب: (رسالة الإسلام ــ نور بدّد الظلام) ص ٨٤ للعلامة عبد الحميد الخطيب. وهما في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١١٩.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخارجة بن زيد من الخزرج أخوين.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين.

وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، وسعد بن معاذ سيد الأوس أخوين.

وعبد الرحمن بن عوف، وسعدُ بنُ الربيع الخزرجي أخوين.

والزبيرُ بن العوام، وسلمةُ بن وقشٍ أخوين.

ويقال: الزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة أخوين.

وعثمانُ بن عفان، وأوس بن ثابت النجاري أخوين.

وطلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك أخو بني سلمة أخوين.

وسعيدُ بن زيد، وأبي بن كعبٍ النجاري أخوين.

ومصعبُ بن عميرٍ، وخالد بن زيد النجاري أبو أيوب أخوين. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعبّادُ بن بشر أخو بني عبد الأشهل أخوين. وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم، وحذيفةُ بن اليمان أخوين.

وقيل: عمار بن ياسر، وثابتُ بن قيس الخزرجي خطيب رسول الله ﷺ أخوين.

وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، والمنذرُ بن عمرو الخزرجي أخوين.

وحاطب بن أبي بلتعة، وعويمُ بن ساعدة أخوين.

وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء عويمر بن ثعلبة الخزرجي أخوين.

وبلال بن رباح مولى أبي بكر مؤذن الرسول ﷺ وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي أخوين.

فهؤلاء من سمّي لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه[1].

(١) أنظر كتاب (سيرة ابن هشام) ج ٢ ص ١٢٥.

١٥٣ ــ المدينة المنورة واستقرار النبي ﷺ بها

كان اسمها يثرب قبل الإسلام، ثم سميت: مدينة رسول الله ﷺ، تقع في سهلٍ خصيب، بينها وبين مكة (٢٠٠) ميل، وتقدر من حيث الأبنية بنصف مكة، وفيها بساتين كثيرة، ونخيل وزروع تسقى من الآبار، ومسجد رسول الله ﷺ في وسطها، قال في معجم البلدان لياقوت الحموي: (إن لهذه المدينة تسعة وعشرين اسماً ثم سردها)، وكذا أحصى المجد الشيرازي اللغوي نحو ثلاثين اسماً؛ وذكر السمهودي في كتاب (وفاء الوفا) أربعة وتسعين اسماً، وقال: (إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى).

وروى البخاري في صحيحه: أن النبي ﷺ قال: «إن الإيمان لَيَأرِزُ ــ يلوذ ــ إلى المدينة، كما تَأرِزُ الحية إلى جحرها»[١] وقال: «المدينةُ تَنفي الناس[٢]، كما ينفي الكير[٣] خَبَثَ الحديد» ويقول: «لا يدخلُ المدينةَ رُعْبُ المسيح الدجّال، لها يومئذٍ سبعةُ أبواب، لكل بابٍ ملكان».

في هذه المدينة الخالدة، استقر سيدنا محمدٌ ﷺ، وقد استطاع أن ينظم شؤون الأمة الإسلامية، وينشر تعاليمه فيها، وقد استقبله أهلها بكل حفاوة ومحبة، وقد آخى بين المسلمين من مهاجرين وأنصار، أخوة فاقت أخوة النسب والدم، وإليك يا أخي المثل على ذلك، لقد آخى الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع رضي الله عنهما، فعرض سعد بن الربيع على أخيه عبد الرحمن أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لكَ في أهلكَ ومالكَ، دُلَّني على السوق، ولم يخب ظنُّ عبد الرحمن بن عوف في مهارته التجارية، وثقته بنفسه، فذهب فباع إقطاً[٤] وسمناً، ثم ما لبث أن

---

(١) في الأصل: (حجرها). المحقق.

(٢) (تنفي الناس) أي خبثاءهم. وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً «المدينة تنفي الخبث». المحقق.

(٣) الكير: زق ينفخ فيه الحداد ليشعل الفحم الحجري الذي يضع الحديد فيه ليلين.

(٤) الاقط: الجبن المتخذ من اللبن الحامض.

اغتنى، فاستطاع أن يُصْدِقَ امرأة من نساء المدينة، ثم استطاع أن يعدَّ قافلةً من سبعمائة بعيرٍ في سبيل الله.

١٥٤ ــ بناء المسجد ومساكن الرسول ﷺ

سبق أن ذكرتُ عند مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أنْ بركَتْ ناقتُه عليه الصلاة والسلام في أرض مِرْبَد لسهلٍ وسهيل ابني عمرو فابتاعه، ليبنيَهُ مسجداً له؛ وأقام أثناء بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري سبعة أشهر، وعمل الرسول الكريم في بناء المسجد بيديه الشريفتين؛ قال ابن عمر: كان بناء المسجد على عهد رسول الله ﷺ وسقفهُ جريد، وعمدهُ خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، فزاد فيه عمر وبناه على ما كان من بنائه[١]؛ ثم غيَّره عثمان، وبناه بالحجارة المنقوشة والفضة[٢]، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه ساجاً، وزاد فيه.

وفي الصحيح في ذكر بناء المسجد: وكنا نحملُ لبنةً لبنةً، وعمارُ بنُ ياسر، كان يحملُ لبنتينِ لبنتينِ، فرآهُ النبيُّ ﷺ، فجعل ينفض الترابَ عنه ويقول: «ويح عمار تقتله الفئةُ الباغية»[٣].

وروى البيهقي في الدلائل: عن «سفينة» مولى رسول الله ﷺ قال: لما بنى النبيُّ ﷺ المسجدَ، وضع حجراً، ثم قال: ليضع أبو بكرٍ حجره إلى حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكرٍ، ثم ليضع عثمانُ حجره إلى جنب حجر عمر، فقال رسول الله ﷺ: هؤلاء الخلفاء من بعدي[٤].

وعن مكحول قال: لما كثر أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: اجعل لنا

---

(١) أي باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا. انظر حدائق الأنوار قسم٢ ص ٤٧٩ مطبعة محمد هاشم الكتبي بدمشق. المحقق.

(٢) حاش للخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه أن يبني بناء بالفضة. والصواب (القَصّة) بقاف مفتوحة وصاد مهملة. وهي: (النُّورة). انظر المصدر السابق. المحقق.

(٣) وعمار قد قتل في يوم صفين، وكان يحارب مع سيدنا علي، وقد جاوز التسعين من عمره.

(٤) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ١٨٦.

مسجداً، فقال: خشبات وثمامات[1] عريش كعريش أخي موسى صلوات الله عليه الأمر أعجل من ذلك[2].

وفي رواية رزين زيادة فيه: فطفقوا ينقلون اللبنَ، وما يحتاجون إليه، ورسولُ الله ﷺ ينقل معهم.

وكان الذين اسسوا المسجد، جعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، باب في مؤخره، وهو في جهة القبلة اليوم، وباب عاتكة الذي يدعى باب عاتكة، ويقال له باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل من رسول الله ﷺ، وهو باب آل عثمان اليوم، وهذان البابان لم يغيَّرا بعد أن صرفت القبلة، ولما صرفت القبلة سدَّ رسول الله ﷺ الباب الذي كان خلفه، وفتح هذا الباب، ومحاذيه هذا الباب الذي سدَّ.

وبعد إتمامه، أقام الصحابة الكرام مساكن الرسول عليه الصلاة والسلام. وما كان بناء المسجد، ولا كان بناء المساكن ليُرهق أحداً، وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم المهندس سيدنا محمدٍ ﷺ.

كان المسجد فناءً فسيحاً، بُنيتْ جدرانه الأربعة من الآجر والتراب وسُقِفَ جزء منه بسعف النخل، وتُرك الجزء الآخر مكشوفاً، وخُصِّصَتْ إحدى نواحيه لإيواء الفقراء، الذين لم يكونوا يملكون سكناً، ولم يكن المسجد يضاء ليلاً، إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القشّ أثناءها، وظل كذلك مدة تسع سنوات متتابعة، ثم شُدَّتْ مصابيح إلى جذوع النخل التي كان يعتمد

---

(١) الثمامات: ما يبس من الأغصان.

(٢) لم أقف على حديث بهذا النص. وإليكم النص التالي من (سنن الدارمي) ص ١٨ طبع استانبول (أخبرنا مسلم بن ابراهيم حدثنا الصعق قال: سمعتُ الحسن يقول: لما أن قدم النبي ﷺ المدينة جعل يسند ظهره إلى خشبة ويحدّث الناس. فكثروا حوله، فأراد النبي ﷺ أن يسمعهم فقال: «ابنوا لي شيئاً أرتفع عليه» قالوا: كيف؟ يا نبي الله! قال: عريش كعريش موسى. فلما أن بنوا له قال الحسن: حنّت والله الخشبة قال الحسن: سبحان الله! هل تبتغي قلوب قوم سمعوا؟ قال أبو محمد: يعني هذا). ا. هـ. المحقق.

سقفُه عليها، ولم تكن مساكن النبي ﷺ أكثر من المسجد تَرَفاً، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استتاراً.

وكان النبي ﷺ يخطب في المسجد، إلى جذع يتكىء عليه، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لكَ منبراً؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً؛ ولما فارق رسول الله ﷺ الجذعَ وصعد المنبر حَنَّ الجذع إليه، وسمع له صوت كصوت الشعار ــ أي الناقة العشراء ــ فقال النبي ﷺ: ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة؟ فأقبل الناس عليها، فسمِعوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم فنزل إليه رسول الله ﷺ فَضمَّهُ فسكن.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبيُّ ﷺ يخطب إلى جذعٍ، فلما اتخذَ المنبر، تحوَّل إليه، فحنَّ الجذعُ فأتاهُ فمسح بيدِهِ عليه.

ولا شكَّ أن حنينَ الجذع من معجزاته ﷺ، وحديث الجذع هذا مشهور، رواه من الصحابة بضعةَ عشر[1].

وكان المنبر من خشب الأثل، ومن درجتين، وله مجلس. وذكر ابنُ بطوطة في رحلته (الجذع) فقال: (دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمينَ، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة اليابسة الباقية من الجذع الذي حنَّ إلى رسول الله ﷺ وهي ملصقة بعمودٍ قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة).

ولما حج المهدي بن المنصور العباسي سنة (٢٦١) هـ، أراد أن يعيده إلى ما كان عليه، فأشار عليه الإمام مالك بتركه، خشية التهافت فتركه[2].

١٥٥ ــ مرض المهاجرين بحمَّى المدينة

استقرَّ ﷺ بمسكنه الجديد، وآوى المسلمين في عبادته لله بالمسجد

---

(١) (بضعةَ عشر). في الأصل: (بضعةُ عشر). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله ﷺ) ص ١٨٨.

الجديد، وأمَّ المدينة بعد بضعة أسابيع المسلمون المتأخرون بهجرتهم بسبب سادتهم بمكة، وقد استطاعوا الخلاص من نفوذهم، وهاجروا للمدينة؛ وقد اعتاد المهاجرون جوَّ مكة الجاف؛ فلما قدموا المدينة، أصيب أكثرهم بالحمَّى، لأن صيفها رطبٌ، وشتاءها قارس، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أول أرض أصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ، وأصابت الحمَّى أبا بكر وبلالاً وعامرَ بن فهيرة، فاستأذنتُ رسول الله ﷺ في عيادتهم، وذلك قبل أن يضرب عليه الحجاب (من شدة الحمَّى)[1]، فأذن لي، فدخلتُ عليهم، وهم في بيتٍ واحدٍ، فوجدتهم يهذون من شدة الحمَّى فأخبرتُ رسولُ الله ﷺ، قالت: فنظر إلى السماء وقال: «اللهم حَبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، اللهمَّ بارك لنا في صاعنا ومُدِّنا وصحّحها لنا، وانقل حمّاها إلى الجحفة»[2]، فاستجاب الله له، فطيَّبَ هواءها وترابها وسكنها والعيشَ بها؛ وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى، أنشد:

كلُّ امْرىء مصبح في أهله ... والموتُ أدنَى من شِراكِ نعلِهِ

وهذا البيت من شعر حنظلة بن يسلو، وليس من شعر أبي بكر! وحمَّى المدينة كانت (الملاريا) لما كان يحيط بها من البرك والآبار حتى إن الإبل كانت تمرض من الشرب منها؛ وكانت قريش تعيب على أهل يثرب، ما يعتريهم من الحمى، وتسلط اليهود عليهم؛ وتسمي هذه الحمى (أم ملدم) قال رسول الله ﷺ لزيد الخيل وكان قد أتَى مع وفد طيء وأسلم: «يا زيد تقتلك أمُّ ملدم» يعني الحمَّى، فأصيب بها أثناء الطريق عند عودته ومات بها.

١٥٦ ــ الخزرج والأوس وما كان بينها وبين اليهود

الخزرج والأوس: هما قبيلتانِ مشهورتان من العرب في يثرب، وقد لَقَّبَهُمْ رسولُ الله ﷺ بالأنصار لما هاجر إليهم، لأنهم هم الذين نصروهُ ومنعوهُ ــ

(١) (من شدة الحمى) هذه العبارة لا موقع لها هنا. ولا شك أنها غير مقصودة للمؤلف. المحقق.

(٢) الجحفة: قريةٌ قريبة من رابغ، محل إحرام الحج المصري، وكان سكانها إذ ذاك من اليهود.

وقد مر ذكرهم في بيعة العقبة الأولى والثانية ــ ولا شكَّ أن الباحثَ يشتاق إلى الوقوف على تاريخ هاتين القبيلتين، وما كان بينهما وبين اليهود من علاقات وحروب، لأن ذلك يساعده على فهم تاريخ سكان المدينة وعلى موقف الأنصار واليهود إزاء الإسلام والمسلمين، وليكون على بيّنةٍ من أمرهم عند ذكرهم في الحوادث التي وقعت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

خزرج وأوس: أخوان، أبوهما حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو فريقياء ابن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وأم أوس وخزرج: قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاعة؛ ولذلك يقال لهما ابنا قيلة؛ وكان منهما قبيلتان مشهورتان من العرب، في مدينة يثرب، تذكران غالباً معاً فيقال: الأوس والخزرج، لكن غلب اسم الخزرج، وسموا أيضاً الأنصار، لأنهم أول من قام بنصرة النبي محمدٍ ﷺ، وساعدوه في حروبه، وآووه إلى أرضهم؛ أما أصلهم فقد جاء في كتب السير: أنه لما خرج فريقياء من اليمن، بعد تفرق أهل سبأ بسيل العرم[1]، ملك غسّان بالشام ثم هلك، وملك ابنهُ ثعلبةُ العنقاء؛ ولماهلك ملكَ بعده عمرو بن أخيه جفنةُ، فخط مكانه ابنهُ حارثة وأجمع الرحلةَ إلى يثرب ونزل على يهود خيبر، وسألهم الحلف والجوارَ على الأمانِ والمنعةِ فأعطوه من ذلك ما سأل؛ وقيل: لما سار ثعلبة بن عمرو بن عامرٍ، في من معه، اجتازوا يثرب، فتخلّف بها أوسٌ وخزرج ابنا حارثة في من معهما، فنزل بعضُهم بصرار، وبعضهم بالقرى من أهلها، ولم يكونوا أهل نَعَمٍ ولا شاةٍ، لأن البلاد لم تكن بلاد مرعى ولا نخل لهم ولا زرع، إلا الأعذاق الصغيرة اليسيرة، فكانوا يحيون الأرض الموات، ويزرعونها، والأموال لليهود؛ فلبثوا حيناً من الدهر على ذلك، وهم في ضيق

(١) أثبتت بحوث الأستاذ جليزر في سنة (١٨٩٦) أن السيل قد حدث وتكرر حدوثه وقد أهمل السد، فنشأ عن ذلك تصدع جوانبه، ويرى الأستاذ ولفنسون أن سيل العرم ليس هو السبب الوحيد في هجرة جميع البطون الأزدية إلى شمالي الجزيرة، بل لا بد أن تكون هناك أسباب أخرى.

مال، وسوء حال؛ ثم قدم منهم مالك بن عجلان، على أبي جبيلة الغسّاني، فسأله عن حالهم فأخبره بضيق معاشهم فقال: ما بالكم لا تغلبونهم كما غلبنا أهل بلدنا ووعده أنه يسير إليهم فينصرهم؛ فرجع مالك، وأخبر قومه بوعد أبي جبيلة، فاستعدُّوا له، وقدم عليهم، وخشي أن يتحصَّنَ منه اليهود، فاتخذ حائراً[1]، وبعث إليهم، فمال خواصُّهم وحشَمُهم وأذن لهم في دخول الحائر، ثم أمر جنوده فقتلوهم عن آخرهم؛ وقال للأوس والخزرج: إذا لم تتغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء، فلأحرقنكم. ورجع إلى الشام، فأقاموا في عداوة مع اليهود، ثم صنع لهم مالك بن عجلان طعاماً ودعاهم، فامتنعوا خوفاً من الغدر، فاعتذر إليهم مالك عن فعل أبي جبيلة ووعدهم أنه لا يقصد مثل ذلك، فأجابوه وجاءوا إليه، فغدرهم وقتل سبعاً وثمانين من رؤسائهم، وفرَّ الباقون، وصَوَّرَتِ اليهودُ مالكاً في كنائسهم وبيعهم، وكانوا يلعنونه كلما دخلوا.

ولم يمض زمانٌ طويل، حتى أثرى الأوس والخزرج، وامتنع جانبهم وقد تناسلوا وتكاثروا، وتشعَّبُوا عدة بطون.

فلما فعلوا ما فعلوا باليهود، واعتزوا وكثروا، تفرقوا في عالية يثرب وسافلتها، وملكوا أمرها في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر؛ ثم قامت الفتن بين الحيّين، وكل منهم يستنصر بمن حالفه من مضر واليهود، فاشتعلت الحرب بينهم وبين الأوس[2].

١٥٧ ـ. العداوة بين الأوس والخزرج وتسميتهم بالأنصار

كانت أول فتنةٍ وقعت بين الأوس والخزرج حرب (سمير) وذلك أن رجلاً حليفاً يقال له: كعب، فاخر الأوسَ بشيء، فغضب منهم رجل يقال[3] له سمير وشتمه، ثم رصده، حتى خلا به فقتله، فغضب مالكُ بنُ عجلان، وطلب

(١) الحائر: هو المكان المطمئن الوسط المرتفع الجوانب. .

(٢) خلاصة عما كتبه مؤلف كتاب (محمد رسول الله) ص ١٧٧ و ١٧٨.

(٣) كان على المؤلف أن يقتصر على قوله: (فاشتعلت الحرب بينهم) دون ذكر (وبين الأوس). لأن الحديث عن الأوس والخزرج. المحقق.

(٣) لم يذكر في الأصل كلمة (يقال). المحقق.

الرجل من عشيرته، فأنكروا عليه معرفته، وعرضوا عليه الدية فقبلها، فأرسلوا إليه نصف الدية، لأن الرجل حليف لا نسيب، فأبَى إلا ديةً كاملةً، فامتنعوا ولجَّ الأمرُ، حتى أفضَى إلى المحاربة فاقتتلوا مرتين، كانت النصرة في الثانية منهما للأوس، فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك بن عجلان، أنْ حكّم بيننا (المنذر بن حرام النجاري الخزرجي) وهو جد حسّان بن ثابت، فأجابهم إلى ذلك، فحكم بأن يؤدي الأوس إلى مالك ديةَ الصريح، ثم يعودون إلى سُنَّتهم القديمة، فرضوا بذلك وافترقوا؛ وقد شبت البغضاء في قلوبهم وتمكّنت العداوة بين القبيلتين.

ثم إن كعب بن عمرو المازني الخزرجي تزوّج امرأةً من بني سالم، فأمر أحيحة بن جلاح رئيس بني حجج من الأوس جماعةً أن يرصدوه ويقتلوهُ، ففعلُوا، فدعا أخوه عاصمٌ قبيلتَهُ للنصرة، فاستعدُّوا والتقوا هم والأوس، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت بنو حجج وانهزم أحيحة، فركض وراءه عاصمٌ فأدركه، وقد دخل باب الحصن وأغلقه فرماه بسهم فلم يصبه، فقتل أخاً له، فعزم أحيحةُ أن يكبس بني النجار، وكان متزوجاً بامرأة منهم، فلم يرضَها ذلك، وخافت على قومها، فسارت إليهم ليلاً، وقد نام أحيحة بعد سهرٍ طويلٍ، وأنذرتهم؛ فلما همَّ أحيحةُ إذاهم[1] على سلاحهم فلم يقدر عليهم، فضرب امرأته حتى كسر يدها، لما بلغه ما فعلتْ وطلّقها.

ثم كانت حرب بين بني وائل بن زيد من الأوس، وبين بني مازن بن النجار من الخزرج، وذلك أن الحصين بن الأسلت الأوسي نازع رجلاً من بني مازن وقتله، فتبعه قوم من بني مازن فقتلوه، فبلغ ذلك أخاه أبا قيسِ بنِ الأسلت، فجمع قومه، وانضمَّتْ الأوسُ والخزرج كلها، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الأوس.

ثم كانت حرب بين بني ظفر من الأوس، وبني مالك بن النجار من الخزرج وذلك أن رجلاً من ظفر كان يمر إلى أرضه في أرض رجلٍ من بني

---

(١) (إذاهم) إذا فجائية. هذا وفي الأصل: (أذاهم). المحقق.

النجار، فنعه فلم يمتنع، فنازعه فقتله الظفري، فاجتمع قومُهما واقتتلا فانهزم بنو مالك بن النجار.

ثم إن رجلاً من بني النجار أصاب غلاماً من قضاعة وقتله وكان عم الغلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسي، فطلب معاذٌ ديتَهُ من بني النجار فامتنعوا، فلقيهم بقومه عند فارغ أطم (حصن) حسان بن ثابت، ولم يزل القتال بينهم، حتى حمل الدية إليه عامر بن الأطنابة فاصطلحوا حالاً.

ثم كانت الموقعة المعروفة بحاطب، وهو حاطب بن قيس من بني أمية ابن زيد بن مالك بن عوف الأوسي، وبينها وبين حرب سمير نحو مائة سنة، وكان سبب هذه الحروب: أن حاطباً كان رجلاً شريفاً سيداً فأتاه رجلٌ من بني ثعلبة بن سعدِ بن ذبيان، فنزل عليه، ثم إنه غدا يوماً إلى سوق قينقاع، فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فسحم، وهي أمه، وهو من بني الحارث بن الخزرج، فقال يزيد لرجلٍ يهودي: لكَ ردائي إن كسعتَ هذا الثعلبي، فأخذ رداءه وكسعه(١) كسعةً سمعها من بالسوق، فنادى الثعلبي يا لحاطب كسع ضيفك وفضح؛ وأخبر حاطب بذلك، فجاء إليه فسأله من كسعه؟ فأشار إلى اليهودي، فضربَهُ حَاطِبٌ بالسيف ففلق هامته، فأخبر ابن فسحم الخبرَ وقيل له: قُتل اليهودي، قتله حاطبٌ. فأسرع خلف حاطب فأدركه، وقد دخل بيوتَ أهله، فلقي رجلاً من بني معاوية فقتله ــ ولا ندري السبب الذي دعا ابن فسحم أن يحرض ذلك اليهودي على ضرب الثعلبي في دبره ــ فثارت الحرب بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيها للخزرج، وهذا اليوم من أشهد أيامهم، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب؛ فمنها يوم الربيع، ويوم البقيع، والفجار الأول والثاني، ويوم بعاث، وهو آخر الأيام بينهم، وكان ذلك حوالي سنة (٦١٦)م، فلما سئموا القتال، أجمعوا أمرهم على تتويج عبد الله بن أبي ابن سلول ملكاً عليهم، وابن سلول هذا هو الملقب برأس المنافقين؛ وقد حسد النبيَّ ﷺ (٢) لأن الإسلام منع تتويجه، وأخذته العزة بالإثم، فأضمر الشرَّ،

(١) كسعة: ضرب دبره بيده.

(٢) لم يذكر في الأصل (ﷺ). المحقق.

وهو الذي قال في غزوة المصطلق: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ)[1] فقال ابنُه عبدُ الله للنبي ﷺ: هو والله الذليل وأنتَ العزيز يا رسول الله، إن أنتَ أذنتَ لي في قتله قتلتُه، فوالله لو[2] علمت الخزرج ما كان بها أحدٌ أبرَّ بوالده مني؛ ولكني أخشى أن تأمر به رجلاً مسلماً فيقتُله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي، يمشي على الأرض حياً حتى أقتله[3]؛ فقال النبيُّ ﷺ: بل نحسنُ إليه في صحبته ونترفق به ما صحبنا، ولا يتحدث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه، ولكن برَّ أباكَ، وأحسنْ صحبته.

ولما أنعم الله تعالى على الخزرج والأوس بنعمة الإسلام، اتفقت الكلمةُ واجتمع الشمل، وآخى رسول الله ﷺ بين الفريقين ولقّبها بالأنصار لأنهم نصروه، وتوحيد الاسمين تحت راية الإسلام، كان[4] أعظم أثرٍ في النفوس؛ إذ بذلك امتنع الشقاق، وتضافرت الجهود، وتصافت النفوس، وقويت الجبهة الداخلية وتراصَّتْ، وساروا جميعاً نحو غرض واحدٍ، ومبدأٍ واحدٍ، تحت راية واحدة: راية لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

١٥٨ ــ معاهدة الرسول ﷺ لليهود في المدينة

بعد أن تمت الأخوة الإسلامية بين الأنصار، (والقضاء على ما كان بين الأوس والخزرج من إحنٍ وحزازت وفتنٍ ودماء من جهة) وبين المهاجرين[5]، وأجمع الجميع على طاعة الله ورسوله، وقويت الجبهة الداخلية في الإسلام بقي هناك فئة من اليهود عاهدهم وأقرهم واشترط عليهم.

---

(١) جزء من الآية رقم (٨) من سورة المنافقون. المحقق.

(٢) لعل الصواب (لقد) بدل (لو). المحقق.

(٣) لهذا الكلام صلة ونصها: (فأكون قد قتلت مؤمناً بكافر، فأدخل النار) فقال النبي.. الخ. المحقق.

(٤) لعل الصواب (كان له) بزيادة كلمة (له). المحقق.

(٥) أي بين الأنصار والمهاجرين. المحقق.

قال ابن إسحاق[1]: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم واشترط لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتابٌ من محمدٍ النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[2]، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم[3]، بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقِسْط بين المؤمنين؛ وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النَّبيتِ على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفةٍ منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَجاً بينهم أن يعطوهُ بالمعروف في فداء أو عقل.

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١١٩. وكتاب محمد رسول الله ص ١٧٣.

(٢) الربعة والرباعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها، ويقال فلان يقوم برباعة أهله إذا كان يقوم بأمرهم وشأنهم.

(٣) العاني: الأسير، والمخذول: من تركه قومه وخذلوه.

ولا يحالفُ مؤمنٌ مولَى مؤمنٍ من دونه، وإن المؤمنين المتقين على مَنْ بَغَى منهم، وابتغى دسيعة[1] ظلمٍ، أو إثمٍ، أو عدوانٍ، أو فسادٍ بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدهم، ولا يَقْتُلُ مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ، ولا يَنْصُرُ كافراً على مؤمنٍ، وإن ذمةَاللهِ واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس؛ وإنه من تَبِعَنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم، وإن سلمَ المؤمنين واحدة؛ لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ، في سبيل الله إلا على سواء وعَدْلٍ بينهم؛ وإن كل غازية غَزَتْ معنا، تعقبُ بعضُها بعضاً، وإن المؤمنين يُبِيءُ[2] بعضُهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومِهِ؛ وإنه لا يُجيرُ مشركٌ مالاً لقريشٍ، ولا نفساً، ولا يحُولُ دونه على مؤمنٍ، وإنه من اعتبطَ[3] مؤمناً قتلاً عن بينةٍ فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضَى وليُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمنٍ أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمنَ باللهِ واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً ولا يؤويه، وإن مَنْ نصرَهُ أو آواهُ فإن عليه لعنةَ اللهِ وغَضبَهُ يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْفٌ ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإنّ مردَّهُ إلى الله عز وجل، وإلى محمدٍ ﷺ.

وإن اليهود يتّفقونَ مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين: لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[4]، إلا نَفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوفٍ، وإن ليهود بني الحارث مثلَ ما ليهود بني عوفٍ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود

---

(١) الدسيعة: هي ما يخرج من حلق البعير إذا رغى، فاستعاره هنا للعطية، وأراد به هنا ما ينال منهم من ظلم.

(٢) يبيء: يمنع و يكف.

(٣) اعتبطه: أي قتله من غير ما شيء يوجب قتله.

(٤) لا يوتغ: لا يهلك و يقال: أوتغه: إذا أهلكه.

بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثلَ ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشُّطَيْبَة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البرَّ دون الإثم[1]، وإن مواليَ ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة[2] يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجزُ على ثارِ جرحٍ، وإنه من فَتَكَ فبنفسه فَتَكَ وأهلِ بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبرِّ هذا، وأن على اليهودِ نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم[3]، وإن بينهم النَّصْرَعلى من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفهِ، وأن النصر للمظلوم، وإن اليهود يُنفقونَ مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثربَ حرامٌ، جَوْفُهَا لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غيرَ مُضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجار ــ اختلاف ــ يُخافُ فسادُهُ، فإن مردَّهُ إلى الله عز وجل، وإلى محمدٍ رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقَى ما في هذه الصحيفة وأبرّهِ، وإنه لا تُجار قريشٌ ولا مَنْ نصرَها؛ وإن بينهم النصر على من دهِمَ يثرب[4] وإذا دُعُوا إلى صُلْحٍ يصالحونه و يلبسونه، فإنهم يصالحونه و يلبسونه، وإنهم إذا دُعُوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين؛ على كل أناسٍ حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ الْحَسَنِ من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ وآثم، وإنه من خرج آمنٌ، ومَنْ قعد آمِنٌ بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتَّقَى، ومحمدٌ رسول الله ﷺ».

---

(١) إن البر دون الإثم: أي إن البر ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم، والوفاء ينبغي أن يمنع من الغدر.

(٢) بطانة الرجل: خاصته، وأهل سره.

(٣) قال السهيلي: إنما كتب الرسول ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية وكان الإسلام ضعيفاً.

(٤) من دهم يثرب: يريد من فاجأها، تقول: دهمتهم الخيل: إذا فاجأتهم.

وبهذا تمت الألفة والمحبة، وسادت الطمأنينة بين الناس، وشعر المسلمون بالعزة والكرامة، والسيادة والسلطان، ومن أجل هذا اعتبرت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فاتحة عهد جديد للإسلام، ومبدأ للتاريخ الإسلامي.

١٥٩ ــ فتحٌ جديد في الحياة السياسية بعد الوثيقة

إن الوثيقة المذكورة فيما تقدم، التي وضعها سيدنا محمدٌ ﷺ منذ ألف وثلاثمائة وسبع وتسعين سنة هجرية، والتي تُقرّر حريةَ العقيدة وحرية الرأي، وحرية المدينة، وحرية الحياة، وحرية المال، وحرية العمل، وحرية السكن للمواطن؛ كما تقرر تحريم الجرعة في كل أنواع صورها وألوانها؛ والوثيقة هذه فتحٌ جديدٌ في الحياة السياسية، والحياة المدنية في عالمٍ جاهلي، انقلب حاله من الهمجية، إلى المدنية، ومن الجهالة إلى العلم، ومن الغوغائية للتدبير[١] الحكيم على يد سيد الوجود محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، في أمة أميةٍ، كانت تعبث بها الأهواء، وتتحكم بها القبلية والعشائرية، وتستبد بها أيدي الظالمين لأتفه الأمور وأوهى الأسباب، تزهق فيها الأرواح، وتسيل[٢] الدماء، لكلمة جوفاء أو حادثة واهية، تعبث فيها يد الظلم فساداً؛ ولئن لم يشترك في توقيعها، كل اليهود؛ فقد فاقت[٣] بنوقُريظة وبنوالنضير وبنوقينقاع على خبر توقيع الوثيقة من جماعتهم يهود المدينة، فإنهم ما إن سمعوا بها أن قابلوا سيدنا محمداً ﷺ، واتفقوا على صحف مثلها، ووقّعُوا كما وقع إخوانهم يهود، وأصبحت المدينة وما حولها، حَرَماً لأهلها، عليهم أن ينضحوا عنها، ويدفعُوا كل عادية عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم، لاحترام ما قَرَّرَتْ هذه الوثيقةُ فيها من الحقوق ومن صور الحرية، والكل عنها راضون، وبفضلها معترفون، وإنها تدعو إلى حياة أفضل، وحرية مثلى، لم يعهد مثلها في التاريخ.

---

(١) الأفضل (إلى التدبير الحكيم). المحقق.

(٢) الأفضل (وتُسال الدماء). المحقق.

(٣) (فاقت) لعل الصواب (اطلعتْ) حتى يستقيم المعنى. المحقق.

١٦٠ ــ تشريع العبادات والمعاملات بعد توقيع المعاهدة

(الصلوات الخمس)

في هذه الفترة التي سكن فيها المسلمون إلى دينهم بعد توقيع المعاهدة وكانوا يؤدُّونَ الصلاة فرادى وجماعات، لأن الله فرضها يوم إسراء رسول الله ومعراجه. يقول العلامة الشيخ إبراهيم البيجوري في حاشيته على أبي شجاع[١]: وفرضت الصلاة ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، وقيل بستة أشهرٍ، ثم قال: وهي أفضل العبادات البدنية الظاهرة.[٢]

قال أنس رضي الله عنه: «فرضت الصلاة على النبي ﷺ ليلة أسري به خمسين، ثم نقصت حتى جعلت خمساً، ثم نودي يا محمد! إنه لا يبدل القول لديَّ وإن لك بهذه الخمس خمسين» رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه.

والحكمة من مشروعيتها: تمرين الإنسان على التذلل والخضوع بين يدي الله تعالى ومناجاته بالقراءة والذكر، واستعمال الجوارح في خدمته، وبعث حقيقة الذكرى في نفس العبد المسلم، وقطع مادة الغفلة عنه، وإشعاره بعظمة خالقه ومولاه، وتعويد المسلم على النظام الكامل في أعماله، والترتيب المنسجم مع سائر تصرفاته، وغرس اليقظة الوجدانية في فؤاده، والاستقامة على أمر الله في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والغنى والفقر، وتمرينه على الطاعة والانقياد، والاستسلام الكامل لشريعة خالقه المنعم عليه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى، والقيام بشكر تلك النعم، قال الله تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ وقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقد ذكرها الله في القرآن مقرونة بالزكاة في[٣] أكثر من اثنين وثمانين آية؛ للحفظ على فريضتها والإتيان بها؛ كما جاءت الأحاديث الكثيرة على ذلك.

---

(١) أنظر ج ١ ص ١٤٤.

(٢) وهي مدرسة للتربية، ومصنع للأخلاق. وهي معراج تسمو به النفوس، ومصفاة تصفو بها الأرواح، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

(٣) (في أكثر) في الأصل (أكثر). المحقق.

لذا حافظ عليها المسلمون بمكة رغم مخاوفهم، وعندما أمنوا بالمدينة المنورة احتاجوا إلى أدائها بالجماعة، فأمر النبي ﷺ في[1] بناء المسجد فبني؛ غير أنهم احتاجوا إلى إخبارهم وإعلامهم بأوقات الصلوات الخمس، وأدائهم لها جماعة، فشرع عندئذٍ الأذان.

١٦١ ــ مشروعية الأذان للصلاة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يجمع به الناس للصلاة، فذكر عنده البوق وأهله، وذكر الناقوس وأهله، فكره حتى أري رجل من الأنصار ــ هو عبد الله بن زيد[2] ــ الأذانَ وأريه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تلك الليلة؛ فأما عمر فقال: إذا أصبحتُ أخبرتُ رسول الله ﷺ؛ وأما الأنصاري، فطرق رسول الله ﷺ ــ أي قصد[3] ــ في الليلة، فأخبره، وأمر رسولُ الله ﷺ: بلالاً، فأذَّنَ بالصلاة، وصار أهل المدينة جميعاً يسمعون منذ الفجر من كل يوم وليلة، دعوة إلى الإسلام مرتلة ترتيلاً حسناً، بصوت رطب جميل، يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحي، ويلقي في أذن الحياة نداءه: (الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله) وذكر أذان الناس اليوم، قال فزاد بلال في الصبح: (الصلاة خير من النزم) فأقرَّها رسول الله ﷺ، وليست فيما رأى الأنصاري عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وله ﷺ من المؤذنين: بلال وابن أم مكتوم عبد الله بالمدينة.

وكان الأذان في السنة الأولى من الهجرة بعدما بنى رسولُ الله ﷺ مسجدَهُ؛ وقد سبق الوحيُ رؤيَا عبد الله، وعمر[4].

---

(١) الأفضل (ببناء المسجد). المحقق.

(٢) عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصاري. شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

(٣) الأفضل (أي قصده). المحقق.

(٤) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ١٩٢.

والأذان لغة: الإعلام، وشرعاً إعلام مخصوص على وجه مخصوص بألفاظ مخصوصة، وهو سنة مؤكدة للرجال في مكان عالٍ للفرائض الخمس في وقتها، وينبغي على المؤذنين ألا يتنغموا[1] بالأذان ويمطوا[2] زيادة على المطلوب بالأنغام، ويسنّ أن يكون المؤذن بالغاً حراً ذا[3] صوت حسن.

١٦٢ ــ فرض صيام شهر رمضان وحكمته وزكاة الفطر

فَرَضَ اللهُ تعالى صيام شهر رمضان المبارك بعدما صرفت القبلة في شهر شعبان على رأس ثمانية عشرة شهراً من هجرة رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ ﴾[4] الآية. وقال الله تعالى: ﴿ فمن شهد منكمُ الشهر فليصمْهُ ﴾[5].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه موافقةً لهم، ولم يأمر أحداً من أصحابه بصيامه؛ فلما قدم المدينة ــ من سفرة سافرها من المدينة بعد الهجرة ــ صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فُرِضَ رمضان كان رمضان هو الفريضة، وترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه).

وكان يهود المدينة يصومونه و يعظّمونه، لأن الله أنجى فيه موسى وقومه من الغرق، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله، وصامه رسولُ الله ﷺ، وأمر بصيامه قائلاً: «نحن أحق بموسى منكم»، وفي روايةٍ: «أنا أولَى بموسى».

و يوم عاشوراء: هو اليوم العاشر من شهر المحرم.

---

(١) في الأصل (يتنغمون) بثبوت النون. والصواب حذفها لأنه مضارع منصوب بأن. المحقق.
(٢) في الأصل (ويمطون). والصواب حذف النون لأنه مضارع معطوف على منصوب. المحقق.
(٣) في الأصل (ذات) والصواب (ذا) المحقق.
(٤) جزء من الآية رقم (١٨٣) من سورة البقرة. المحقق.
(٥) جزء من الآية رقم (١٨٥) من سورة البقرة. المحقق.

إن الله تعالى فرض الصيام لحكمةٍ بالغةٍ، ومقاصد سامية، ترجع كلها إلى تحقيق مصالح الإنسان، وتوفير أسباب السعادة في الدنيا والآخرة؛ فالطبيبُ الذي يكلّف المريض شرب الدواء المر، لا ليؤلمه بمرارته، ولكن ليصل إلى شفائه من مرضه؛ فمن أظهر حِكَمِ الله تعالى في تكليف عباده بالصوم، أن الصيام والصلاة والزكاة والحج، وكل عبادة كلف الله بها عباده، هي روابط وصِلات تربط العبدَ بربه القدير سبحانه، وتجعله دائماً ذاكراً له، مستشعراً ألوهيته وعظمته، راجياً فضله ورحمته، ومن استمسك بهذه الروابط، وكان في كل حالاته على ذكرٍ من ربه، واستشعارٍ لعظمته، ورجاء لرحمته، وخوف من سخطه، قَوِيَ إيمانُه ورسخت عقيدته؛ والإيمان إذا صدق وقوي، مَلَكَ على المؤمن حواسه وجوارحه؛ فاستسلم لطاعة الله، وكانت كل أعماله وأقواله على ما يقتضيه إيمانه، وأحب طاعة الله وكره عصيانَهُ، وإلى هذا أشار الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بعبادتي[1]، حتى أكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به».

ومن أظهر حِكَمِ الله في تكليف عباده بالصوم: أن الله تعالى خلق الإنسان نوعاً وسطاً بين الحيوان وبين المَلَكِ؛ ففيه ناحية مادية حيوانية، تدفعه إلى الإسراف فيما تَشتهيه نفسُه من ملذّات وشهوات وإلى الأنانية والحياة الإباحية، وعدم المبالاة بأي إثمٍ أو عدوان في سبيل إرضاء غريزته الحيوانية؛ وفيه ناحية روحيةٌ ملائكيَّةٌ، تدعوه إلى الاقتصاد في الشهوات، وإلى مقاومة النفس الأمارة بالسوء، وإلى الوقوف عند حدود الله، والسموّ إلى المستوى الملائكي.

فالله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته لعباده المؤمنين، فرض الصومَ عليهم، ليكونوا برياضة روحية تُقوّي فيهم ناحية الملكيَّة، وتضعف فيهم الناحية

(١) لم أعثر على كلمة (بعبادتي) في أي رواية لهذا الحديث ونص رواية أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري نقلا من رياض الصالحين: (قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب. وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه. فإذا أحببتُه، كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيتُه، ولئن استعاذني لأعيذنّه». المحقق.

الحيوانية، وعلى أن يتجنبوا الإثم والعدوان وكل الشرور التي يَقْتَضِيهَا الإسراف في الشهوات والملذات، وإلى هذا أشار اللهُ تعالى بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقُون ﴾ [1] وأشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «الصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتله فليقل إني صائم».

وللصيام حكم كثيرة ليس هذا موضعها، وإنما ذكرتُ بعضاً من كل، من حكم الصيام للفهم والاعتبار؛ لأنه لا يقدر قدر النعمة إلا إذا[2] حرم منها، فالصحيح لا يقدر نعمة العافية إلا إذا مرض، والموسر لا يقدر نعمة اليسر إلا إذا أعسر، وكذلك المتمتع بالطعام والشراب لا يقدر هذه النعمة إلا إذا ذاق ألم الجوع والعطش، في الصيام تقدر النعمة، فيزداد العبد شكراً لله، ولذا فرض الصيام، وبهذا كفاية، وفي هذه السنة التي فرض فيها الصيام فُرضت زكاة الفطر قبل أن تفرض الزكاة في الأموال، وكان الرسول العظيم يخطب قبل الفطر بيومين فيأمر الناس بإخراجها، قبل أن يذهب إلى المصلَّى.

١٦٣ ــ فريضة الزكاة وحكمتها في التشريع الإسلامي

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمس، وقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» رواه الإمام البخاري ومسلم عن ابن عمر ومروي عن أبيه عمر وقال الله تعالى: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ وقال: ﴿ وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم ﴾ [3].

---

(١) الآية رقم (١٨٣) من سورة البقرة. المحقق.

(٢) الصواب (إلا من حرم منها). المحقق.

(٣) الآية رقم (١٩) من سورة الذاريات. المحقق.

الحيوانية، وعلى أن يتجنبوا الإثم والعدوان وكل الشرور التي يَقْتَضِيهَا الإسراف في الشهوات والملذات، وإلى هذا أشار اللهُ تعالى بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقُون﴾ [1] وأشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «الصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّهُ أحدٌ أو قاتله فليقل إني صائم».

وللصيام حكم كثيرة ليس هذا موضعها، وإنما ذكرتُ بعضاً من كل، من حكم الصيام للفهم والاعتبار؛ لأنه لا يقدر قدر النعمة إلا إذا[2] حرم منها، فالصحيح لا يقدر نعمة العافية إلا إذا مرض، والموسر لا يقدر نعمة اليسر إلا إذا أعسر، وكذلك المتمتع بالطعام والشراب لا يقدر هذه النعمة إلا إذا ذاق ألم الجوع والعطش، ففي الصيام تقدر النعمة، فيزداد العبد شكراً لله، ولذا فرض الصيام، وبهذا كفاية، وفي هذه السنة التي فرض فيها الصيام فُرضت زكاة الفطر قبل أن تفرض الزكاة في الأموال، وكان الرسول العظيم يخطب قبل الفطر بيومين فيأمر الناس بإخراجها، قبل أن يذهب إلى المصلّى.

١٦٣ ــ فريضة الزكاة وحكمتها في التشريع الإسلامي

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمس، وقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» رواه الإمام البخاري ومسلم عن ابن عمر ومروي عن أبيه عمر وقال الله تعالى: ﴿وآتوا الزكاة﴾ وقال: ﴿وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم﴾[3].

---

(١) الآية رقم (١٨٣) من سورة البقرة. المحقق.

(٢) الصواب (إلا من حرم منها). المحقق.

(٣) الآية رقم (١٩) من سورة الذاريات. المحقق.

وقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله، واللهُ عليمٌ حكيم﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «أدُّوا زكاة أموالكم» رواه الطبراني. والحكمة من الزكاة: هي أن الله تبارك وتعالى، خلق الخلق لعبادته، والقيام بشكره، وجعل العبادة ألواناً منها: الجسماني، والمالي، والمركب منهما.

ولما كان إخراج المال شاقاً[2] على النفس؛ والإنسان بطبيعته يحب المال حباً جماً، وحب المال أحد أمراض النفوس، وعلاجه إزالة ما بها من علّةِ البخل والشحّ؛ وتدريبُها على السماحةِ المؤدية للفلاح، ﴿ومن يوقَ شحَّ نفسه، فأولئك هم المفلحون﴾[3].

وبفريضة الزكاة يتميز الطائعُ لربه، المحبُّ لمولاه، من المخالف وصاحب الدعوى، ولا ريب أن من أخرج الزكاة فقد حفظ دينه، وأرضى ربه ونَما مالهُ، وحفظه من التلف، لقوله ﷺ: «حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة»، وقد تبرَّأ من دنس الشح، وقام بواجب الشكر لخالقه الذي أنعم عليه بنعمٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومنها نعمة المال.

وبفريضة الزكاة، تنغرس في نفس المؤمن معاني الشعور بالمسئولية والإحساس بآلام الآخرين، فيفيضُ قلبُه بالرحمة، ويمتلىء بالحنان والعطف، فيمدّ يد الإحسان إلى أخيه الإنسان، ويحاول التخفيف من لأوائه وبأسائه بقدر إمكانياته.

وبفريضة الزكاة تتطهر القلوب، ويُستأصل داء الحقد الذي يكمن في نفس الفقير المحتاج على الغنيّ المترف، فيشعر الناس بالتضامن الاجتماعي، ونشر الألفة والمحبة بينهم.

---

(١) الآية رقم (٦٠) من سورة التوبة.

(٢) جزء من الآية رقم (٩) من سورة الحشر. المحقق.

(٣) في الأصل (شاق). والصواب ما أثبتناه. لأنه خبر كان. المحقق.

إن الجزء اليسير الذي يخرجه المزكي من ماله لبني جنسه لهو خير علاج لشحّ النفس وبخلها؛ فإذا تعوَّدَ الإنسانُ التبرعَ بهذا الجزء اليسير، تمرَّنَ على الكرم والسخاء، والجود والعطاء، وانتزع من نفسه الطغيان، قال الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ﴾[1].

وليس يقلّم أظافر[2] الطغيان إلا أن يعتقد الغنيُّ أن المالَ مالُ الله وأنه مستخلفٌ فيه، ووكيل في حسن القيام عليه، وأن الفقراء إخوانه جعل الله لهم قِبَلَهُ حقاً معلوماً، فلا يليق أن يبخل بهذا الحق.

إن هذا الجزء اليسير من الزكاة كفيل بأن يحقق مجتمعاً فاضلاً نظيفاً يسوده الرخاء، وتعمه الطمأنينة، وتنتشر فيه الألفة والتضامن، وليس التاريخ الإسلامي عنا ببعيد، حيث حقّق المجتمع الفاضل الذي يسمّى في عرف الفلاسفة (المدينة الفاضلة).

لذا أرى الخير كل الخير، في أن تجبي الحكومة الزكاة المفروضة، وتنفقها فيما يصلح شأن الفقراء من إيوائهم وإطعامهم وكسوتهم وعلاجهم، وتعليمهم بدلاً من تركهم[3] يعانون آلام الفاقة من جوع وعري ومرض وتشريد، أو اعتناق بعض العقائد المستجلبة من خارج ديار الإسلام التي نشأت من الخلاف القائم بين الاغنياء والفقراء، فقد لمسنا الخير من جمعية النهضة في جمع الزكاة وصرفها على المستحقين فقد خففت كثيراً من آلام المعوزين والمحتاجين، والحكومة أولىٰ بذلك. اللهم اهدنا الصراط المستقيم. وردنا إلى دينك القويم واجعلنا ممن يستمعون القول، فيتبعون أحسنه، اللهم آمين.

١٦٤ ــ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة

لما هاجر رسول الله سيدنا محمدٌ ﷺ إلى المدينة، صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن يصرف إلى استقبال الكعبة البهية

(١) من سورة أقرأ آية (٦و٧).
(٢) الأولى (أظفار) لأنه جمع (ظفر) وهو يجمع على (أظفار). المحقق.
(٣) في الأصل (تركها). المحقق.

لما بلغه أن اليهودَ قالوا: يخالفنا محمدٌ، و يتبع قبلتَنا؛ فقال يا جبريل وددت أن الله صرف وجهي عن قبلةِ اليهود، فقال جبريل: إنما أنا عبدٌ فادعُ ربَّكَ وَسَلْهُ وجعل إذا صلّى إلى المقدس، يرفع رأسه إلى السماء، ينتظرُ أمرَ اللهِ؛ لأن السماء قبلةُ الدعاء، فنزل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿قد نَرى تَقَلُّبَ وجهكَ في السماء، فلنولينَّكَ قبلةً ترضاها﴾(١) فوجه إلى الكعبة إلى الميزاب؛ ويقال: صلّى رسول الله ﷺ ركعتين من صلاة الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام، فاستدار إليه، ودار معه المسلمون؛ و يقال: بل زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعتْ له طعاماً، وحانت الظهرُ، فصلّى رسولُ الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أمر أن يتوجَّهَ إلى الكعبة، فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب، فسمي المسجد (مسجد القبلتين) إلى يومنا هذا وهو المعتمد. وكان ذلك يوم الاثنين للنصف من شهر رجب على رأس ثمانية عشر شهراً(٢). وفي البخاري: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح؛ إذ جاءهم آتٍ، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآنٌ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، فاستداروا إلى الكعبة.

قال الله تعالى: ﴿سيقولُ السفهاءُ من الناس، ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرقُ والمغربُ يَهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾(٣). وهذا رداً لليهود والمنافقين الذين ساءهم ذلك، وعن يزيد النحوي عن عكرمة والحسن البصري قالا: أول ما نسخ من القرآن، القبلة.

جاء في حاشية الشيخ إبراهيم البيجوري(٤) قوله: وقد صحَّ أنه ﷺ كان يجعل الكعبة أمامه ــ وهو في مكة ــ حتى يكون مستقبلاً لها ولبيت المقدس وهي مما تكرر النسخ لها، كما قاله السيوطي في نظمه المشهور:

---

(١) جزء من الآية رقم (١٤٤) من سورة البقرة. المحقق.

(٢) أنظر طبقات ابن سعد الكبرى، وكتاب محمد رسول الله ﷺ ص ١٩١.

(٣) الآية رقم (١٤٢) من سورة البقرة. المحقق.

(٤) أنظر الجزء الأول من الحاشية ص ١٧٤.

وأربعٌ تكرَّرَ النسخ لها جاءتْ بها النصوصُ والآثارُ
فقبلةٌ ومتعةٌ وخمرةٌ كذا الوضوءُ مما تمسُّ النَّارُ

١٦٥ ــ مواقف الرسول ﷺ مع اليهود

لقد تمَّ لسيدنا محمدٍ ﷺ ما يريد، من تكوين أمةٍ مسلمةٍ تعبدُ الله تعالى وتحمده، وتوحده وتشكره، وتعمل لرضاه، وأنزل الله تبارك وتعالى عليه آيات الأحكام، من الصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك من أحكام، وكلما استجدَّ أمر، أو وقعت حادثة، أو لزم تشريع، هبط الأمين جبريل عليه السلام بالأحكام اللازمة، موفداً من الله للتشريع الإسلامي وقد عَلَّم اللهُ رسولَه الحلال والحرام، وأمره أن يحكم بين الناس بما أنزله عليه؛ وقد حمد الله على فضله وإحسانه، وحراسته وتوفيقه، وخَلاصه من كفار قريش ومناوأتهم له، وتآمرهم عليه، الذين حاول أن يهديهم إلى الإسلام ثلاثة عشر عاماً، فلم يجد منهم إلا جموداً في الرأي، وضيقاً في الفكر، وضلالاً في العقل؛ وقد أبدله الله عز وجل منهم[1] في المدينة عقولاً نيّرة، تصغى للحق، وتتبع الهدى.

ولعلَّ رسولَ الله ﷺ أمَّل في اليهود خيراً باعتبارهم من قوم موسى عليه السلام، وقد جاءهم بما يؤيد كتابهم التوراة، لشريعته وأنهم من أهل أحكام كتاب الله التوراة؛ وما نزل القرآنُ إلا من عند الله تبارك وتعالى وهو قد أنزل التوراة؛ ومن أجل هذا بالغ الرسول ﷺ في العناية بهم، واجتذابهم إليه؛ ولم يشأ أن يدعوهم إلى الإسلام قسراً، لأنه لا إكراه في الدين، بل إنه ضمن لهم بمقتضى ذلك البلاغ الذي أصدره، أو الصحيفة التي نشرها، والوثيقة التي رضوا عنها، وفيها كما قرأت يا أخي: من حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرية المدينة، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وتحريم الجريمة.

ولم يكن ينتظر بعد هذا، أن يجد الرسول ﷺ من اليهود غير الصدق والوفاء بالعهد، وما كان يحسب أنهم سيكونون شراً عليه من مشركي

---

(١) لو قال (خيراً منهم) لكان أوضح. المحقق.

قريشٍ، الذين خالفهم في عقائدهم، وحارب آلهتهم.

نعم لقد كان يحسن الظنَّ فيهم، ويؤمل كثيراً في هدايتهم، ويطمع في مناصرتهم له، سيما وقد علم ممن أسلم على يديه منهم، أنهم كانوا يتوقَّعُونَ بعثتَهُ، ويعدون باتّباعه، والقتالِ تحت رايتهِ ولوائه، حتى جاءه يوماً، الحصينُ بن سلامٍ من أكابر أخبار اليهود، وذوي المكانة السامية فيهم، وصارحه بحقيقة أمرهم، من أنهم قوم متقلّبون متلونون، لا يؤمنون بالحق، ولا يحبونه عن عقيدة؛ ولا يركن إليهم ولا يوثق بهم، أو بأقوالهم، قال: وإن شئتَ البرهان على هذا فإليكَ قصتي ــ وستأتيك أيها القارىء الكريم.

١٦٦ ــ إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث

كان عبدالله بن سلامٍ كما قال بعضُ أهله عنه: حبراً عالماً ضليعاً. قال: سمعتُ برسول الله ﷺ، وعرفتُ صفتَهُ واسمَهُ وزمانَهُ الذي كنا نتوكف له، فكنت مسراً بذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوفٍ، أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلةٍ لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبرَ بقدوم رسول الله ﷺ كَبَّرْتُ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيَّبَكَ اللهُ، والله لو كنت سمعتَ بموسى بن عمران قادماً ما زدتِ، قال: قلتُ لها أي عمّة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بُعِثَ بما بُعِثَ به، فقالت: أي ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قلت لها: نعم، قالت: فذاكَ إذن، قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ، ثم رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتُهم فأسلموا، وكتمتُ إسلامي من يهود؛ ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فقلت يا رسول الله! إن يهود قوم بهت، وإني أحبُّ أن تدخلني في بعض بيوتك، فتغيبني عنهم ثم تسألهم عني، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به، بهتوني وعابوني؛ فأدخلني رسولُ الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه، فكلَّموهُ وسألوهُ، ثم قال لهم: أي رجلٍ

الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأصدّقُهُ وأعرفه؛ قالوا: كذبتَ، ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا نبي الله أنهم بهت، أهل غدرٍ وكذب، قال: فأظهرتُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة ابنة الحارث فحسن إسلامها[1].

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه كان من يهود المدينة واسمه الحصين وسماه النبي ﷺ (عبد الله) لما أسلم وأنه توفي سنة (٤٣) هـ وقد كان عبد الله بن سلام حليفاً لبني الخزرج، كنيته أبو يوسف، كني بابنه. وهو من بني قينقاع، وكان اسمه في الجاهلية حُصيناً، ونزل في فضله قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثلِهِ فآمنَ واستكبرتم﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قل كفَى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عندهُ علمُ الكتاب﴾[3].

جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: بَلَغَ عبدَ الله بن سلامٍ مقدمُ رسول الله ﷺ المدينةَ فأتاهُ، فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيّ، قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهلُ الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: خبَّرَني بهنَّ آنفاً جبريل، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة، فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول

---

(١) أنظر كتاب سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٨، وأنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ١٩٨ وكتاب (رسالة الإسلام) ص ٩١.

(٢) من سورة الأحقاف آية ١٠.

(٣) من سورة الرعد آية (٤٣). والعبارة هذه في كتاب (تهذيب الأسماء) ص ١٤٧ طبع أوروبا.

طعام يأكله أهلُ الجنةِ، فزيادة كبد الحوت[1]، وأما الشبه في الولد، فإن الرجلَ إذا غشَى المرأة، فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها، قال عبد الله: أشهد أنك رسول الله... الحديث.

١٦٧ ــ حرب الجدل بين سيدنا محمد ﷺ ويهود المدينة

لقد ابتلَى الله المسلمين في مكة، بمشركي قريش، وابتلاهم في المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّنَ لهم أنه الحق؛ وكانوا قبل مجيء الرسول ﷺ، يستفتحون على المشركين من العرب، إذا شبَّتِ الحربُ بينَ الفريقين بنبيٍّ يُبعثُ، قد قرب زمانُه، فلما جاءهم ما عرفوا، استعظم رؤساؤهم أن تكونَ النبوَّةُ والرسالةُ في ولد إسماعيل عليه السلام؛ فكفروا بما أنزل اللهُ بغياً، مع أنهم يرونَ أن رسولَ الله محمداً ﷺ، لم يأتِ إلا مصدِقاً لما بين يديه من كُتُب اللهِ التي أنزلها على مَنْ سبقه من المرسلين، مبيّناً ما أفسدهُ التأويلُ منهَا، ولكنهم نبذُوهُ وراءَ ظهورِهم كأنهم لا يعلمون؛ ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام، وما دروا أنَّ القادر العليم سبحانه وتعالى، يعلم ما يحتاجه الإنسانُ أكثرَ منهم، فإنه ميَّالٌ بطبعه للترقي؛ والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وجد بادىء بدءٍ بين جماعةٍ من العرب أميينَ ليسوا على شيءٍ من الاعتقادات الإلهية، فكانت الحكمةُ داعيةً لأن يكون التشريع لهم على التدريج لأنه لو حَرَّمَ اللهُ عليهم شُرْبَ الخمر، وأكلَ الربا، وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشَّرْع الإسلامي لما أجابه أحدٌ من هؤلاء، النافرة قلوبهم، المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل والأباطيل؛ فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئاً فشيئاً، حتى رُوِّضَتْ عقولُهم وهُذِّبت نفوسهم؛ وكانت الأحكام لا ينزلها اللهُ عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها، ليكون التأثير في

---

(١) هي قطعة معلقة بالكبد، وهي أطيبة، وقيل: هي أهنأ طعام وأمرؤه للإنسان.

النفوس أشد، ولكن اليهود ــ أخزاهم [1] الله ــ أرادوا غلَّ يَدِ القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون، وقد حجَّهم القرآن الكريم بما يدلُّ على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق، فقال في سورة البقرة: ﴿قل إن كانت لكمُ الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس، فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين﴾ [2]، ثم حتم الله جل جلاله، عدم إجابتهم بقوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ [2]. فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق، لما تأخروا مما طلب منهم، مع سهولته وحرصهم على تكذيب المعتمد من الله الصادق الأمين

ولم ينقل لنا عن أحدٍ منهم أن تمنَّى ذلك ولو نطقاً باللسان، وقد تبينَ الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع وهو عبد الله بن سلام المتقدم ذكر إسلامه على لسانه، فترك هواه وأسلم إسلاماً صحيحاً لا يعتريه شكٌّ ولا ريب. حينما بلغهم إسلامه وإيمانه بالله، وتصديقه لسيدنا محمدٍ ﷺ وذلك بعد أن سأل رسول الله ﷺ أسئلة [3] وأجابه عليها، ثم سمع القرآن من رسول الله ﷺ؛ وبعد أن كان اليهود يعدُّونه من رؤسائهم وخيرة أحبارهم، لقد عدُّوهُ من سفهائهم حينما رأوا إسلامه؛ فبئسما اشتروا لأنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله من الآيات المحكمات، بغياً وحسداً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده.

ولما استحكمت في قلوبهم عداوةُ الإسلام، صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره، قال الله تعالى: ﴿يُريدونَ أن يُطفئُوا نورَ الله بأفواههم، و يأبَى اللهُ إلا أن يتمَّ نورَهُ ولو كَرِهَ الكافرون﴾ [4].

١٦٨ ــ مواصلة الجدل بين سيدنا محمدٍ ﷺ ومنافقي اليهود

ثم تتابعت حرب الجدل بين سيدنا محمد ﷺ واليهود، أكثر من جدل المشركين بمكة، وفي المدينة تعاونت اليهودية والنفاق؛ وذلك بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين، أقامتها اليهود جميعاً صفوفاً متراصَّةً، يهاجمون بها

(١) في الأصل (خزاهم) بدون ألف. المحقق.

(٢) سورة البقرة آية ٢.

(٣) لم يذكر المؤلف كلمة (أسئلة) وقد أثبتناها لحاجة السياق إليها. المحقق.

(٤) سورة التوبة آية ٩.

محمداً ﷺ ورسالته الخالدة، وأصحابه المهاجرين والأنصار؛ وقد دسُّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه، ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى، ثم ما يلبث بين وقت آخر أن يُبدي من الشكوك والريب، و يلقي على محمدٍ من الأسئلة ما يحسبه أن يزعزع ما في نفوس المسلمين من العقيدة والإيمان به (١) ﷺ وبرسالة الحق والهدى التي يدعو إليها ﷺ. وانضمَّ إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقاً أيضاً، ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين؛ وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا يُنكرون ما في التوراة، وأنهم جميعاً، وكلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل؛ والمشركون الذين يتخذون أصنامهم إلى الله زلفَى كانوا يسألون محمداً، إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله؟ وكان سيدنا محمد رسول الله ﷺ يجيبهم بقوله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴾(٢).

١٦٩ ــ محاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج

فطن المسلمون لمؤامرات خصومهم، وعرفوا غاية سعيهم، ورأوهم يوماً في المسجد يتحدثون بينهم، خافضي أصواتهم، قد لصق بعضُهم ببعض؛ فأمر سيدنا محمدٌ ﷺ بهم أن يُخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً؛ ولم يثنهم ذلك عن كيدهم وسعيهم في الوقيعة بين المسلمين.

مرَّ أحدُهم (شاسُ بنُ قيسٍ) على نفرٍ من الأوس والخزرج في مجلسٍ جَمَعَهُمْ، فغاظَهُ صلاحُ ذاتِ بينهم وتحابيهم لبعضهم، وقال في نفسه: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ــ و يعني الأوس والخزرج ــ وما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار؛ وأمر فتًى شاباً من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصةً يذكر فيها يوم بُعاث ــ الحرب التي وقعت بين الأوس والخزرج ــ وما كان من

---

(١) في الأصل (وبه) فحذفنا الواو ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) سورة الإخلاص الشريفة.

انتصار الأوس فيه على الخزرج، وتكلَّم الغلام، فذكر القومُ ذلك اليوم، وتنازعوا وتفاخروا واختصموا، وقال بعضهم لبعض: إن شئتم عُدْنَا لمثلها).

وبلغ رسولَ الله ﷺ الأمر، فخرج إليهم فيمن خرج معه من أصحابه، فذكَّرهم بما ألَّفَ الإسلامُ بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً متحابّينَ وما زال عليه الصلاة والسلام بهم حتى بكَى القومُ، وعانق بعضُهم بعضاً، واستغفروا الله جميعاً.

وهكذا بلغ الجدال بين محمدٍ ﷺ واليهود مبلغاً من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه؛ فقد نزل صدر سورة البقرة، ونزل قسم عظيم من سورة النساء، وكله يذكر هؤلاء الكتابيّينَ وإنكارهم ما في كتبهم، ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة، قال الله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ وقَفَّيْنَا من بعده بالرُّسُلِ، وآتينا عيسى بن مريم البيّناتِ، وأيدناهُ بروح القُدُسِ، أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوَى أنفسُكم استكبرتم، ففريقاً كذَّبتم، وفريقاً تقتلون، وقالوا قلوبُنَا غُلْفٌ بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون، ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مُصَدّقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين ﴾(١).

قال ابن هشام(٢) في سيرته: وكان ممن تعوَّذَ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود من بني قينقاع: سعد بن حنيف، وزيد بن اللُّصَيْت، ونعمان بن أوفَى بن عمرو، وعثمان بن أوفَى.

وزيد بن اللصيت هذا هو الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضَلَّتْ ناقةُ رسول الله ﷺ: يزعم محمدٌ أنه يأتيه خبرُ السماء، وهو لا يدري أين ناقته؛ فقال رسول الله ﷺ وجاءه الخبرُ بما قال عدوُّ الله في رحله، ودلَّ الله تبارك وتعالى

(١) من سورة البقرة الآيات من (٨٧-٨٩).
(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٠.

رسولَهُ محمداً على ناقته: «إن قائلاً قال: يزعمُ محمدٌ أنه يأتيه خبرُ السماء ولا يدري أين ناقته، وإني واللهِ ما أعلمُ إلا ما علّمني اللهُ وقد دلّني عليها فهي في هذا الشِّعْبِ، قد حبستْها شجرة بزمامها» فذهب رجالٌ من المسلمين، فوجدوها حَيث قال رسولُ الله ﷺ.

ومن منافقي اليهود: رافع بن حريملة، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ، فيما بلغنا[1] حين مات رافع: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين». ومنهم: رفاعة بن زيد بن التابوت، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ حين هبت عليه الريح وهو قافل من غزوة بني المصطلق، فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا تخافوا فإنما هبَّتْ لموت عظيم من عظماء الكفار» فما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح. ومنهم: سلسلة بن وهام[2]، وكنانة بن صورياء.

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم.

وهذا شأن اليهود قديماً، وهذه عادتهم في كل زمان، يتلوّنون فيه بغية الدسيسة، والاطلاع على أخبار المسلمين، كيهود الدونمة وغيرهم مما[3] يتجسسون على الشعوب للإيقاع بهم.

١٧٠ ــ المنافقون في المدينة

كان يساعد المنافقين من اليهود، جماعةٌ من عرب المدينة، أعمى اللهُ بصائرهم، فأخفوا كفرهم، خوفاً على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة

---

(١) (فيما بلغنا حين مات رافع) هذه العبارة من قول ابن هشام. المحقق.

(٢) صوابه: (برهام). المحقق.

(٣) الأرجح (ممن). المحقق.

(عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي) **الذي كان مرشحاً** لرياسة أهل المدينة قبل الهجرة؛ ولا شك أن ضرر **المنافقين أشد على المسلمين** من ضرر الكفار، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين، **فيعلمون أسرارهم**، و يشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم، كما حصل ذلك **مراراً**؛ **والأساسُ** الذي كان عليه رسول الله ﷺ أن يقبل ما ظهر، ويترك لله **ما بطن، ولكنه** ﷺ مع ذلك كان لا يأمنهم في عملٍ ما، فكثيراً ما كان **يتغيَّبُ عن المدينة**، **ويولّي** عليها بعضَ الأنصار ولكن لم يعهد أنه ولّى رجلاً **ممن عهد عليه النفاق**؛ لأنه ﷺ يعلم ما يكون منهم، لو وُلُّوا عملاً، فإنهم **بلا شكٍ**، **يتخذون** ذلك فرصةً لإضرار المسلمين، وهذا درس مهمٌّ عظيم لرؤساء **الإسلام**، **يعلّمهم** ﷺ أنهم لا يثقون في الأعمال المهمة، إلا بمن لم تظهر عليهم **شبهة النفاق**، أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد.

١٧١ ــ قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع فنحاص اليهودي

بلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حداً كان يصل أحياناً، برغم ما بينهم من عهد، إلى الاعتداء بالأيدي؛ وحسبُكَ يا أخي أن تقدر هذا بقصة ما وقع بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفنحاص؛ لقد تحدَّث أبو بكر إليه يدعوه إلى الإسلام، فردّ عليه فنحاص بقوله: (والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقرٍ وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه أغنياء، وما هو عنا بغنيٍّ، ولو كان غنياً عنا، ما استقرضَنَا أموالنا كما[1] يزعم صاحبكم ــ ويعني محمداً ــ ينهانا عن الربا، و يعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا). وفنحاص هذا يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له أضعافاً كثيرة﴾[2].

---

(١) في الأصل (كم) والصواب (كما). المحقق.

(٢) من سورة البقرة آية (٢٤٥).

لكن أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه لم يطق على هذا الجواب صبراً، رغم ما كان عليه، من دماثة الخُلُقِ، وطول الأناة، ولين الطبع فغضب غضباً شديداً من مقاله، وضرب وجة فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا و بينكم لضربتُ رأسكَ يا عدوَّ اللهِ.

وشكا فنحاصُ أمرَهُ إلى النبيّ ﷺ، وأنكر ما قاله لأبي بكر في الله، فنزل قوله تعالى: ﴿لقد سمع اللهُ قولَ الذينَ قالوا إن اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهمُ الأنبياءَ بغير حقٍّ. ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ (١).

لم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار، و بين الأوس والخزرج، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم، ومحاولة ردّهم إلى الشرك، دون محاولة تهديدهم؛ بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة رسول الله ﷺ؛ ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وساداتهم ذهبوا إليه، وقالوا له: إنك قد عرفتَ أمرنا ومنزلتنا، وإنا إن اتبعناكَ اتبعك اليهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا و بين بعض قومنا خصومة فنحتكمُ إليك، فتقضي لنا فنتبعك ونؤمن لكَ؛ فنزل فيهم قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ وأنِ احكُمْ بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوكَ عن بعض ما أنزلَ اللهُ إليك، فإن تولَّوْا فاعلم أنما يُريدُ اللهُ أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حُكماً لقومٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢).

١٧٢ ــ العدل والمساواة في الحقوق في الإسلام

أراد اليهود أن يحابي معهم رسولُ الله ﷺ، وما دروا أن الإسلام هو دين الحق والعدل والمساواة، وأن جميع الناس أمامه سواء ولا فضل

---

(١) من سورة آل عمران آية (١٨١).

(٢) من سورة المائدة الآيتان (٤٩ و ٥٠).

لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]. والشريعة الإسلامية يتساوى فيها جميع الخلق في الحقوق، الملوكُ والرعايا، والأمراء والسوقة والأشراف وغيرهم، والأغنياء والفقراء، وهي أقوى الشرائع حثاً[2] على العدل، ودعوة إلى الاستمساك به، وتطبيقه على العدو والصديق بغير ميل ولا حيف ولا جنف؛ بل إن العدل في الإسلام، وعند رسول الله ﷺ، وخلفاء المسلمين، كان له المنزلة الأولى في نفوسهم، والمكانة الرفيعة في أعمالهم وأقوالهم؛ فعلى دعائمه أسست دولتهم، وبأصوله وقواعده فتحوا الممالك، ونشروا مبادىء دينهم، وتعاليم ربهم، وكانت لهمُ الغلبة والعزة في العالمين. ولو أن دولتهم قامت على الظلم، وانحرفت إلى الميل لقوم دون آخرين ــ كما أراد أعداء الله من رسول الله ﷺ أن يحكم لهم بباطلهم ــ فلو أن دولة الإسلام حابت مع[3] طبقةٍ دون طبقة، لما قُدّرَ لها البقاء، ولتفرقت في الهواء، وخرَّ بنيانُها من القواعد؛ ولكن محمداً رسول الله ﷺ العادل، المفطور على الإنصاف المجرد عن الميل والهوى، نفّذ العدل أول ما نفّذه قولاً وعملاً، في نفسه وفي أقرب المقربين إليه، فلم يُرَ غاضباً أشد الغضب، كما رئي حين جاءه أقرب المقربين إليه؛ يسأله أن يتساهل في إقامة حدٍّ على سارقٍ[4]، لأنه ذو منزلة خاصة، فانتهر ﷺ سائله قائلاً: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؛ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، واللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقَتْ لقطعتُ يدها».

بهذه الصَّرامة القاطعة، وبهذا الحزم في تنفيذ حدود الله وإقامة العدل، أقام رسول الله ﷺ دينه على دعائم راسخة، وأركان قوية، وتغلغل بالعدد

---

(١) جزء من الآية رقم (١٣) من سورة الحجرات. المحقق.

(٢) في الأصل (حقا). المحقق.

(٣) الصواب حذف كلمة (مع). المحقق.

(٤) يشير المؤلف إلى قصة المرأة المخزومية التي سرقت، وذهب أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه إلى النبي ﷺ ليشفع فيها. الخ القصة. المحقق.

القليل من أنصاره والمؤمنين برسالته في شتى أنحاء الأرض، وسادوا العالم بالعدل الذي نشروه في ربوع الدنيا، والحق الذي استمسكوا به في كل الظروف والأحوال.

وجاء بعد محمدٍ ﷺ خلفاء ساروا سيره، ونهجوا على نهجه، فكان العدل ديدنهم، وميزان حياتهم، طبقوه في نفوسهم ومع أهليهم وفلذات أكبادهم.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يأتيه مصري من عامة الناس يشكو إليه أن ابن واليه فاتح مصر عمرو بن العاص ضربه، لأنه زاحمه في طريقه فقال له: كيف تزاحمني وأنت من السوقة وأنا ابن الأكرمين ثم ضربه بالسوط، فَيُحضر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنَ الوالي وشاكيه ويسلّم السوطَ بيده إلى المصري، ويقول له: اضربْ ابنَ الأكرمين، فيضربه حتى يأخذ منه القصاص بمشهد من الناس؛ ويقيم عمر الدليل الملموس على أن الإسلام جعل الناس سواسية، ويقول لهم قولته الخالدة: كيف تستعبدون الناس، وقد ولدتْهم أمهاتهم أحراراً؟ وهناك الأمثال الكثيرة على إقامة العدل وإنصاف المظلومين وإيصالهم إلى[1] حقوقهم.

كل ذلك دليل قاطع على أن قوة الأمم إنما تقاس بميزان العدالة فيها، فإذا استقام هذا الميزان، ولم يمل ذات اليمين أو ذات الشمال، وإذا أحسَّ الناس أنهم سواسية أمام القانون، وفي نظر الحاكمين، شملتهمُ الطمأنينة، وسرت فيهم روح الرضا والسلام، وعرفوا أنهم بمأمنٍ من التعرض لنزوات النفوس الجامحة، والشهوات الكامنة، والأغراض المشوبة بالميل والهوى.

وما من شكٍّ في أن العدلَ في المعاملة، وفي إقامة الحقوق، وفي علاقات الناس بعضهم ببعضٍ، يقوّي أواصر التعاطف والمحبة، ويستلُّ من القلوب الأحقادَ والأضغانَ، وينشيء مجتمعاً نظيفاً صالحاً، تنمُو فيه الفضائلُ كلُّها، ويسري فيه الأمنُ والرخاء، فإنكَ إذا عدلتَ بين خصمك[2]، أرغمتهُ على

---

(١) لو قال (وإيصال حقوقهم إليهم) لكان أفضل. المحقق.

(٢) لو قال (بين الخصوم) ثم جمع الضمائر العائدة على الخصوم لكان أفضل. لأن كلمة (بين) لا تستعمل إلا مع متعدد. المحقق.

احترامكُ وحبكَ، وقلبتَهُ بين عشيةٍ وضحاها **إلى صديقٍ لكَ**، يشهد بذكرك، و يتحدَّثُ عن روح الإنصاف فيكَ؛ **وإذا عدلتَ مع أهلكَ وأصدقائك**، أرغمتهم على احترامك وتقديرك، وأرضيت ربك **ونفسك، وكنتَ مثالاً** يحتذيه الأصدقاءُ والخصومُ على السواء؛ وإذا عدلتَ بين **المواطنين، ولم تفرق** بين طبقةٍ وطبقةٍ، ولا بين طائفةٍ وطائفةٍ، ولا بين جنس وآخر، **كان هذا العَدْلُ**، مجلبةَ الحبِ والثقة، وداعية الرضا والاطمئنان، قال الله تعالى: ﴿ **يا أيها** الذين آمنوا كونوا قوَّامينَ لله شهداءَ بالقسْطِ، ولا يجرمنّكم **شنآنُ قومٍ على ألاَّ** تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[1].

هذا ما يأمر الله به في شريعته الإسلامية، لا كما يريده المنافقون من اليهود والعرب، من رسول الله ﷺ من أن يحابي معهم في خداعهم ومكرهم.

١٧٣ ــ أهداف دين الإسلام ومقاصده النيّرة

وصل رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، وأخذ يدعو إلى الله تبارك وتعالى، بما آتاهُ الله من الحكمة وفصل الخطاب، وقد علَّمه ما لم يكن يعلم، وأرسله بالحقِّ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، كما وضحتُه لكَ يا أخي فيما سبق.

فشرح اللهُ به الصدور، وأنار به البصائر، وزكَّى[2] به الأنفس، وطهرها من أدرانها، وأكرمه الله عز وجل، فجعل دينه الإسلام، صفوة الأديان، بل جمع الأديان كلها، فكانت الإسلام، واختار الله عز وجل هذا الدين للبشرية جمعاء، فقال جلَّ شأنه: ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[3] وقال: ﴿ ومَنْ يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبَل منه ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة آية ٥.

(٢) في الأصل: (وزكا). المحقق.

(٣) جزء من الآية رقم (١٩) من سورة آل عمران. المحقق.

(٤) جزء من الآية رقم (٨٥) من سورة آل عمران. المحقق.

ثم ضمن الله لهذه الرسالة المحمدية، الخلودَ والبقاءَ، فحفظ كتابها القرآنَ العظيم من التحريف والتبديل، وأعلى شأنَ رسولها في الخافقين ورفع له ذكرَهُ في الدارين، قال الله تعالى: ﴿إنا نحنُ نزلنا الذكرَ وإنا له لحافظون﴾[1] وقال في رسوله الكريم عليه الصلاة وأتم التسليم: ﴿ورفعنا لكَ ذكركَ﴾[2].

ولما كان شأن هذه الرسالة الخلود والبقاء، فقد حملت معها عناصر الخلود، وأسباب البقاء؛ ولقد ابتعث الله عز وجل أهلَها لإنقاذِ الناس من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْرِ الأديانِ، إلى عدالة الإسلام، وأرادت للناس السعادة والهناء فكانت أهدافها أسمَى الأهداف، ومقاصدها أجل المقاصد، وغاياتها أرفع الغايات، وكانت رحمة للعالمين.

فمن أهدافها: السمو الروحي، إذ يسمو الإسلام بروح المسلم، و يرفعه من الحضيض الذي يهوي فيه الملحدون الضالون؛ فهي رسالة روحية سماو ية، تهذب النفس، وتسمو بالروح، لا مادية أرضية، وإن السموّ الروحي لا يكون إلا عن طريق تقوى الله العظيم ومراقبته في السر والعلن «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]. إن شريعة الله الخالدة، قد حررت العقول مما كان يسيطر عليها من الأوهام والخرافات، والبدع والضلالات؛ فبعد أن كان الناس أشتاتاً، هذا يسجد للاَتِ والعزى، والآخر يسجد للحجر، وذاك يعبدُ البشر، وآخر يقدس الشجر والدواب والبقر، والشمس والقمر؛ سَمَتْ بهم رسالة الإسلام، ووجهتهم إلى الخالق الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ وربطت أسبابهم برب السماء والأرض، وحررتهم من مخلفات الأوهام والعقائد الزائفة. ومن أهداف الإسلام: الاعتصام بحبل الله المتين، وتأليف القلوب وجعلهم أمة واحدة، قال الله تعالى: ﴿ واعتصموا

---

(١) الآية رقم (٩) من سورة الحجر. المحقق.

(٢) الآية رقم (٤) من سورة الشرح. المحقق.

(٣) يشير المؤلف إلى حديث جبريل جاء في صورة رجل وسأل النبي ﷺ ليعلم أصحابه أمور دينهم. فكان مما سأله (أخبرني عن الإحسان) فأجابه النبي ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. الحديث. المحقق.

بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[1].

و يطلب الإسلام منا الوحدة الشاملة في كل شيء في الدين واللغة والاتجاه في المقاصد والعادات والأخلاق والثقافة والقوة؛ قال الله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾[2]. وأي شيء أجل وأسمى من الاتحاد، فهو قرينُ العزّة وصنو المجد والكرامة، ومن أهداف الإسلام: المساواة التامة بين عموم الأفراد، لا فرق بين إنسان وإنسان، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾[3].

فرسالة الإسلام رسالة المساواة الصادقة بين الناس أجمعين، فقد سمتْ عن حدود القوميات الضيقة، وارتفعت عن الجنسيات والعصبيات القبلية؛ وجعلت التفاضل بين الناس في تقوى الله وعبادته وطاعته؛ فأكرمُ الناسِ عند الله، وأقربهم إليه أتقاهم. ومن الأهداف: الأخوة الصادقة القائمة على التوادد والتراحم والإيثار، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأن يحب أحدُنا لأخيه ما يحبه لنفسه، حتى نصبح كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؛ والله تعالى قد آخَى بيننا، فقال ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله﴾[4] والرسول ﷺ قد قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يحقره». ومنها: التعاون على البر والخير والمعروف قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[5].

---

(١) الآية رقم (١٠٣) من سورة آل عمران. المحقق.

(٢) الآية رقم (٩٢) من سورة الأنبياء. المحقق.

(٣) الآية رقم (١٣) من سورة الحجرات. المحقق.

(٤) جزء من الآية رقم (١٠) من سورة الحجرات. المحقق.

(٥) جزء من الآية رقم (٢) من سورة المائدة. المحقق.

ومنها: الإحسان في كل شيء، في عباداتنا، وفي معاملاتنا، وفي أخلاقنا، وفي عاداتنا، وفي أكلنا وشربنا وسهرنا ونومنا... ومن أهداف الإسلام: التزام الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والوفاء بالعهد، والمحافظة على الوعد، والصبر على الشدائد والبر بالوالدين، وتوقير الكبير، والعطف على الصغير، مع التواضع والحلم والكرم، والعناية باليتامى والأرامل والمساكين.

والامتناع عن الإساءة، وتجنب الغيبة والنميمة، والحسد والخيانة والكذب والنفاق، والتجسس والإيقاع بين الناس، والغش في المعاملة، والسكر، وتعاطي المنكرات: كالزنا والقمار والرياء[1] وشهادة الزور والرشاوي؛ لأن الإسلام يأمر ويدعو إلى التحلي بالفضائل، وينهي عن الرذائل، كما يأمر بالعمل لتحصيل منافع الدنيا، وكسب الرزق بشتى أنواع العمل المشروع كالتجارة والزراعة والصناعة والأخذ بأسباب القوة، وإعداد العدة، وما يكون موجباً للعزة وإقرار السلام؛ ويحضُّ الناس على النظافة والزينة وجميع الطيبات ويدعوهم إلى العلم والبحث والتفكير في أسرار الكائنات، وبدائع المخلوقات، ويعتبر كل ما يقوم به الفرد في حياته الخاصة أو العامة طاعة يؤجر عليها إذا قصد بها وجه الله تعالى والنفع لعباده، وكانت في حدود الشرع الشريف.

هذه بعض أهداف الإسلام التي حملها إلينا رسول الله ﷺ وأخذ يبثها وينشرها في المدينة لإصلاح الفرد المسلم؛ بل للإنسانية عامة، وهي في كتاب الله تعالى (القرآن) وفي هديه ﷺ فعودوا يا مسلمين[2] إليهما، فقد قال رسولنا الكريم: «لقد تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي». متفق عليه.

أسأل الله العلي القدير أن يردنا لديننا رداً جميلاً، ويوفقنا في أعمالنا وينصرنا على القوم الكافرين، اللهم آمين.

---

(١) لعل المؤلف يقصد (الربا) لا (الرياء). المحقق.

(٢) الأصح (يا مسلمون) لأنه نكرة مقصودة فتبنى على الواو في هذا المثال. المحقق.

١٧٤ ــ مؤتمر الأديان الثلاثة في مدينة يثرب ونتيجته

انعقد المؤتمر هذا في مدينة يثرب لليهود والنصارى والمسلمين؛ وأي مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر، الذي شهدت [١] يثرب، تلتقي فيه الأديان الثلاثة التي تتجاذب حتى اليوم مصاير العالم، وتلتقي فيه لأسمى فكرة وأجل غاية، لم يكن مؤتمراً اقتصادياً، ولا كان مرماه، أي غرض من هذه الأغراض المادية، التي ينطحُ عالَمُنَا اليوم عبثاً صخرتها؛ إنما مرماه غاية روحية تقف من ورائها في أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة، ومآرب أرباب المال، وذوي الملك والسلطان، ويقف فيه سيدنا محمدٌ ﷺ لغاية روحية تهذيبية إنسانية بحتة، يُملي عليه الله تعالى في سبيلها، الصيغة التي يُلقي بها إلى اليهود والنصارى وإلى الناس كافة، يقول لهم فيها: ﴿ قل يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم، ألاَّ نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً، ولا يتخذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً من دُونِ اللهِ، فإن تولوا فقولوا اشهدُوا بأنّا مسلمون ﴾ [٢].

ماذا يستطيع اليهود، أو يستطيع النصارى، أو يستطيع غيرُهم، أن يقولوا في هذه الدعوة: ألا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به شيئاً، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

فأما الروح المخلصة الصادقة، فأما النفس الانسانية التي كُرِّمَتْ بالعقل والعاطفة، فلا نستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره، وتذعن له وتنقاد إليه؛ ولهذا قال أبو حارثة وهو أكثر نصارَى نجران علماً ومعرفةً، لرفيقٍ له بما يقول محمدٌ، فلما سأله رفيقه: فما يمنعكُ منه، وأنت تعلم هذا؟ كان جوابه: يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم، شَرَّفُونا ومَوَّلُونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه فلو فعلتُ، نزعوا منّا كلَّ ما تَرَى.

دعا محمدٌ ﷺ اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة، أو يلاعن النصارى، فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد الموادعه ــ وقد مر سابقاً ــ

---

(١) الأفضل (شهدته). المحقق.

(٢) آل عمران آية ٦٤.

وعندئذٍ تشاور النصارى، ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا ألا يلاعنوه، وأن يتركوه على دينه، و يرجعوا إلى دينهم؛ لكنهم رأوا حرصَ محمدٍ على العدل، فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم في أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم؛ و بعث سيدنا محمدٌ ﷺ معهم، أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه.

ويلاحظ القارىء الكريم معي، أن سيدنا محمداً ﷺ مكَّنَ للدين الإسلامي بمناظرته هؤلاء ولدعوته أن تنتشر بتعاليمه ﷺ.

١٧٥ ــ تفكير الرسول ﷺ وأصحابه في أمر مكة وقريش

جعل رسول الله ﷺ يفكّر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفتهم التفكير لحظةً فيه، منذ هجرتهم من مكة، فيما يجب أن يكون موقفهُم من قريش، وأمرهم معهم؛ ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير دوافع عدَّةٌ؛ ففي مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام ومكان حجّهم وحج العرب جميعاً؛ أفتراهم ينقطعون عن هذا الواجب الديني المقدّس عندهم اليوم أكثر ما كان مقدّساً عندهم في الجاهلية؟ وفيها ما يزال لهم أهلٌ تهوي إليهم نفوسهم، وتشفق على بقائهم على الشرك أفئدتُهم وقلوبُهم؛ وفيها بقيتْ أموالهُم ومتاعُهم وتجارتُهم، مما منعتْهم قريشٌ منه حين هجرتهم؛ ثم إنهم إذا حضروا المدينة كانت موبوءةً بالحمَّى، فأصابهم منها عَنَتٌ شديدٌ، و بلغتْ منهم حتى جهدُوا مرضاً، وكانو يصلُّون قعوداً؛ فزاد ذلك في تحنانهم وشوقهم إلى مكة، وهم قد أخرجوا من مكة كارهين، فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم، وليس في طبع هؤلاء القرشيّين أن يصبروا على الضيم، أو يُذعنُوا للْغَلَب دون تفكيرٍ في الثأر لأنفسهم منه؛ وإلى جانب هذه الدوافع جميعاً، كان يحركهُم الدافع الطبيعي، دافع الحنين إلى الوطن، إلى هذا المكان الذي منه نبتْنا، وفيه نشأنا، ولأرضه وسهله وجبله ومائه كان أول حديثنا، وأول صداقتنا، وأول وُدِّنا[1]،

(١) في الأصل: (ودناه) بالمد. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

من الأرض تَمَثَّلنا صغاراً، فإليها مثوانا كبَاراً، بها تتعلق قلوبنا وعواطفُنا، وعنها نذود بقوتنا، ومالنا، ونضحي بمجهودنا وحياتنا، وفيها نَوَدُّ أن ندفنَ بعد موتنا، لنعود إلى ترابها الذي خرجنا منه.

هذا الدافع الطبيعي أذكى في نفوس المهاجرين سائر الدوافع وجعلهم لا ينفكُّونَ يفكّرون في قريشٍ، وفيما يجب أن يكون موقفهم منها، لن يكون هذا الموقف موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذَى ثلاثة عشر عاماً سوياً؛ والدين الذي احتملوا فيه هذا الأذَى، والذي هاجروا في سبيلِهِ، لا يقرُّ الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة، وإذا كان يمقتُ الاعتداء وينكره، ويقرّر الإخاءَ ويدعُو إليه؛ فإنه يفرضُ الدفاعَ عن النفس، وعن الكرامة، وعن حرية العقيدة، وعن الوطن؛ ولهذا الدفاع أتم سيدنا محمدٌ ﷺ مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى ــ وقد مرت سابقاً ــ فكيف يؤدي المهاجرون هذا الفرض عليهم لله تعالى، ولبيتِهِ الحرام، ولوطنهم الغالي مكة المحبّب إلى قلوبهم؟ هذا ما ينتظره المسلمون في المدينة من فتح مكة زإعلاء كلمة الله في كل مكان.

١٧٦ ــ سياسة المسلمين بالمدينة

استقرَّ للمسلمينَ المُقام بالمدينة بعد أشهرٍ من الهجرة؛ فبدأ الشوق من المهاجرين يزداد يوماً بعد يوم لمكة، كما تقدم سابقاً؛ وبدءوا يفكرون فيمن تركوا وما تركوا بها، وما أنزلت قريش بهم من الأذَى، فماذا عساهم يصنعون؟ تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم فكَّروا، وفكّر الرسولُ العظيم على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأتهم بالعداوة والحرب؛ بل إن بعضهم ليذهب إلى أنهم فكروا في هذه الحرب منذُ مقدمهم إلى المدينة، وإنما منعهم من إشعال نارها، أنهم كانوا في شغل، بإعداد مساكنهم، وتنظيم وسائل معاشهم، ويستدل على ذلك، بأن رسول الله ﷺ إنما عقد بيعة العقبة الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس؛ وطبيعيّ أن تكون قريش أول من

يتجه إليهم نظره ونظر أصحابه، مما فطنت له قريش بُكْرَة العقبة، فخرجت في فزع تسأل الأوس والخزرج عنه.

١٧٧ ــ الإذن بالقتال في الآيات القرآنية

أذِنَ لرسول الله ﷺ في القتال، لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من شهر صفر في السنة الثانية من الهجرة، وقد مكث النبيُّ ﷺ يدعو كفار قريشٍ ثلاث عشرة سنة إلى نبذ الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد بغير قتالٍ، صابراً على شدة أذاهم، فهم لم يزدادوا إلا تعنتاً وتعسفاً، واضطهدوا رسول الله ﷺ وأصحابه اضطهاداً شديداً، وألجأوهم إلى هجر بلادهم، وترك أموالهم؛ وكان الصحابة رضي الله عنهم، يأتون إليه ما بين مضروبٍ ومشجوج، فيقول لهم: «اصبروا فإني لم أومر بقتالهم»، وقال جماعة منهم: عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون ــ وهو أخو عثمان بن مظعون ــ وسعد بن أبي وقاص: يا رسول الله كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنَّا صرنا أذلةً، فائذن لنا في قتال هؤلاء، فقال: كفُّوا أيديكم عنهم، فإني لم أومر بقتالهم.

لم يبق بعد ذلك غير استعمال السلاح للدفاع عن كيانهم، والتغلب على عبدة الأصنام؛ فالمسألة صارت مسألة حياة أو موت، فإما انتصار يحقق نشر الدين وإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله، أو انكسار لا تقوم للمسلمين بعده قائمة؛ ولو تمكنت قريش من مهاجمة المدينة والانتصار على المسلمين لكان في ذلك القضاء على الإسلام، وكان المسيحيون في الامبراطورية الرومانية في ذلك الوقت كما يحدثنا التاريخ، يقاتلون الفرس، و ينتصرون عليهم.

لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وكثر أتباعه المؤمنون[1] وقام الأنصارُ بنصره ﷺ، وأصرَّ المشركون على الكفر والتكذيب، أذن لهم بالقتال؛ فبعث ﷺ البعوث وغزا بنفسه عليه الصلاة والسلام.

(١) في الأصل (المؤمنين) والصواب بالرفع لأنه نعت لمرفوع. المحقق.

وأول ما أنزل الله تعالى في أمر القتال، قوله تعالى: ﴿أذنَ للذين يُقاتَلونَ بأنهم ظُلِمُوا، وإن الله على نصرهم لقديرٌ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حَقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ، لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً، ولينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ إن اللهَ لقويٌّ عزيز، الذين إنْ مكنّاهم في الأرض، أقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ، وأمروا بالمعروف، ونهَوْا عن المنكر، ولله عاقبةُ الأمور﴾.

هذا أول ما أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ بالإذن بالقتال ثم أنزل الله تعالى قوله: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله يحبُّ المعتدين﴾.

ثم أنزل قوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ، ويكون الدينُ كلُّه لله﴾ وقوله جل شأنه: ﴿وقاتلُوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافة﴾.

فقام ﷺ يغزو ويجاهد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الدين، وهداية الناس إلى الطريق المستقيم لا طمعاً في ملك، ولا حباً في رئاسةٍ أو مالٍ ولا عَرَضٍ من أعراض الدنيا، وصار الجهادُ عاماً، كما فَصَّلَهُ الله في كتابه وفي هَدْيِ رسولِهِ عليه الصلاة والسلام للأمة الإسلامية.

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى».

١٧٨ ــ سر مشروعية القتال والمبادىء التي سار عليها الرسول ﷺ

قد علمنا مما تقدم، أن رسول الله ﷺ لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين؛ لأنه لا إكراه في الدين، والدينُ صان حرية الاعتقاد، قال الله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1]. وإنما كان أمره ﷺ

(١) جزء من الآية رقم (٢٩) من سورة الكهف. المحقق.

قاصراً على التبشير والإنذار، وكان الله تعالى ينزل عليه من الآيات، ما يقويه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش وعنتهم، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿فاصبر كما صبر أولُو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾[1]. وكان كثيراً ما يقصُّ الله تبارك وتعالى عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله، ليثبتَ به فؤاده؛ ولما كان تآمر المشركين عليه، ومحاولتهم قتله، وازداد طغيانهم عليه، ألجأوه أخيراً إلى الخروج من داره، ومن مسقط رأسه مكة؛ فكانوا هم البادئين بالعداء والمحاربة له وللمسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق؛ فبعد الهجرة أذِنَ الله لهؤلاء المهاجرين بقتال مشركي العرب وقريش بقوله عز وجل: ﴿أذِنَ للذين يُقاتلونَ بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

لذا كان صلى الله عليه وسلم ممتثلاً لأمر ربه، ولم يتعرض إلا لقريشٍ، فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب، واتحدوا عليهم مع الأعداء، أمر الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة بقوله في كتابه العزيز: ﴿وقاتلوا المشركين كافة، كما يقاتلونكم كافة﴾.

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانةً للعهد، حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر اللهُ بقتالهم بقوله عز وجل: ﴿وإما تخافَنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم على سواءٍ، إن الله لا يحب الخائنين﴾.

فصار قتالهم واجباً، حتى يدينوا دين الحق[2]، أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون؛ ليأمنَ المسلمون جانبهم.

وصار قتالُ رسولِ الله ﷺ على المبادىء الآتية:

١ ــ اعتبار مشركي قريشٍ محاربين، لأنهم بدءوا بالعدوان، فصار للمسلمين قتالهم، ومصادرة تجارتهم، حتى يأذن الله[3] فتحَ مكة، أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين.

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف وهي الأخيرة منها. المحقق.

(٢) لم يذكر المؤلف لفظ (دين الحق) وقد أثبتناه لاحتياج المعنى إليه. المحقق.

(٣) لعل الأفضل (بفتح مكة). المحقق.

٢ ــ متى رُئي من اليهود خيانة وتحيّز للمشركين قُوتلوا حتى يؤمنَ جانبهم بالنفي أو القتل.

٣ ــ متى تعدَّتْ قبيلةٌ من العرب على المسلمين، أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالإسلام.

٤ ــ كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارَى قُوتل حتى يذعنَ بالإسلام، أو يعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر.

٥ ــ كل من أسلم فقد عصم دَمَهُ وماله وعرضه إلا بحقه، والإسلامُ يقطع [١] ما قبله، كما قال الرسول ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله» وقد أنزل [٢] الله تعالى كثيراً من الآيات تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء، وتبعيداً [٣] عن الفرار من الزحف، بياناً وتعليماً لرسوله ﷺ وللمسلمين.

١٧٩ ــ تنفيذ أمر الله بالقتال وبدؤه [٤] عملياً

كانت عادة قريشٍ أن تذهب بتجارتها إلى الشام، لتبيع وتبتاع ويسمى السائر بهذه التجارة عِيراً [٥]، وكان يسير معها لحراستها كثيرٌ من أشراف القوم وسراتهم، ولا بدَّ لوصولهم إلى الشام من المرور على يثرب دار الهجرة؛ فرأى رسولُ الله ﷺ أن يصادرَ تجارتهم ذاهبةً وآيبة، ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة، حتى تضعف قوتهم المالية فيكون لك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال، الذي لا بدَّ أن يكونَ، لأن قريشاً لم تكن لتسكتَ عمن سفَّه

---

(١) كلمة (يجبّ) أبلغ من (يقطع). المحقق.

(٢) أنظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ص ٨٥.

(٣) لو قال (وتحذيراً من الفرار) لكان أفضل. المحقق.

(٤) في الأصل: (وبدئه). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٥) لا يسمى السائر بالتجارة (عيراً) وإنما (العير) هي كل ما امتير عليه من الإبل والحمير والبغال. وفي حديث عثمان أنه كان يشتري (العير) حكرة، ثم يقول: من يربحني عقلها؟. انظر لسان العرب. المحقق.

أحلامهم، وعاب عبادتهم، خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين ــ دين اللات والعزى وهبل ــ.

١٨٠ ــ أوَّلُ سرية في الإسلام على يد حمزة رضي الله عنه

السرية: هي قطعة من الجيش، لم يكن فيها رسول الله ﷺ بنفسه.

والغزوة: هي الجيش وعلى قيادته رسول الله ﷺ بنفسه قائداً[١].

ومغازيه ﷺ بلغت سبعاً وعشرين غزوة.

ففي شهر رمضان أرسل ﷺ عمَّهُ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيضَ، حمله كنّاز بن الحصين أبو مرثد حليف حمزة، ليعترض عيراً لقريشٍ، آتية من الشام، فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين؛ فسار حمزة برجاله، حتى وصل ساحلَ البحر من ناحية العيص[٢]، فصادف العير هناك؛ ولما تصافوا للقتال، حجز بينهم (مجدي بن عمرو الجهني) وكان مصالحاً للفريقين، فأطاعوه، وانصرفوا بغير قتالٍ؛ ولما بلغ رسول الله ﷺ ما فعل مجدي، شكره على صنيعه، لما كان من قلة عدد المسلمين، وكثرة عدوهم.

وهذه أول سرية، وكانت بعد مرور ثمانية أشهر من مُقام رسول الله ﷺ والمهاجرين بالمدينة.

١٨١ ــ السرية الثانية بقيادة عُبيدة بن الحارث رضي الله عنه

وفي شهر شوال، أرسل الرسولُ ﷺ عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين راكباً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله (مسطح بن

---

(١) في الجملة تكرار لا حاجة إليه. والأولى أن يقال: (والغزوة هي الجيش الذي يقوده ﷺ بنفسه). المحقق.

(٢) من بلاد جهينة، والعيص ناحية من نواحي المدينة التابع لها.

أثاثة بن عبد المطلب) ليعترضَ عيراً لقريشٍ في بطن رابغ، فيها مائتا رجلٍ، فوافوا العير، فلقي أبا سفيان بن حرب[1]، ببطن رابغ، فكان بينهم الرمي بالنبل ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمينٌ، فانهزموا، ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين إلى المسلمين (المقداد بن الأسود، وعتبة بن غزوان) وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين.

١٨٢ ــ السرية الثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

السرية الثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكانت في أواخر السنة الأولى من الهجرة في الشهر التاسع ذي القعدة[2]، إلى الخرّار، وهو وادٍ في الجحفة؛ وعقد له النبي ﷺ لواءً أبيض، حمله المقداد بن عمرو البهراني، وبعثه في عشرين رجلاً من المهاجرين، يعترض عيراً لقريشٍ تمر به، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرّار؛ قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: فخرجنا على أقدامنا، فكنّا نكمنُ في النهار، ونسير في الليل، حتى صبحناها صبح خُمس، فنجد العيرَ قد مرتْ بالأمس، فانصرفنا راجعين إلى المدينة.

١٨٣ ــ غزوة ودّان أو غزوة الأبواء بقيادة رسول الله ﷺ

ذكرت سابقاً أن الغزوة هي التي يقودها رسول الله ﷺ وهذه أول غزوة يقوم بها رسول الله ﷺ بنفسه، وذلك في شهر صفر على رأس اثني عشر شهراً من هجرته عليه الصلاة والسلام. قال زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: كنا نعلم مغازي رسول الله ﷺ كما نعلم السُّوَرَ من القرآن.

وقال إسماعيل بن محمدٍ بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم: كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا، و يقول: يا بني إنها شرف آبائكم فلا تُضَيّعُوا ذكرها.

---

(١) أبو سفيان ولد بمكة قبل عام الفيل بعشر سنين وهو من أشرافها وتجارها، وقاد المشركين يوم أحد ثم أسلم.

(٢) العبارة توهم أن (ذا القعدة) هو الشهر التاسع. وليس كذلك. ولعل الصواب (وكانت في ذي القعدة، في الشهر التاسع من السنة الأولى من الهجرة). المحقق.

فأول غزوة خرج فيها رسولُ الله ﷺ (ودّان) وهي قرية جامعة من أعمال الفرع؛ وبعضُهم يسميها غزوة الأبواء، فمنهم من أضافها إلى ودّان، ومنهم من أضافها إلى الأبواء. لأنهما متقاربان في وادي الفرع بينهما ستة أميالٍ.

خرج ﷺ يريد عيراً لقريشٍ وبني ضمرة، وقيل: لم يكن ﷺ مريداً لهم، بل مريداً للعير، التي لقريشٍ، فلما لقي بني ضمرة، عقد بينه وبينهم صلحاً؛ وكان خروجه في ستينَ راكباً، ليس فيهم أنصاري، فلم يدرك العير التي أراد؛ وكانت المصالحة بينه وبين بني ضمرة على أنهم لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً، ولا يعينون عليه عدواً، وأن لهم النصر على من رامهم بسوء، وأنه إذا دعاهم لنصرٍ أجابوه؛ وعقد ذلك معهم سيدهم (محشُ بن عمرو الضمري) وكتب بينهم كتاباً فيه:

١٨٤ ــ كتاب العهد بين رسول الله ﷺ وبني ضمرة

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب محمدٍ رسول الله ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم بسوءٍ بشرط أن يحاربوا في دين الله، ما بلَّ بحرٌ صوفةً، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصرٍ أجابوه؛ عليهم بذلك ذمة الله ورسوله»[1].

وكان لواؤه أبيض، وكان مع عمه حمزة رضي الله عنه، وقد استخلف على المدينة سعدَ بن عبادة رضي الله عنه، وكانت غيبتُهُ ﷺ خمس عشرة ليلةً.

١٨٥ ــ الغزوة الثانية غزوة بُواط

بعد رجوع رسول الله ﷺ من غزوة ودّان؛ جهَّز نفسه للذهاب إلى بواط[2]، في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٠٨.

(٢) جبل من جبال جهينة بناحية رضوى، وهو على أبراد من المدينة جهة ينبع الساحلية.

الهجرة سنة (٦٢٣)م وخرج إليها، في مائتين من أصحابه المهاجرين، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، ليعترض عيراً لقريش، فيها أمية بن خلف الجمحي، ومائة رجلٍ من قريش و(٢٥٠٠) بعير، ففاتَتْهُ العيرُ، ورجع ولم يلقَ حرباً، لأن المشركين أخذوا بالحذر لأنفسهم والاجتهاد في تعمية أخبارهم وتنقلهم عن أهل المدينة.

وكانت هذه الغزوة في السنة الثانية للهجرة.

١٨٦ ــ الغزوة الثالثة غزوة العشيرة

عقب رجوع رسول الله ﷺ من غزوة بواط إلى المدينة، في شهر جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة في اكتوبر سنة (٦٢٣)م خرج رسول الله ﷺ ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه، وحمل لواءه معه عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ ولم يزل سائراً حتى بلغ العشيرة، وهي لبني مدلج بناحية (ينبع) وبين ينبع والمدينة تسعة بُرُدٍ [١]، ليعترض عيراً لقريش حين خرجت من مكة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بقفولها من مكة، فيها أموال طائلة لقريش؛ فوجد ﷺ العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام، وعلى رأسها أبو سفيان؛ وقد حالف الرسولُ ﷺ في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم، ثم رجع ﷺ إلى المدينة، ينتظر هذه العير التي ذهبت للشام حينما ترجع، وتعود إلى مكة. وكان مع أبي سفيان بضعة وعشرون رجلاً، لحماية العير، خوفاً من محمدٍ ﷺ والمسلمين معه.

١٨٧ ــ غزوة بدرٍ الأولى

بعد رجوع رسول الله ﷺ بقليل إلى المدينة، كاء (كُرْزُ بنُ جابر الفهري) وأغار على سرح المدينة، وهرب. فخرج الرسول ﷺ في طلبه، واستخلف على

---

(١) ضبط المؤلف كلمة (برد) بضم الباء وسكون الراء. والصواب ضمها معاً جمع (بريد) والبريد ستة عشر فرسخاً. والفرسخ ثلاثة أميال. انظر لسان العرب. المحقق.

المدينة زيد بن حارثة الأنصاري، وحمل لواءه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسار حتى بلغ سفوان [1]، وفاته كرز، فلم يلق حرباً.

ولذا قيل لها: غزوة بدر الأولى، وكانت مدة إقامته ﷺ بين غزوة العشيرة وهذه عشرة أيام.

١٨٨ ــ السرية الرابعة سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة

في منتصف العام الهجري للسنة الثانية في شهر رجب (نوفمبر سنة ٦٢٣)م، أمر رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أن يتجهز للغزو؛ فامتثل أمر رسول الله ﷺ وتجهّز للمسير؛ ولما أراد الخروج بمى صبابة وشوقاً إلى رسول الله ﷺ؛ فبعث مكانه عبد الله بن جحش الأسدي في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان بعيراً، إلى نخلة، وهو بستان ابن عامر الذي كان قرب مكة، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه، حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمر به، ولا يكره أحداً من أصحابه، ففعل ذلك، ثم قرأ الكتاب، وفيه يأمره بنزول [2] نخلة بين مكة والطائف، فيرصد قريشاً، و يعلم أخبارهم، فأعلم أصحابه، فساروا معه، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، أضلَّ سعد بن أبي وقاص بعيراً، وكان زميله عتبة بن غزوان، فأقاما عليه يومين يبغيانه، ومضى عبد الله و بقية أصحابه، حتى نزل بنخلة، فمرت به عيرٌ لقريش، تحمل خمراً وأدماً وزبيباً، جاءوا به من الطائف فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان، فلما رآهمُ القومُ هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، وأشرف لهم عكاشة ابن محصن الأسدي، وقد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عُمار لا بأس عليكم، وذلك آخر يوم من شهر رجب؛ ثم إنهم تشاوروا فأجمعوا على القتال، فرمى واقدُ بنُ عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وشدَّ المسلمون عليهم، فاستأثر

---

(١) وادي بناحية بدر.

(٢) في الأصل (بمنزول). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان، وهرب نوفل، وغنم المسلمون ما معهم.

و يقال: إن عبد الله بز جحش رضي الله عنه لما رجع من نخلة خَمَّسَ ما غنم وقسَّمَ بين أصحابه سائر الغنائم، فكان أول خُمس خُمِّسَ في الإسلام وذلك قبل أن يفرض، وكان أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسرهم المسلمون، وكان الذي أسر الحكم هو المقداد بن عمرو فدعاهُ رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلم، وقتل ببئر معونة شهيداً رضي الله عنه.

أما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وزميله عتبة بن غزوان فلم يشهدا هذه الغزوة، وقدما المدينة بعد عودة السرية بأيام. أقبل عبد الله بن جحش الأسدي وأصحابه بالعير والأسرى إلى المدينة فلما قدموا، قال لهم رسولُ الله ﷺ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقَّفَ العير والأسيرين، فسقط في أيديهم وعنَّفهمُ المسلمون، وقالت قريش: قد استحلَّ محمدٌ وأصحابه الشهرَ الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿ يسألونكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصَدٌّ عن سبيل الله ﴾[1].

فلما نزل القرآنُ الكريمُ، وفرَّج اللهُ عن المسلمين، قَبَضَ رسولُ الله ﷺ العيرَ وفدَى الأسيرين.

وفي هذه السرية، سمي عبد الله بن جحش الأسدي (أمير المؤمنين)[2].

١٨٩ ــ مفاجآت من الوفيات في العام الأول من الهجرة

في هذه السنة فوجيء المسلمون بوفاة شخصيات إسلامية من المهاجرين، فقد توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه أخو رسول الله ﷺ من الرضاع،

---

(١) من سورة البقرة آية (٢١٧).

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢١٢.

أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر الرسولُ ﷺ بأن يرشَّ قبره بالماء، ووضع على قبره حجراً، وقال أتعلّم به قبرَ أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي؛ وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة، من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصور تُرى في عين الناظر كالأصنام، ليأتي أقارب الميت، ويجلسوا حول هذه التحاجير الضخمة التي لا تجوز في الإسلام و يصنعوا عندها احتفالات كثيراً ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم؛ ومن العبث تضييع المال في غير محله و يا حبذا لو ينفق هذا المال في المشاريع الخيرية على روح الميت، ومن العبث أيضاً أن نفعل ونبتدع ما لم يفعله رسول الله ﷺ ولم يفعله أحدٌ من الصحابة أو التابعين.

ومات من الأنصار (أسعد بن زرارة) أحد النقباء الاثني عشر.

كان رضي الله عنه نقيب بني النجار، ولما مات اختار رسول الله ﷺ نفسه للنقابة عليهم، لأن ابن أخت القوم منهم.

ومات أيضاً: البراء بن معرور، أحد النقباء، وهو الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية.

ومات من مشركي مكة في هذه السنة (الوليدُ بنُ المغيرة) ولما احتضر جزع، فقال له أبو جهل: ما جزعك[1] يا عم؟ فقال: والله ما بي من جزع من الموت، ولكن أخاف أن يظهرَ دينُ ابن أبي كبشة بمكة، فقال أبو سفيان: لا تخف إني ضامن أن لا يظهر.

وفي مكة مات في هذه السنة (العاصي بن وائل السهمي) وقد كفى الله تعالى عبادَهُ المسلمين شرَّ هذين الشقيين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الصواب (ما أجزعك) لأن (جزع) فعل لازم لا يتعدى بنفسه. قال أعشى باهلة:

فإن جزِعْنا فإن الشر أجزعنا ... وإن صبرنا فإنا معشرٌ صُبُرُ

انظر لسان العرب. المحقق.

١٩٠ ــ ردُّ فرية واتهام من بعض المستشرقين

أشار بعض المستشرقين في كتاباتهم عن غزوات النبي ﷺ وسرايا أصحابه؛ وقد أشاروا أن هذه[١] السرايا الأولى إنما كان يقصد بها إلى نهب تجارة القوافل، فإن النهب كان بعض طباع أهل البادية، وإن أهل المدينة إنما أغرتهم الغنيمة والسلب باتباع محمد على خلاف عهدهم في العقبة... هكذا يفهمون، وهكذا يبثُّون السم في الدسم، وهكذا يتهمون! وهذا كلام مردودٌ عليهم، لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب، وأنهم فوق ذلك كان في طبعهم ما في طبع من يعيشون على الزراعة من حبّ الاستقرار، مما يجعلهم لا يتحركون إلى قتال، الا لدافع قوي؛ أما المهاجرون، فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدي قريش، ما أخذت من أموالهم، لكنهم لم يستعجلوا ذلك قبل بدر، فلم يكن هو الدافع للسرايا والغزوات الأولى، ثم إن القتال لم يُشرع في الإسلام، ولم يقم به محمد ﷺ وأصحابه لهذه الغاية البدوية التي يتوهّم المستشرقون، وإنما شرع، وقام به محمدٌ ﷺ وأصحابه، تنفيذاً لأمر الله به، ثم حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد، وحتى يكون لهم من حريّة الدعوة له ما يشاءون.

وقد تجلّت الحكمة من قيام الرسول ﷺ وأصحابه، من السرايا والغزوات ولا نعتب على هؤلاء المستشرقين؛ بل على أبنائنا المغرورين بكتابات هؤلاء عن الإسلام والمسلمين، الذين يصطادون بالماء العكر استغلالاً منهم للطعن والغمز في[٢] دين الله، ومحمد رسول الله، ﷺ، وهذا شيء كثير يمر علينا من طعونهم، وإثارة الشبه والافتراءات.

وقد شرحت هذا في كتبي:

١ ــ إثبات وجود الله علماً وعقلاً.

٢ ــ نزاهة القرآن عن تخرصات الملحدين.

---

(١) في الأصل (هذا) بالتذكير. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) في الأصل (عن) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

٣ ــ رد الشبه والافتراءات عن سيدنا محمد سيد الكائنات.

٤ ــ الإسلام يدحض افتراءات الخراصين.

نسأل الله العلي القدير أن يتقبل منا، و يعيننا على نصرة الحق، اللهم آمين.

١٩١ ــ غزوة بدرٍ الكبرى بقيادة رسول الله ﷺ

بدر: بلدة صغيرة تقع على طريق القوافل والحجاج بين مكة والمدينة، وهي تبعد عن المدينة المنورة (١٥٦) ك.م. وتبعد عن مكة المكرمة، (٢٤٥) ك.م. وتقع بدر في سهل، ومن جهتها الشمالية الشرقية جبال وعرة، ومن الجنوب آكام صخرية، ومن الغرب كثبان رملية.

وفي بدر بساتين ونخيل في الجهة الغربية، وفيها مياه عذبة ومسجد كبير تبنته الحكومة السعودية، وفيه إمام وخطيب ومدرس، تقام فيه الشعائر الدينية اليوم في عصرنا الحاضر، وقد شرحت فيه للحجاج بعد صلاتنا الظهر والعصر جمعاً وقصراً، ثم شرحت وقعة بدر الكبرى لهم فيه، وفيها بعض المقاهي لاستراحة الحجاج فيها، كما فيها بيوت للأهلين، وصار القليب الذي طرحت فيه قتلى المشركين في وسط المزارع للجهة الغربية.

وكانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً مرت على الهجرة النبوية، في شهر يناير سنة (٦٢٤)م أي في السنة الثانية الهجرية؛ واستخلف الرسول ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخرج في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

وكان سببها: قتل عمرو بن[1] الحضرمي، وإقبال أبي سفيان بن حرب بن الشام في عيرٍ لقريش عظيمة، وفيها أموال كثيرة لقريش، يحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً قرشياً، منهم: مخرمة بن نوفل الزهري، وعمرو بن العاص؛ فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريشٍ فيها

(١) (ابن الحضرمي) لم يذكر في الأصل كلمة (ابن). المحقق.

أموالهم، فاخرجوا إليها، لعلّ الله أن ينفلكموها؛ فانتدب الناسُ، فخفّ بعضُهم، وثقل بعضُهم لأنهم ظنوا أن الرسول ﷺ لا يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان قد سمع أن رسول الله ﷺ يريده، فحذَّر[1] واستأجر (ضمضم بن عمرو الغفاري) بعشرين مثقالاً، وبعثه إلى مكة، يستنفر قريشاً، ويخبرهم الخبر؛ فسار ضمضم بن عمرو، وعند وصوله لهم، أخبرهم[2] وألقى فيهم النفير[3]، فخرجوا مسرعين، ومن تخلّف أرسل مكانه آخر، ولم يتخلف أحدٌ من أشراف مكة إلا أبا[4] لهب، خوفاً من رؤيا كانت رأتها عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ أفزعتها، وقصتها للعباس، ثم تحدث بها الناس. وقد بعث أبو لهب مكانه العاصَ بنَ هشام بنظير أجرة قدرها أربعة آلاف درهم؛ وكان السبب في خروجهم حماية العير وإنقاذها.

وكان عدد الذين خرجوا من قريش نحو (١٠٠٠) ألف، منهم ستمائة دارع؛ ومعهم مائة فرس عليها مائة درع؛ سوى دروع المشاة.

وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد ــ ثم أسلم بعد رضي الله عنه وهو الأب الخامس للإمام الشافعي رضي الله عنه.

وكان معهم أيضاً (٧٠٠) سبعمائة بعير، وخرجوا ومعهم القيان المغنيات يضربْنَ بالدفوف و يغنين بهجاء المسلمين، وهم في غاية البطر والخيلاء حين خروجهم، اعتماداً على كثرة عَدَدهم وعُدَدهم. قال الله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، و يصدُّون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾[5].

---

(١) الصواب (فحذر) بكسر الذال مخففة. أي خاف. المحقق.

(٢) في الأصل (وأخبرهم) بزيادة واو. المحقق.

(٣) لو قال (واستنفرهم) لكان أفضل. المحقق.

(٤) في الأصل (أبو لهب) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٥) من سورة الأنفال آية (٤٧).

وكان المطعمون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً، وكان كل واحدٍ منهم ينحر كل يوم عشرة جُزُرٍ ـ نوق ـ وهؤلاء الاثنا عشر هم: أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام، والعباس بن عبد المطلب، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود، وأبي بن خلف، والنضر بن الحارث، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وفيهم نزل قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ إن الذين كفرُوا ينفقونَ أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾[1].

أما قوة المسلمين: فكان عدد الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ولما عدّهم ﷺ فرح وقال: «عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر».

وخرجت معه الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكان عددهم (٢٠٧) وسائرهم من المهاجرين، وكانت الإبل (٧٠)، والأفراس خمسة[2]؛ ولما أراد رسولُ الله ﷺ الخروج، لبس درعه ذات الفضول، وتقلّدَ سيفَهُ العضبَ، وردَّ رسولُ الله ﷺ من استصغره، فكان ممن رَدَّهُ أسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وردَّ عمير بن أبي وقاص فبكَى، فأجازَهُ.

وتخلّفَ ثمانية من أصحابه ﷺ بسهامهم وأجورهم، ثلاثة من المهاجرين، عثمان بن عفان خلّفه رسولُ الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضةً فأقام عليها حتى ماتت رضي الله عنها، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بعثهما يتجسَّسانِ خبر العير، وخرجا في طريق الشام، وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري أجمع الخروج إلى بدرٍ، وكانت أمه مريضةً، فأمره الرسول ﷺ بالمقام على أمه.

وخمسة من الأنصار: أبو لبابة بن عبد المنذر الأوسي خلّفه على المدينة وعاصم بن عدي العجلاني خلّفه على أهل العالية، والحارث بن حاطب

(١) لعل أشهر الروايات أنها فرسان فقط. والله أعلم. المحقق.

(٢) من سورة الأنفال آية (٣٦).

العَمْري رَدَّهُ من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمة كُسر بالروحاء، وخَوَّات بن جبير كُسر أيضاً؛ وهؤلاء الثمانية لا اختلاف فيهم لأعذارهم المشروحة. وكانت الإبل سبعين بعيراً يتعاقب النفر البعيرَ، وكانت الخيل فرسين[1]، فرس للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان اللواء مع مصعب بن عمير، وكان أمام رسول الله ﷺ رايتانِ سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار، وجعل على الساقةِ قيس بنَ أبي صعصعة الأنصاري، فكانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لقوَّة عدوهم.

واستعمل ﷺ أبا لبابة والياً على المدينة، وردَّه واستعمل عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة.

١٩٢ ــ رسول الله ﷺ يستشير أصحابه

كان رسول الله ﷺ قد بعث رجلين يتجسَّسَانِ أخبار عير أبي سفيان زعيم قريش وهما: بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الرغباء، فمضيا حتى نزلا بدراً، فأناخا إلى تلٍ قريبٍ من الماء، وأخذا يستقيانِ من الماء، فسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها، إن أتاني العيرُ غداً أو بعد غدٍ أعمل لهم ــ أي أخدمهم ــ ثم أقضيكِ الذي لكِ؛ فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير، وفي حرب النفير ــ يعني أن النبي ﷺ خيَّرَ أصحابه بين أن يذهبوا للعير، أو إلى محاربة النَّفير ــ وأخبرهم بمسير قريش، وقال لهم: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير، وإما قريش، وكانت العيرُ أحبَّ إليهم، ليستَعِينُوا بما فيها من الأموال، على شراء الخيل والسلاح، وقال بعضُهم: هلا ذكرتَ لنا القتال حتى نتأهبَ ــ نتهيأ ــ له، إنا خرجنا للعير؛ وفي رواية: قالوا: يا رسول الله

---

(١) ذكر المؤلف هنا أن عدد خيل المسلمين فرسان وهذا هو الصواب بينما ذكر قبل ذلك أنها خمسة. المحقق.

عليكَ بالعير، ودَع العدوَّ؛ فتغيَّر وجهُ رسول الله ﷺ.

وتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن؛ ثم قام المقدادُ بن عمرٍو رضي الله عنه فقال[1]: يا رسول الله، امضِ لما أمركَ الله فنحن معكَ والله لا نقول لكَ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فاذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾[2] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرتَ بنا إلى بَرْكِ الغماد[3]، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصارَ، وذلك أنهم عدد الناسِ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنَّا بُرَآءُ من ذِمامكَ حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلتَ إلينا فأنتَ في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف ألا تكون الأنصارُ ترى عليها نصرهُ، إلا ممن دهمه بالمدينة ــ أي فاجأه ــ من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم؛ فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ وهو سيد الأوس بل هو سيد الأنصار وكان فيهم كالصديق أبي بكر في المهاجرين: والله لكأنكَ تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل: فقد آمنَّا بكَ وصدَّقناكَ، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ، فنحنُ معك، فوالذي بعثكَ بالحقِّ، لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ، فَخُضْتَهُ لخضناهُ معكَ، ما تخلَّفَ منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقَى بنا عدوَّنا غداً، إنَّا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يُريكَ منَّا ما تَقَرُّ به عينُكَ، فسرْ بنا على بركة الله؛ فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقولِ

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٣، وإنسان العيون. ج ٢ ص ٣٨٥ وكتاب (محمد رسول الله) ص ٢١٦ تجد هذه الكلمات.

(٢) من سورة المائدة آية (٢٤).

(٣) برك الغماد: موضع بناحية اليمن.

سعدٍ رضي الله عنه، ونشَّطهُ ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآنَ أنظر إلى مصارع قرب القوم».

١٩٣ ــ الخلاف بين أبي سفيان وأبي جهلٍ

كان أبو سفيان قد ساحل ــ أي اتخذ طريق القافلة على ساحل البحر ــ وترك طريق بدرٍ خوفاً من محمدٍ وأصحابه، وأسرع المسير، فلما رأى أنه قد أحرز عيرَهُ، أرسل إلى قريشٍ وهم بالجحفة أن الله قد نجَّا عيركم وأموالكم فارجعوا؛ فقال أبو جهلٍ: والله لا نرجع حتى نردَ بدراً ــ وكانت بدرٌ موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام ــ فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمرَ، فتسمع بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا؛ ويقال: كان أبو جهلٍ وقتئذٍ يبلغ من العمر سبعين ستةً، فلما بلغ أبا سفيان كلامُ أبي جهلٍ قال: هذا بغْيٌ، والبغي منقصةٌ وشؤم، لأن القومَ إنما خرجوا النجاة أموالهم، وقد نجّاها الله؛ ولما قال أبو جهلٍ ماقال، رجع من قريشٍ: بنو زهرة وكانوا نحو المائة، وقيل: ثلاثمائة، فلذا قيل: لم يقتل أحدٌ منهم ببدرٍ، وكان قائد بني زهرة (الأخنس بن شريق الثقفي) وكان حليفاً لهم، فقال لهم: يا بني زهرة قد نجَّا الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفلٍ فإنه كان في العير، وإنما نفرتم لتمنعوهُ وماله، فارجعوا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعةٍ، دَعُوا ما يقول هذا ــ يعني أبا جهلٍ ــ وكذلك لم يخرج من قريش، بنو عدي بن كعب، فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحدٌ؛ لكن هذا الخلاف لم يمنع نشوب الحرب في بدر[1].

١٩٤ ــ مسير الجيشين ونزول المطر

مضت قريش وسارت حتى نزلت بالعدوة القصوى[2] من الوادي. ونزل

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ص ٢١٧.

(٢) العدوة: جانب الوادي، والقصوى: أي البعدى.

المسلمون على كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام، وحوافر الدواب، وسبقتهم[1] المشركون إلى ماء بدرٍ، فأحرزوه، وحفروا القُلُبَ لأنفسهم، ليجعلوا فيها الماء من الآبار المعينة، فيشربوا منها، ويسقوا دوابهم[2].

وأدرك المسلمين النعاس، وأصبحوا لا يصلون إلى الماء للشرب والغسل والوضوء، فأرسل الله عليهم مطراً، سال منه الوادي، فشرب المسلمون، واتخذوا الحياض على عدوة الوادي، واغتسلوا وتوضأوا، وسقوا الركاب، وملأوا الأسقية[3] وأطفأت المطر الغبار، ولبد الأرض، حتى تثبت عليها الأقدام والحوافر وضر[4] ذلك بالمشركين، لكون أرضهم كانت سهلة لينة، وأصابهم ما لا يقدرون معه على الارتحالِ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاسَ أَمَنَةً منه، و ينزِّلُ عليكم من السماء ماء ليطهِركم به، و يُذهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطانِ، وليَربطَ على قلوبكم و يثبِّتَ به الأقدام﴾[5].

وبات رسول الله ﷺ يدعُو ربَّهُ، يصلّي تحتَ شجرةٍ، ويكثر في سجوده ويقول: «يا حيّ يا قيُّوم» يكرر ذلك حتى أصبح.

قال سيدنا علي رضي الله عنه: فلما أن طلع الفجرُ، نادَى رسولُ الله ﷺ للصلاة: عبادَ اللهِ، فجاء الناس من تحتِ الشجر والجحف، فصلَّى بنا رسولُ الله ﷺ، ثم خطب وحضَّ الناسَ على القتال.

١٩٥ ــ بناء حوض على القليب

قال ابن إسحاق[6]: خرج رسولُ الله ﷺ يبادرهم إلى الماء،

---

(١) الأصوب (وسبقهم) لأن الفاعل جمع مذكر سالم. المحقق.

(٢) هذا ليس صحيحاً. بل الصحيح أن المسلمين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر وبنوا حوضاً ثم غوروا ما وراءه من القلب ليشربوا هم دون المشركين وذلك بمشورة الحباب بن المنذر. المحقق.

(٣) الحكمة من إنزال المطر على المسلمين في بدر هي ما صرّحت به الآية التي ذكرها المؤلف بعد قليل. المحقق.

(٤) الأفضل (وأضر ذلك بالمشركين). المحقق.

(٥) من سورة الأنفال آية (١١).

(٦) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢١٨. وكتاب سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٩.

حتى جاء أدنى ماء من بدر، **فنزل به، فقال** (الحباب بن المنذر بن الجموح رضي الله عنه): هذا منزلٌ **أنزلكه الله تعالى، لا** نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب **والمكيدة؟ فقال ﷺ**: **بل هو** الرأي والحرب والمكيدة، قال الحبابُ: **فإن هذا ليس بمنزل، فانهض** بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فإني أعرف غزارةَ **مائه، فنزل به** ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً **فنملؤهُ ماء فنشرب ولا يشربون**[1]، فقال ﷺ: أشرتَ بالرأي.

فنهض رسولُ الله ﷺ، **ومن معه من الناس**، حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم، فنزل عليه، ثم أمر **بالقُلب فَغُوِّرَت**، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فملىء ماء، ثم **قذفوا فيه الآنية**؛ وقد كان الحباب خبيراً بالآبار في تلك الجهة، وقد قَبِلَ رسولُ الله ﷺ مشورته، وهي فكرة سديدة لها أهمية كبرى حربية، **فإن الجيش يكون** على اتصالٍ دائم بالماء، الذي لا غنى عنه؛ ومن يومئذٍ قيل لحباب رضي الله عنه: (ذو الرأي).

١٩٦ ــ بناء العريش للقائد محمدٍ رسول الله ﷺ

وبعد بناء الحوض، ونزول المسلمين عنده، قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه نعدُّ عندكَ ركائبكَ، ثم نلقى عدوَّنا؟ فإن أعزّنا الله وأظهرنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلستَ على ركائبكَ، فلحقتَ بمن وراءنا، فقد تخلَّف عنكَ أقوامٌ يا نبيَّ الله، ما نحنُ بأشدَّ لكَ حباً منهم، ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفُوا عنكَ، يمنعكَ اللهُ بهم، يناصحونكَ[2] ويجاهدون معك، فأثنى عليه ﷺ خيراً، ودعا له بخيرٍ، وقال: يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد؛ ثم بُني له العريش، فوق تلٍّ

---

(١) هذا هو الصواب لا ما ذكره المؤلف قبل ذلك من أن المشركين هم الذين سبقوا إلى الماء. المحقق.

(٢) في الأصل (يناصحوك) بحذف النون. والصواب إثباتها لأنه مضارع من الأفعال الخمسة مرفوع. المحقق.

مشرف على المعركة فدخله النبيُّ ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقام سعدُ بنُ معاذٍ، رضي الله عنه متوشحاً بالسيف على بابه حارساً أميناً.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنتَ، قال رضي الله عنه: أشجع الناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لما كان يوم بدرٍ جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحدٌ من المشركين فكان أبو بكرٍ رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ، فوالله ما دنا منه أحدٌ إليه، إلا أهوى إليه أبو بكرٍ رضي الله عنه.

وجاء أنه عندما[1] التحم القتال وقف أيضاً على باب العريش سعدٌ بن معاذٍ رضي الله عنه وجماعة من الأنصار.

(والعريشُ) شيءٌ يشبه الخيمة، يُستظلُّ به، وكان من جريد النخل. قال العلامة السمهودي: مكان العريش عند مسجد بدرٍ، وهو معروف عند النخيل، والعين قريبة منه.

وقد زرته بنفسي، وهناك آثار باقية، وإشارات ترمز لذلك، في بدر.

١٩٧ ــ عتبة بن ربيعة ينصح قريشاً بالرجوع فيأبى أبو جهلٍ

قدمتُ للسادة القراء قبل ذلك، أن أبا سفيان كان من رأيه الرجوع، لنجاة عير قريشٍ وأموالها، وأن أبا جهلٍ كان مصمماً على الحرب، فلما اطمأنَّتْ قريشٌ بالجهة التي نزلوا فيها، أرسلوا عمير بن وهب[2] الجمحي[3] يستطلع، فجالَ بفرسه حولَ عسكرِ النبيّ ﷺ فوجد أنهم يبلغون ثلاثمائة رجلٍ يزيدون أو ينقصون، وقال لهم: لقد رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا؛ رجالٌ من يثرب تحملُ الموتَ الناقع، ألا ترونهم خرَّساً لا يتكلمون؟ يتلمظون

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (عندما) وقد أثبتناها لتستقيم العبارة. المحقق.

(٢) في الأصل (عميرا بن وهب). المحقق.

(٣) أسلم عميرٌ بعد ذلك وحسن إسلامه، وشهد أحداً مع رسول الله ﷺ.

تلمظ الأفاعي، لا يريدون أن يقبلوا[1] إلى أهليهم، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم ــ يعني الأنصار ــ والله ما نرَى أن نقتلَ منهم رجلاً، حتى يُقتل رجلٌ منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم[2].

فلما سمع حكيمُ بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتَى عتبةَ بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد! إنك كبير قريش، والمطاع فيها، هل لكَ أن تُذكر بخيرٍ إلى آخر الدهر؟ فقال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، فقام عتبةُ خطيباً، فقال: يا معشر قريش! والله ما تصنعون شيئاً أن تلقوا محمداً وأصحابه، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجلُ ينظر في وجهِ رجلٍ يكره النظر إليه، قد قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمدٍ وسائر العرب، فإن أصابه غيرُكم، فذاك الذي[3] أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا[4] منه ما تريدون، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي، وقولوا جبن عتبة. وأنتم تعلمون أني لستُ بأجبنكم.

فلما بلغ أبا جهلٍ هذا الكلام عن عتبة، رماه بالجبن وقال: (والله لا نرجع حتى يحكم اللهُ بيننا وبين محمدٍ) فأفسد أبو جهلٍ على الناس رأيَ عتبه ووسمه بالخور والجبن.

١٩٨ ــ تعديل صفوف المسلمين ودعاء رسول الله ﷺ

لما أصبح المسلمون عَدَّلَ النبي ﷺ صفوف أصحابه، وأقبلت قريش ورآها الرسول ﷺ فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلتْ بخيلائها وفخرها، تحادُّكَ وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتنيَ».

---

(١) الصواب (ينقلبوا). المحقق.

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٢ وكتاب (محمد رسول الله) ص ٢٣٠.

(٣) في الأصل: (إذا). والصواب (الذي). المحقق.

(٤) (ولم تعرضوا) في الأصل (ولم تعدموا). والتصحيح من سيرة ابن هشام ومن السيرة الحلبية. المحقق.

١٩٩ ــ اقتحام الحوض من قبل المشركين وقتله[١]

خرج الأسود المخزومي وكان شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم ــأي المسلمينــ أو لأهدمنَّهُ، أو لأموتَنَّ دونه؛ فلما أقبل نحو الحوض، فصده[٢] حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فضربه دون الحوض، فوقع على ظهره، تشخب رجلُه دماً، ثم اقتحم الحوضَ زاعماً أن تبرَّ يمينهُ، فقتله حمزة في الحوض؛ والأسود هذا هو الأسود بن عبد الأسد المخزومي أخو عبد الله بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه زوج أم سلمة رضي الله عنها، وهو أول قتيل قُتل يوم بدرٍ من المشركين، وهو أول من يأخذ كتابه بشماله يوم القيامة، وأما أخوه عبد الله بن عبد الأسد فهو أول من يأخذ كتابه بيمينه، كما جاء ذلك في أحاديث متعددة عن رسول الله ﷺ وهي في كتب الحديث.

٢٠٠ ــ بدء الحرب والمبارزة في أرض المعركة ببدرٍ

التمس عتبة بن ربيعة بيضةً ــأي خوذةــ يدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضةً تسعُ رأسه لعظمها، فتعمّم ببردٍ له[٣]، وخرجَ بعد أن تعمم بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا انفصل من الصف ــأي خرجــ دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتيةٌ من الأنصار ثلاثة: وهم عَوْفٌ ومُعَوِّذٌ ابنا الحارث الأنصاريان، وأمهما عفراء، ورجلٌ آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رَهْطٌ من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجةٍ، إنما نريد قومَنا؛ ثم نادى مناديهم: يا محمد! أخرجْ أكفاءنا من قومنا، فناداهم ﷺ: أن ارجعوا إلى مصافكم، وليقم إليهم بنو عمهم؛ ثم قال ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، فلما قاموا،

(١) (وقتله) هكذا في الأصل. وكان على المؤلف أن يقول مثلا (وقتل المقتحم). المحقق.

(٢) الصواب (صده) بدون فاء لأنه لا موقع للفاء هنا. المحقق.

(٣) قد كان المشركون مجهزين بأسلحة تفوق أسلحة المسلمين، فدروع المسلمين كانت قليلةً، والظاهر أنه لم تكن لديهم خوذ، في حين أن المشركين كانوا يضعون خوذاً على رؤوسهم، تقيهم النبال وضرب السيوف.

ودونوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدةُ وكان أسنَّ القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة، فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما عليٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فذفّفا عليه ــ أي أسرعا في قتله ــ واحتملا صاحبهما عبيدة، فحازاه إلى أصحابه، وكانت إصابته في ركبته، فمات منها لما رجعوا بالصفراء؛ وقيل: هذه أول مبارزة وقعت في الإسلام[1].

٢٠١ ــ تعديل صفوف المسلمين والحث على الجهاد

قال ابن إسحاق: لما قُتِلَ المبارزونَ، خرج رسول الله ﷺ من العريش، لتعديل الصفوف، فعدلهم بقدح في يده ــ سهم لا نصل فيه ــ فمرَّ ﷺ بسواد[2] بن غزيَّةَ حليف النجار، وهو خارج من الصف فطعنه رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح وقال: استوِ يا سواد فقال يا رسول الله: أوجعتني، وقد بعثكَ الله بالحق والعدل، فأقِدْني[3] من نفسك[4]؛ فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: (استقدْ)[5] فاعتنق سوّادُ بن غزيَّةَ النبيَّ ﷺ وقبَّلَ بطنَهُ فقال عليه الصلاة والسلام: (ما حَمَلَك على هذا يا سوّادُ؟ فقال: يا رسول الله حضر ما ترَى، فأردتُ أن يكونَ آخرُ العهد بكَ، أن يمسَّ جلدي جلدكَ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير[6]؛ ثم لما عدل الصفوف قال لهم عليه الصلاة والسلام: «إن

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٥ وكتاب (محمد رسول الله) ص ٢٢١.

(٢) (سوّاد) في الأصل بتشديد الواو. المحقق.

(٣) (فأقِدْني) في الأصل بفتح القاف وفتح الدال مشددة. المحقق.

(٤) أي مكني من القود أي القصاص.

(٥) (استقدْ) في الأصل بتشديد الدال مفتوحة. المحقق.

(٦) وقد رأيت في أسد الغابة: أنها رويت هذه القصة لسوّاد بن عمرو، لا لسوّاد بن غزية، وأنا أخذتها عن سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٦.

دنَا القومُ منكم فانضحوهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشوكم»، وخطبهم خطبةً حثَّهم فيها على الجهاد، قال فيها: (والذي نفسُ محمدٍ بيده! لا يقاتلُهم اليومَ رجلٌ فيقتل صابراً محتسباً، مُقْبلاً غيرَ مدبرٍ، إلا أدخله الله الجنة» فقال عُمَيْرُ بن الحمام أخو بني سلمةَ رضي الله عنه، وفي يده تمراتٌ يأكلهنَّ: بَخْ بَخْ ــ هذه كلمة تقال عند الإعجاب أو الفخر ــ أفا بيني وبين أن أدخلَ الجنةَ، إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف ــ طرح ــ التَّمرَاتِ من يده، وأخذ سيفَهُ فقاتلَ القومَ حتى قُتل رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: إن عوفَ بن الحارث ابن عفراء قال: يا رسول الله! ما يضحكُ الربَّ من عبدِه؟ قال رسولُ الله ﷺ: «غَمْسُهُ يَدَهُ في العدوِّ حاسراً» فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفَهُ فقاتل القومَ حتى قُتل رضي الله عنه.

٢٠٢ ــ ألوية المسلمين في بدر وألوية المشركين يوم بدرٍ

كان لواء رسول الله الأعظم، لواء المهاجرين، مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ، وجعل رسولُ الله ﷺ شعار المهاجرين (يا بني عبد الرحمن) وشعار الأنصار (يا بني عبد الله) وشعار الأوس (يا بني عبد الله)[1] ويقال: بل كان شعار المسلمين جميعاً بينهم كلمة السر: (يا منصورُ أمتْ).

وكان مع المشركين ثلاثة ألوية، لواء مع أبي عزيز بن عمير، ولواء مع النضر بن الحارث، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة، وكلهم من بني عبد الله[2].

---

(١) يلاحظ على المؤلف أنه ذكر للأنصار عامة شعار (يا بني عبد الله)، وللأوس خاصة نفس الشعار. فهل يقصد بالأنصار «الخزرج»؟ وإذا كان كذلك فكيف يكون شعار القبيلتين واحداً؟ وليت المؤلف ذكر لنا المصدر الذي نقل منه هذا حتى نتأكد من صحة النقل. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٢٣.

٢٠٣ ــ تزاحف الناس والتحام القتال

بعد أن عاد رسول الله ﷺ، **تزاحف الناسُ، ودنَا بعضُهم من بعض**، وأقبل نفرٌ من قريش حتى وردُوا **الحوضَ الذي كان بيد النبي ﷺ**، فنادَى رسول الله ﷺ قائلاً: دعوهم، **فما شرب منه رجل يومئذٍ إلا قُتلَ**، إلا حكيم بن حزام فإنه أسلم؛ وأمر رسول الله ﷺ **أن لا يحملوا على المشركين** حتى يأمرهم؛ وكان ﷺ قد أخذته سِنةٌ من النوم، **فاستيقظ، وقد أراه الله إياهم** في منامه قليلاً فأخبر أصحابه، فكان تثبيتاً لهم؛ ثم خرج رسول الله ﷺ يحرِّض المؤمنين على القتال، وأخذ حفنةً من الحصباء **فاستقبل بها قريشاً** وقال: شاهت الوجوه ــ أي قبحت الوجوه ــ ونفخهم بها ثم أمر أصحابَهُ، فقال: شدُّوا فكانت هزيمة المشركين.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: وهو في العريش يوم بدرٍ: «اللهمَّ إني أنشدك عهدكَ ووعدكَ اللهمَّ إن تهلك هذه العصابةَ اليومَ، فلا تُعبد». وفي رواية «إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم، فلا تُعبد في الأرض» وروى النسائي والحاكم عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قاتلتُ يوم بدرٍ شيئاً من قتالٍ، ثم جئتُ لاستكشاف حال النبي ﷺ؛ فإذا رسولُ الله ﷺ يقول في سجوده: (يا حيُّ يا قيوم) لا يزيد على ذلك، فرجعتَ فقاتلت، ثم جئتُه فوجدته كذلك؛ فعل ذلك أربع مرات ــ هكذا تكون القواد باتصالٍ دائم مع رب النصر ــ وقال في الرابعة: ففتح عليه، وهذا يدل على عظم هذا الاسم، ولذا قيل: إنه الاسم الأعظم.

لما رمَى رسول الله ﷺ المشركينَ بالحصباء لم يبقَ من المشركينَ رجلٌ إلا امتلأتْ عيناه وأنفُه وفمُه، لا يدري أين يتوجَّهُ، يعالج التراب[1]، لينزعه من عينيه، فانهزموا، وردَفهم المسلون يقتلون و يأسرون، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله العظيم: ﴿ وما رَمَيْتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ص ٢٢٤.

رَمَى﴾ [1] وهذه إحدى معجزات رسول الله ﷺ. خرج رسولُ الله ﷺ وهو يقول: ﴿سيهزَمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ﴾ [2] وقال: والذي نفسُ محمدٍ بيده! لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبرٍ، إلا أدخله الله الجنةَ، فقال عميرُ بن الحمام الأنصاري وبيده تمرات يأكلهنَّ: (بخ، بخ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء) ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل [3].

وَرُمي مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنها بسهمٍ فقتل، فكان أول قتيل؛ ثم رمي حارثة بن سراقة الأنصاري رضي الله عنه. واقتتل الناسُ قتالاً شديداً، فانهزم المشركون شر هزيمةٍ، فقتل منهم، وأسر من أسر، وكان بدء المعركة في الصباح، وكان [4] الهزيمة في وقت الظهر [5].

وفي يوم بدرٍ، دعا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنَهُ عبد الرحمن إلى المبارزة، وكان أسنَّ أولاده، فقال له النبيُّ ﷺ: «متعنا بنفسك، أما علمتَ أنك مني بمنزلة سمعي وبصري؟» ثم أسلم عبد الرحمن في هدنة الحديبية، وكان اسمه قبل الإسلام (عبد الكعبة) وقيل: عبد العزَّى، فسماه رسولُ الله ﷺ (عبد الرحمن) وكان أشجع قريشٍ وأرماهم.

وقد قَتَلَ أبو عبيدة عامر بن الجراح أباه، وكان مشركاً يود قتل ابنه، وحاول أبو عبيدة مراراً عدم قتله، لولا إصرار الأب على كفره فقتله. وقتل بلالٌ أميةَ بنَ خلفٍ الجمحي صديق عبد الرحمن بن عوف في الجاهلية لأن أميةَ كان يعذبه بمكة عذاباً نكراً، على أن يترك الإسلام، ويعبد اللات والعزى؛ وكان ابن عفراء قد ضرب أبا جهلٍ ضربةً مميتةً، وقطع ابن الجموح رجله؛ فلما

---

(١) الآية في سورة الأنفال آية (١٧).
(٢) الآية رقم (٤٥) من سورة القمر. المحقق.
(٣) نفس المصدر والصحيفة ص ٢٢٤.
(٤) الأفضل (وكانت) ويجوز (وكان) كما ذكر المؤلف لأن الفاعل مجازي التأنيث. المحقق.
(٥) نفس المصدر السابق.

أمر رسولُ الله ﷺ الناسَ، بأن يلتمسوا أبا جهلٍ عدو الله ورسوله في القتلى، خرج معهم عبد الله بن مسعود، فوجده وهو بآخر رمقٍ، فوضع رجله على عنقه وجزَّ رأسه، وحمله إلى رسول الله؛ ثم إن النبي ﷺ بعد إلقاء رأس أبي جهلٍ بين يديه، خرج يمشي مع ابن مسعودٍ حتى أوقفه على جثة أبي جهلٍ فقال: الحمد لله الذي أخزاك يا عدو رسول الله، هذا كان فرعون هذه الأمة، ورأس قاعدة الكفر؛ قال ابن مسعود: ونفلني سيفه، وكان قصيراً عريضاً فيه قبائع فضةٍ، وحلق فضةٍ.

٢٠٤ ــ عون الله للمسلمين وإمدادهم بالملائكة يوم بدرٍ

وردت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن الله تبارك وتعالى أمدَّ المسلمين بالملائكة يوم بدرٍ، عوناً للمسلمين الصادقين، فقاتلوا معهم، فلما انقضى أمر بدر، وأتمَّ نعمته عليهم، أنزل الله عز وجل من القرآن سورة الأنفال، وقال في شأن الملائكة خاصة:

﴿ إذْ تستغيثونَ ربَّكم، فاستجاب لكم، أني ممدُّكم بألفٍ منَ الملائكةِ مُرْدِفين، وما جعله الله إلا بُشرىَ، ولتطمئنَّ به قلوبُكم، وما النصر إلا من عند الله، إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿ إذ يُوحي ربُّكَ إلى الملائكة أني معكم فثبّتُوا الذين آمنُوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ، فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كلَّ بنانٍ ﴾(٢).

وقال جل شأنه: ﴿ ولقد نصركُم الله ببدرٍ وأنتم أذلَّةٌ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدَّكم ربُّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددْكم

(١) أنظر سورة الأنفال الآيتين (٩و١٠).
(٢) من سورة الأنفال آية (١٢).

ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوّمين، وما جعله الله إلا بُشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[1].

وجاء في صحيح البخاري: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدرٍ: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب».

إن إمداد المسلمين بالملائكة من معجزات رسول الله ﷺ التي نصَّ عليها القرآن الكريم.

روي عن سهل بن حنيف عن أبيه رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا يوم بدرٍ وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

٢٠٥ ــ سيما الملائكة يوم بدرٍ

كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، قد أرسلوها خلف ظهورهم إلا جبريل عليه السلام، فإنه كان عليه عمامة صفراء، وقيل: حمراء.

وقيل: إن بعض الملائكة كانوا بعمائم صفر، وبعضهم بعمائم بيض، وبعضهم بعمائم سود، وبعضهم بعمائم حمر.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كانت سيما الملائكة يوم بدرٍ عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضر وصفر وحمر.

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يوم بدرٍ متعمماً بعمامة صفراء، وكانت خيل الملائكة بلقاً مسومة ــ أي مزينة[2] ــ.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن الغمام الذي ظلل بني إسرائيل في التيه، هو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر[3].

---

(١) من سورآل عمران الآيات (١٢٣-١٢٦).

(٢) (مسوّمة) أي: معلّمة. المحقق.

(٣) أنظر كتاب محمد رسول الله ص ٢٢٦.

٢٠٦ ــ إلقاء قتلى المشركين في القليب

أمر رسولُ الله ﷺ بالقتلى من المشركين أن ينقلوا من مصارعهم، وأن يطرحوا في القليب، فَطُرِحُوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأه، فذهبوا ليحركوهُ فتقطَّعتْ أوصالُه، فألقوا عليه ما غَيَّبَهُ من التراب والحجارة. والسبب في إلقاء قتلَى المشركين في القليب، كثرة جيفهم، فكان جرُّهم إلى القليب أيسر من دفنهم.

ثم جاء رسولُ الله ﷺ حتى وقف على شفير القليب بعد ثلاثة أيام من إلقائهم فيه، ومعه أصحابه وقال: «يا أهل القليب! بئس عشيرة النبيّ كنتم، أمنتكم[1] فكذبتموني، وصدَّقني الناس، ثم قال: يا عتبة، يا شيبة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهلٍ بن هشام ــ وعَدَّدَ من كان في القليب ــ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً. فقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال له ﷺ: ما أنتمُ بأسمع لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وروي أن أبا رزين رضي الله عنه قال: يا رسول الله! إن طريقي على الموتَى فهل لي كلام نكلم به إذا مررتُ عليهم؟ قال: «قل السلام عليكم يا أهل القبور من المسلمين والمؤمنين، أنتم لنا سَلَفٌ، ونحن لكم تبعٌ وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» قال أبو رزين: هل يسمعون؟ قال: «يسمعون ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا أي جواب، يسمعه الحي ثم قال: يا أبا رزين ألا ترضَى أن تردَّ عليكَ بعددهم الملائكة؟»[2].

---

(١) النص في السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٣٦ طبع دار الطباعة بمصر: (بئس عشيرة النبي كنتم كذبتموني وصدقني الناس. وأخرجتموني وآواني الناس. وقاتلتموني ونصرني الناس) ولم يذكر كلمة (أمنتكم). المحقق.

(٢) أنظر الحديث في كتاب (فتح العلام بشرح مرشد الأنام) ج ٢ ص ٨٩٨.

٢٠٧ ــ أسرى المشركين وفداؤهم

كان فداء كل أسيرٍ من أسرى المشركين يوم بدرٍ، أربعة آلاف درهم إلى ما دون ذلك؛ فكان يفادي بهم على قدر أموالهم؛ وكان أهل مكة يجيدون القراءة والكتابة، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء مالي، دفع إليه عشرة غلمانٍ من غلمان المدينة، فعلّمهم، فإذا تعلموا وحذقوا، فهو فداؤه، وهكذا أراد القائد أن يبثَّ روح العلم، ويقضي على الأمية المنتشرة في المدينة؛ وكان ممن تعلم وحذق في القراءة والكتابة زيد بن ثابت رضي الله عنه، كما جاء في الطبقات[١].

كان من بين الأسرى (العباس) عم النبي ﷺ، وصنو أبيه يكنّى أبا الفضل بابنه الفضل، وكان أسنَّ من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل بثلاث سنين، وكان في الجاهلية رئيساً في قريش، وكانت إليه عمارة المسجد الحرام والسقاية في الجاهلية[٢]. خرج من المشركين يوم بدرٍ، فأسر وشدَّ وثاقه، فسهر النبيُّ ﷺ تلك الليلة لم ينم، فقال له بعضُ أصحابه: ما يسهرك يا نبيَّ الله؟ فقال: أسهرُ لأنينِ العباس، فقال الرجلُ: أنا أرخيتُ من وثاقه، فقال رسولُ الله ﷺ: فافعل ذلك بالأسرَى كلهم؛ قال رسولُ الله ﷺ للعباس: افدِ نفسَكَ يا عباس، وابنَيْ أخويكَ عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو بمائة أوقيةٍ، وكل واحدٍ بأربعين أوقية، فقال العباس للنبي ﷺ: تركتَني فقيرَ قريشٍ ما بقيتُ، فقال له رسولُ الله ﷺ: فأين المال الذي دفعتَهُ لأم الفضل ــ أي زوجته ــ وقلتَ لها إن أصبحتُ فهذا لبنيَّ: الفضل وعبد الله وقثم؟ فقال: والله إني أشهد أنك رسول الله، إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله.

وفي رواية: قال للنبي ﷺ: لقد تركتَني فقير قريشٍ ما بقيتُ، فقال له كيف تكون فقير قريش، وقد استودعت بنادق الذهب أم

---

(١) أي طبقات بن سعد.

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٢٧.

الفضل ــ زوجته ــ وقلتَ لها: إن قُتلتُ فقد تركتُكِ غنيةً ما بقيتِ؟ فقال: أشهد أن الذي تقوله قد كان وما اطلع عليه إلا الله؛ ونطق بالشهادتين بحضرة رسول الله ﷺ.

وقد قيل: إن العباس كان قد أسلم، وكان يكتم إسلامه لديونٍ له، كانت متفرقة في قريش، وكان يخشى إن أظهر إسلامه ضاعت عندهم.

وقد جاء في بعض الروايات: أن العباس قال: علامَ يؤخذ منا الفداء وكنا مسلمين؟ فقال النبيُّ ﷺ: الله أعلمُ بما تقول إن يك حقاً، فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنتَ علينا.

وقد أنزل الله تبارك وتعالى في العباس: ﴿يا أيها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسرى إنْ يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، و يغفرْ لكم، والله غفورٌ رحيمٌ﴾[2].

وعند نزول هذه الآية، قال العباسُ للنبي ﷺ وددتُ أنك كنت أخذتَ مني أضعافَ ما أخذتَ؛ وقد صَدَقَه الله وعدهُ له، فأعطاهُ الله مالاً عظيماً، حتى كان عنده مائة عبدٍ في يدِ كل عبدٍ مالٌ يتجر فيه، و بلغ ما دفعتْهُ قريشٌ فداء للأسرى أكثرَ من (٢٠,٠٠٠) عشرين ألف درهم[3].

٢٠٨ ــ رِقةُ قلب رسول الله ﷺ على عدوِّه النضر بن الحارث

وكان من الأسرى: (النضر بن الحارث العبدري) وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكان يقول في القرآن إنه أساطير الأوَّلينَ، ويقول: لو شئنا لقلنا مثل هذا، وغير ذلك من الأقاويل؛ فأمر النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه فضرب عنقَهُ؛ فلما بلغ الخبر أخته (قتيلة) وقيل: إنما هي بنته رثَتْهُ بأبياتٍ ثم أسلمت.

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٢٨.

(٢) أنظر سورة الأنفال آية (٧٠).

(٣) عن كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٢٨.

وجاء في كتاب أسد الغابة: أن قتيلة بنت النضر هي التي قالت الأبيات التالية في رسول الله ﷺ لما قُتِلَ أبوها النضر بن الحارث يوم بدر، وهي:

يا راكباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسةٍ وأنتَ مُوَفَّقُ
أبلغ بها ميتاً بأن تحيةً ... ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
مني إليكَ وعبرة مسفوحة ... جادَتْ بواكفها وأخرى تخنق
ظلَّتْ سيوفُ بني أبيهِ تنوشُه ... لله أرحامٌ هناكَ تشقق
قسراً يقادُ إلى المنية معتباً ... رسفَ المقيّد وهو عانٍ موثَقُ
أمحمد أو لستَ صفوَ نجيبةٍ ... منْ قومها والفحلُ فحلٌ معرقُ
ما كان ضرك لو مننتَ وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنقُ
فالنضرُ أقربُ من أسرتَ قرابةً ... وأحقُّهم إن كان عتقٌ يعتقُ

وحين سمع ذلك رسول الله ﷺ بكى، وقال: لو بلغني هذا الشعر قبل قتله، لمننتُ عليه[1]، ـ أي لأنعمت عليه به، وقبلتُ شفاعتها به ـ.

٢٠٩ ـ جزاء عدوّ الله ورسوله عقبة بن أبي معيط

وكان من الأسرى عقبة بن أبي معيط بن ذكوان، المكنّى بأبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان من ألدّ الناس عداوة وأشدهم استهزاء، للنبي ﷺ؛ كان عقبة هذا، يلقي القذر على باب النبي ﷺ وهو ساجد بين يدي الله تعالى؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «كنتُ بينَ شرِّ جارين: أبي لهبٍ، وعقبة بن أبي معيط».

وإن عقبة هذا، هو الذي بصق في وجه النبي ﷺ فعاد بصاقه على وجهه، وصار برَصاً، وقد جازاه الله في بدر فأوقعه أسيراً؛ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن عقبة لما قُدِّمَ للقتل نادى: يا معشر

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله ﷺ) ص ٢٢٩. جاء في المصباح المنير ج ٢ ص ١٢٤ قوله (منَّ عليه بالعتق وغيره منّاً، من باب قتل، وامتنَّ عليه به أيضاً: أنعم عليه به).

قريش، مالي أقتل بينكم صبراً؟ فقال له النبيُّ ﷺ: بكفرك واجترائك على الله ورسوله.

والأسيران الوحيدان في حرب موقعة بدر، اللذانِ أمر رسولُ الله ﷺ بقتلهما، هما النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط.

أما بقية الأسرى، فقد استشار رسولُ الله ﷺ في أمرهم، فاستشار أبا بكرٍ الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلياً، وابن رواحة رضي الله عنهم، فيما هو الأوفق والأصلح من الأمرين: القتل أو أخذ الفداء؟

٢١٠ ــ رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وجماعته المستشارين

١ ــ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، أهلك وقومك، وفي رواية: هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، قد أعطاك الله الظفر بهم، ونصركَ عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بكَ، فيكونوا[1] لنا عضداً.

وقد وافق الصحابة رضي الله عنهم، أبا بكرٍ رضي الله عنه على أخذ الفداء.

٢ ــ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله قد كذبوكَ وأخرجوكَ وقاتلوكَ، ما أرى ما رأى أبوبكرٍ، ولكني أرى أن تمكنني من (فلان) قريب لعمر، فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل أخيه، فيضرب عنقَهُ، وتمكّن حمزة من أخيه العباس، فيضرب عنقه، حتى يعلم أنه ليس في قلوبنا مودّة للمشركين، ما أرى أن تكون لكَ أسرى، فاضربْ أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم؛ فأعرضَ رسولُ الله ﷺ عنه.

٣ ــ أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلم يذكر عنه جواب، مع أنه أحد الثلاثة المستشارين.

---

(١) في الأصل (فيكونون) بإثبات النون. والصواب حذفها. المحقق.

قال العلامة الزرقاني: لأنه رضي الله عنه لما رأى تغيُّرَ المصطفى ﷺ حين اختلف الشيخان أبو بكر، وعمر، لم يجب، أو لم تظهر له مصلحة حتى يذكرها.

٤ ــ أما رأي عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان بإحراقهم في وادٍ كثير الحطب. لكن رسولَ الله ﷺ أخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه، وقال: لا يفلتنَّ أحدٌ منهم إلا بفداءٍ أو ضرب عنقٍ.

وقد أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ما كان لنبيّ أن يكونَ له أسرَى حتى يُثْخنَ في الأرض، تُريدونَ عَرَضَ الدنيا والله يريدُ الآخرة، والله عزيزٌ حكيمٌ، لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لمسَّكُمْ فيما أخذتم عذابٌ عظيم، فكلُوا مما غنمتُمْ حلالاً طيباً. واتقوا الله، إن الله غفورٌ رحيم﴾[1]. فبكَى النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ رضي الله عنه، وقال رسول الله ﷺ: إن كاد ليمسَّنا في خلاف ابن الخطاب عذابٌ عظيمٌ، ولو نَزَلَ العذابُ ما أفلتَ منه إلا ابن الخطاب، ولم يقل (وابن رواحة)، لأنه أشار بإضرام النار، وليس بشرعٍ. والآية هذه موافقة لرأي عمر، وهذا من المواضع التي جاء بها موافقاً لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي كثيرة نحو بضع وثلاثين موضعاً.

٢١١ ــ تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بدفع بدلات الفداء

ولما استقرَّ الأمر على الفداء، فرَّقَ رسول الله ﷺ الأسرَى في أصحابه رضي الله عنهم؛ وكان أولُ أسيرٍ فُديَ هو أبو وداعة الحارث، فداه ابنه المطلبُ ــ وكان كيّساً تاجراً ــ بأربعة آلاف درهم ثم أسلم بعد؛ وقد عدَّهُ بعضهُم: من الصحابة.

وعند ذلك بعثَتْ قريش في فداء الأسرى؛ وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم، وكان من أربعة آلاف درهم إلى ألفين إلى ألف، ومن لم يكن معه فداء، وهو يحسن الكتابة، دُفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة، فإذا تعلموا كان ذلك فداءه كما تقدم.

---

(١) من سورة الأنفال الآيات (٦٧و٦٨و٦٩).

وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ فضل العلم من القراءة والكتابة، ويضرب لنا أكبر مثل للقضاء على الأمية، ومحو الجهل من الأمة، فليتذكر عقلاء الأمة وقادتها لهذا، و يقضوا على الأمية المنتشرة في عالمنا العربي وفي أقطارنا الإسلامية.

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع، فإنه أسلم بعد ذلك وهو زوج زينب بنت الرسول ﷺ، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، أخت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ ولم يكن في ذلك الوقت تزوج الكافر بالمسلمة محرماً، وإنما حرم ذلك بعد، لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقدمتْ زينبُ رضي الله عنها المدينةَ بعد شهر من وقعة بدرٍ، وقد جاء بها زيد بن حارثة رضي الله عنه بأمر رسول الله ﷺ، ثم أسلم زوجها وهاجرَ، وردَّها إليه ﷺ بغير عقدٍ، بل بالنكاح الأول وقيل: عقد عليها عقداً آخر، وولدتْ له (أمامة) التي كان يحملها ﷺ على ظهره وهو يصلي، ثم لما كبرت تزوَّجها سيدنا علي رضي الله عنه بعد خالتها فاطمة رضي الله عنها بوصيةٍ من السيدة فاطمة الزهراء لسيدنا عليّ بذلك.

ومَنَّ رسولُ الله ﷺ على نفرٍ من الأسرى بغير فداءٍ منهم: أبو عزّة عمرو الجمحي الشاعر، وكان يؤذي النبيَّ ﷺ بشعره، فقال يا رسول الله! إني فقير، وذو عيالٍ وحاجةٍ قد عرفتَها، فامنُنْ عليَّ، فمَنَّ عليه رسولُ الله ﷺ وأطلقه، وأخذ عليه عهداً أن لا يظاهر عليه أحداً؛ ولما وصل إلى مكة قال: سحرتُ محمداً ورجع لَما كان عليه من الإيذاء بشعره؛ ولما كان يوم أحدٍ، خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره، فأسر، فأمر النبيُّ ﷺ بضرب عنقه فقال: اعتقني وأطلقني فإني تائبٌ، فقال ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين» فضربت عنقُه، وحمل رأسه إلى المدينة، وأنزل الله فيه قوله: ﴿وإن يُريدوا خيانتَكَ فقد خانُوا الله من قبلُ، فَأَمْكَنَ منهم﴾(١).

٢١٢ ــ البشائر تزف لأهل المدينة بنصر الله

أرسل رسولُ الله ﷺ بشيرين لأهل المدينة، يحملان بشائر نصر الله لعباده المؤمنين، وهما كلاً[١] من: عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية[٢]، وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة، بما فتح الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين، ودخل كل واحدٍ منهما من ناحية كما أمرهما الرسول ﷺ؛ فجعل عبد الله ينادي على راحلته، يبشّر الأنصار بنصر رسول الله ﷺ وأصحابه، ويذكر لهم من قُتِلَ من المشركين، وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعه، وهو ممتطٍ القصواء ناقة النبي ﷺ؛ وسُرَّ المسلمون واجتمعوا، وخرج من كان منهم في داره، وانطلقوا يهلّلون لهذا النصر العظيم.

ولما قارب رسول الله ﷺ المدينة، خرج المسلمون للقائه بما فتح الله عليه، فتلاقوا معه بالروحاء، وتلقته الولائد عند دخوله المدينة بالدفوف ويقُلْنَ:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داعٍ

وقسّم الرسول العظيم، النفل وكانت (١٥٠) من الإبل وعشرة أفراس ومتاعاً وسلاحاً وأنطاعاً وثياباً وأدماً كثيراً حمله المشركون للتجارة، ونادَى منادي رسول الله ﷺ: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له، وتنفَّلَ رسولُ الله ﷺ زيادة علي سهمه سيفه ذا الفقار وجمل أبي جهلٍ.

وقد سمعت قريش خبر انتصار رسول الله ﷺ ممن رجع منهم من ساحة القتال[٣]، وقصّ أبو سفيان بن الحارث ما رأى على أبي لهبٍ ففقد رشده، وضرب أبا رافع ضرباً مبرحاً، ولم يعش بعدها أبو لهب إلا سبع

---

(١) يا حبذا لو حذف المؤلف لفظ (كلامن) المحقق.

(٢) هو موضع قريب من المدينة.

(٣) قال الكلبي: إن الحيسمان بن إياس هو الذي جاء بخبر قتلى أهل بدر إلى مكة، وكان قد شهد بدراً مع المشركين، ثم أسلم.

ليال ومات مصاباً بالجدري، وبقي بعد موته ثلاثة أيام لا يقرب أحد منه خوفاً من العدوى حتى أنتنَ[1]، ولما تحققت قريش خبر الهزيمة، وما أصابهم من قتل وأسر، ناحت على قتلاها شهراً، وجزَّ النساء شعورهنّ، ثم اتفقوا على عدم الاسترسال في الجزع، لئلا يشمتَ بهم المسلمون، وتواصوا على الأخذ بالثأر[2].

أما يهود المدينة والمنافقون فيها، فقد أشاعوا: لو أن محمداً حي لما ترك ناقته وهذه هي نعرفها، ولو أنه انتصر لبقيت عنده؛ وما يقوله زيد فهذا هذيان منه من شدة فزعه ورعبه، ولما ظهر الحق ودخل الرسول ﷺ أيقن المشركون والمنافقون واليهود بنصر محمدٍ ﷺ علموا[3] أن موقفهم أصبح موقف هوان ومذلةٍ حتى قال أحدُ زعماء اليهود: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها، بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن.

دخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم، فلما جيء بهم قال ﷺ: استوصوا بهم خيراً.

٢١٣ ـ الشاعر المخلص كعب بن مالك رضي الله عنه يقول بعد المعركة

عجبتُ لأمرِ اللهِ واللهُ قادرٌ ... على ما أرادَ ليس للهِ قاهرُ
قضَى يومَ بدرٍ أن نُلاقيَ معشراً ... بَغَوا وسبيلُ البغي بالناسِ جائرُ
وقد حشدُوا واستنفرُوا منْ يليهمُ ... منَ الناس حتى جَمْعُهُمْ مُتَناثِرُ
وسارتْ إلينا لا تحاولُ غيرَنا ... بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامِرُ
وفينا رسولُ اللهِ والأوسُ حولَهُ ... له مَعْقِلٌ منهم عزيزٌ وناصرُ

---

(١) كانت قريش تتقي الجدري كما تتقي الطاعون وتخشى عدواها.
(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٣٣.
(٣) الصواب (وعلموا). المحقق.

وجمعُ بني النجارِ تحتَ لوائه ... يَميسُونَ في الماذيّ والنَّقعُ ثائرُ[1]
فلما لَقِيناهُمْ وكلٌّ مجاهِدٌ ... لأصحابِه مُسْتَبْسِلُ النفسِ صابرُ[2]
شهدنا بأن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأن رسولَ الله بالحقِّ ظاهرُ[3]
وقد عُرِّيَتْ بِيضٌ خفافٌ كأنها ... مقابيسُ يُزهيها لِعَيْنَيْكَ شاهرُ[4]
بهنَّ أَبَدْنَا جمعَهم فتبدَّدُوا ... وكان يُلاقي الحَيْنَ مَنْ هو فاجرُ[5]
فَكُبَّ أبو جهلٍ صريعاً لوجهه ... وَعُتْبَةُ قد غادَرْنَهُ وهو عاثرُ[6]
وشيبةُ والتيميُّ[7] غادَرْنَ في الوَغى ... وما منهمُ إلا بذي العرشِ كافرُ
فأمسَوْا وَقودَ النارِ في مستقرِّهَا ... وكلُّ كفورٍ في جهنَّمَ صائرُ
تَلَظَّى عليهم وهي قد شَبَّ حَمْيَها ... بزبر الحديدِ والحجارة ساجِرُ[8]
وكان رسولُ الله قد قال: أقبِلُوا ... فَوَلَّوْا، وقالُوا: إنما أنتَ ساحرُ
لأمرٍ أرادَ اللهُ أن يَهْلِكُوا به ... وليس لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ زاجرُ[9]

٢١٤ — من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، وخسارة الفريقين

كان مجموع من شهد بدراً من المسلمين (٣١٤):

منهم ٨٣ رجلاً من المهاجرين.

و ٦١ رجلاً من الأوس.

---

(١) يميسون: يمشون مشى المتبختر، والماذي: الدروع اللينة، والنقع: الغبار، وثائر: مرتفع فوق رؤوسهم.

(٢) مستبسل: موطن نفسه على الموت.

(٣) ظاهر: غالب قاهر خصمه بسبب الحق الذي يتمسك به.

(٤) مقابيس جمع مقباس: وهو القطعة المشتعلة من النار، ويزهيها يحركها.

(٥) أبدنا: أهلكنا. والحين: الهلاك.

(٦) عاثر: ساقط، ويروى عافر: أي ملاصق بالعفر، أي التراب.

(٧) في الأصل (وشيبةَ والتيميَّ) بنصب الكلمتين. والصواب رفعهما. المحقق.

(٨) تلظى: تلتهب. وشبَّ: أوقد، وزبر الحديد: قطعهُ، وساجر: موقد.

(٩) حمه الله: قدره وقضاه. والقصيدة هذه في سيرة النبي ﷺ لابن هشام ج ٢ ص ٣٧٩. ص ٣٧٩.

و ١٧٠ رجلاً من الخزرج.

٣١٤ رجلاً المجموع في معركة بدرٍ رضي الله عنهم.

المستشهدون ١٤. أربعة عشرة شهيداً.

٣٠٠ عادوا مع قائدهم إلى المدينة.

أما قتلى المشركين[١] فكانوا (٧٠) قتيلاً و (٧٠) أسيراً، وعاد الباقي لمكة ذليلاً مقهوراً.

٢١٥ ــ النظام واحتقار الموت هما من أسباب النصر

في هذه المعركة التي دارت بين جيش الإيمان والكفر في بدر وانتصرت القلةُ في العَدَدِ والعُدَدِ، على الكثرة، والفريقان عرب شجعان؛ وإنما رجح جيش الإيمان هذاالرجحان الكبير بأمرين: هما النظام، واحتقار الموت؛ وشهد الناس في بدرٍ معجزةَ ذلك النظام حين أغارت خيلُ المشركين، على الصفوف المرصوصة، فلم تحركها من مكانها قدماً واحدةً، وارتدت عنها حائرةً، إذ رأت ما لم يسمع به من قبل، ذلك أن للخيل إذا أقبلتْ في زحفها مغيرةً رهبةً يعرفها من مارسوا الحروب، وقلما تثبت لها الراجلة؛ شهد الناس في بدر ثلاثمائة رجلٍ، ربَّاهم قائدهمُ العظيم ونظمهم[٢] ﷺ، يستعذبون الموت في سبيل الله، حفظاً لعقيدتهم، وسلامة موطنهم؛يقول العلامة عبد الرحمن عزام ما نصه حرفياً:[٣] تقدم الرسول ﷺ إلى بدرٍ، بكتيبة ليس لها من معدات الجيوش ما لقريش، فقد كانت الخيالة لا تزيد على فارسين أو ثلاثة خيول، ولم تكن لها دروع ولا سلاح غير السيوف، بل لم يكن لها ما يكفي من الإبل لحمل العتاد والرجال، هذا على حين كان لقريش العَدَدُ[٤] والعُدَّة فكان عدد فرسانها مائة فارس، وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من

---

(١) في الأصل (المشركون) بالواو. والصواب ما أثبتناه لأنه مضاف إليه. المحقق.

(٢) في الأصل (وتنظمهم). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٣) أنظر كتاب بطل الأبطال ص ١١٢.

(٤) في الأصل (العددَ) بفتح الدال والصواب ضمها لأنه اسم كان. المحقق.

أصحاب الرسول ﷺ، وكان معها من الإبل ما يكفي لأن يذبحوا لطعامهم عشرة كل يوم، وكان كلُّ ما يُعرف من أنواع السلاح إذ ذاك متوافراً لها بسبب ثرائها واستعدادها الدائم للحرب، وخصوصاً هذه المعركة؛ ولكن شيئاً آخر عظيماً كان متوافراً لأصحاب الرسول ﷺ فاستعاضوا به عما كان ينقصهم من العَدد والعُدَّة، أما هذا الشيء العظيم فهو أمور ثلاثة: الأول: النظام: فإنه التربية المحمدية سواء أكانت في صورة العبادة أم تلقين عقيدة التوحيد، أم إرجاع الأمر إلى الله تعالى مع حسن العمل، أم الإيمان بالمساواة في عمل الدنيا والآخرة، أم إيثار في سبيل العقيدة على الحياة، وما يتعلق بها من أحوال الأهل والعشيرة، وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر منهم، وكذلك انطباع نفوسهم أحدثت فيهم قوة جديدة، لم يكن العرب يعرفونها من قبل، تلك هي قوة النظام التي رجحت بها كتيبة المؤمنين على جيش المشركين. والثاني: القوة المعنوية التي ملأ بها الإسلامُ نفوسَهم، فإنهم دون مشركي العرب، كانوا يؤمنون بالبعث ــ والجزاء ــ فهم لذلك لا يرون في الموت فناءً مطلقاً، بل يرون أن وراءه ــ مع إدراك فضل الشهادة ــ حياة أبقى وأسعد من هذه الحياة ــ والآخرة خير وأبقى ــ.

والثالث: وحدة القيادة، فقد كان المسلمون ممتازين بها، يتفانون في الإخلاص والطاعة لقائدهم، وذلك من الأمور التي ضاعفت قواهم.

تلك أهم الأسباب التي استعاض بها المؤمنون، عما كان في جيشهم من نقص العدّةِ والعَددِ... انتهى الأمر بهزيمة المشركين كما علمتَ يا أخي القارىء فانطلق المسلمون في أثرهم، وأثخنوا فيهم، لا يلتفتون إلى نهب ولا سلب كالعادة اليوم في عصرنا؛ حتى انقلبت قريشٌ فراراً مخزياً وانكساراً غير مسبوقٍ لعبّاد اللات والعزى.

كانت القتلى من قريش في هذه المعركة خمسة أضعاف أمثال(١) قتلى

(١) كلمة (أمثال) حشو. والأفضل (خمسة أضعاف قتلى الخ). المحقق.

المسلمين، وكانت أسراهم مثل قتلاهم، والمهم من هذه الوقعة هو أن قريشاً دفنت في وادي بدر سيادتها وسادتها على الجزيرة العربية. وليس المهم منها القتلى أو الأسرى، أو رجوع سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة بأعدائه مكبلين، ولكنه ﷺ رجع بالسيطرة العسكرية، وقد انتقلت من مكة إلى المدينة.

نعم رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقد أثبت أن النظام العسكري الذي أحدثه، هو نظامٌ يفوقُ ما يعلمه أهل العصر، فوضع في معركة بدرٍ، قواعد الجيش الإسلامي، وكانت هذه الكتيبة نواة له.

ومنذ بدرٍ والإسلامُ ينتشر والحمد لله، وجيوشه تسير إلى المشرق والمغرب، تطوي الممالك، وتثلُّ العروش، وتتغلبُ على العقبات بأمرين عظيمين هما: حب النظام، واحتقار الموت ــ اطلب الموت توهب لك الحياة ــ ولا يزال هذان الأمران، دعامتي النصر، ولن ترجع للمسلمين سيادتهم الأولى حتى يقيموا حياتهم وجيوشهم على الأساسين اللذين وضعهما رسول الله ﷺ ضمن وحدة شاملة للأمة الإسلامية العربية.

٢١٦ ــ الأسباب الحقيقية في انتصار المسلمين ببدر

كان الرسول ﷺ، هو القائد العام للمسلمين في معركة بدرٍ، وكان المسلمون يعملون كيدٍ واحدة تحت قيادته الحكيمة، يوجههم في الوقت الحاسم، للمحلِّ الحاسم، للقيام بعملٍ حاسمٍ، وهذا واجب القائد الكفء.

١ ــ ضبط حقيقي[1]:

وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم، مثالاً رائعاً للضبط الحقيقي المتين؛ وإذا كان الضبطُ أساس الجندية، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذي يتحلَّى بضبطٍ ممتازٍ، إذا كان الأمر كذلك، فقد كان جيش المسلمين حينذاك جيشاً ممتازاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ سامية.

---

(١) (١- ضبط حقيقي): لم يذكر المؤلف هذه العبارة. وقد أثبتناها للتنسيق. المحقق.

إن معنى الضبط فيما أرى، هو إطاعة الأوامر، وتنفيذها بحرصٍ وأمانةٍ وعن طيب خاطر.

وقد كان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرصٍ شديدٍ، وأمانةٍ رائعةٍ، وبشوقٍ وطيب[1] خاطر؛ ومن حقهم أن يفعلوا ذلك؛ لأن قائدهم محمداً ﷺ يتحلَّى بصفاتِ القائد المثالي الحقّ.

ضبط للأعصاب في الشدائد، وشجاعة نادرة في المواقف، ومساواة[2] لنفسهِ مع أصحابِه، واستشارتهم في كل عملٍ حاسمٍ

رأى ﷺ الخطر محدقاً بأصحابه قبل المعركة، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عَدداً، فسيطر على أعصابه، وتمالك نفسه، وشجَّع أصحابه على الصبر والثبات في القتال.

وعندما نشبت المعركة واشتدت، نزل ﷺ يخوضها بنفسه؛ وحسبك شهادة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: (إنا كنَّا إذا اشتدَّ الخطبُ، واحمرَّتِ الحدقُ، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه، ولقد رأيتني يومَ بدرٍ ونحنُ نلوذُ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدوِّ).

ولم يؤثر نفسه بمالٍ أو راحةٍ على أصحابه، وقد رأيتَ ــ كما مر في كتابنا هذا ــ كيف ساوَى نفسه مع أصحابه حتى في اعتقاب الإبل والمشي على الأقدام.

وشاور أصحابه حين بلغه خبرُ خروج قريشٍ؛ وسمع رأي المهاجرين والأنصار في لقاء المشركين؛ وقبل[3] مشورة أحد أصحابه (الحباب) في تبديل رضي الله عنه، وقد غوَّرَ القُلُبَ، وبنَى حوضاً على القليب الذي أتاه، ﷺ؛ واستشار المسلمين في أمر الأسرى بعد المعركة، وعمل بالرأي الذي أبداه أبو

---

(١) في الأصل (وطيبة). المحقق.

(٢) في الأصل (ومساواة) بالجر والصواب الرفع. المحقق.

(٣) في الأصل (وقبيل). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

بكر الصديق رضي الله عنه ومشايعوهُ. **تلك مزايا القائد** الحكيم المثالي في كل زمان ومكان.

ولا بدَّ للقائد من مقرٍ يسيطر منه **على المعركة**؛ فبنَى العريشَ فوق رابيةٍ مشرفةٍ على ساحة المعركة، وكان لمقرِّهِ حرسٌ **بإمرة** آمرٍ مسؤولٍ؛ كل ذلك جعل المسلمين يقاتلون كرجلٍ واحدٍ، لغاية واحدة، **بقيادة** قائدٍ واحدٍ... وهذا عامل مهمٌ من عوامل النصر في كل حربٍ.

٢ ــ تعبئة جديدة:

طبَّقَ سيدنا محمد ﷺ في مسير الاقتراب، من المدينة إلى بدرٍ، تشكيلاً لا يختلف عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء.

كانت له مقدمة، وقسم أكبر، ومؤخرة، واستفاد من دوريَّاتِ الاستطلاع، للحصول على المعلومات، وتلك هي الأساليبُ الصحيحةُ لتشكيلات مسير الاقتراب في حرب الصحراء، حتى في العصر الحاضر. وقد استعرض الرسول القائد ﷺ أصحابه قبل القتال، فعندما رآهم يتزاحمون، ويدنو بعضُهم من بعضٍ، جعلهم صفوفاً، وأخذ يعدّل صفوفه عليه الصلاة والسلام.

وبعد ذلك خطبهم حاثّاً لهم على الجهاد والثبات، وأمرهم أن يصدُّوا هجومَ العدوِّ، وهم مرابطون في مواقعهم، بتسديد النبال إلى صدور العدوّ؛ كما أمرهم ألا يحملوا إلا بأمرٍ منه .

فلما تهاوت رجالُ قريشٍ، وضعف زخمُ هجومهم، أصدر أمرَهُ، إلى المسلمين بالهجوم، ثم بالمطاردة بعد انهزام المشركين.

لقد سيطر الرسول ﷺ على الصفوف في دفاعها وهجومها ومطاردتها، حتى لم يتقدَّمْ أحدٌ للمبارزةِ إلا بأمرٍ منه، ولم يقم المسلمون بأي عملٍ إلا بأمرٍ منه عليه الصلاة والسلام.

وبذلك أمَّنَ السيطرة والاحتياط اللازم... تماماً، كما في الحرب الحديثة.

لقد طبَّقَ الرسول ﷺ في بدرٍ أسلوباً جديداً في القتال، فانتصر.

٣ ــ عقيدة راسخة:

لقد رأيت يا أخي القارىء كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول ﷺ حين استشارهم في قتال قريش؛ وقد علم المسلمون بأن قريشاً تفوقهم في العَدد والعُدد، وأن عدد قواتِ قريش ثلاثة أمثال عدد المسلمين؛ ومع ذلك اعتزموا على القتال والصمود؛ كما علموا أن قافلة قريشٍ فاتتْهم، فلم يبق هناك كسبٌ ماديٌّ يرجونه، ومع ذلك صمَّمُوا على القتال.

لقد كانت للمسلمين أهدافٌ معيَّنَةٌ، يعرفونها، و يؤمنون بها، وهي أن تتركَ الحريةُ الكاملةُ لهمُ لبثَّ دعوتهم، حتى تكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا. فما هي أهداف قريش من حربها، إلا أن تنحر الجزور وتطعم الطعام، وتشرب الخمور، وتعزف القيان، فتسمع العرب بمسيرها، فيهابونها أبداً بعدها، كما يقول زعيمهم أبو جهلٍ.

وهل نستطيع أن نسمي أبا جهل[1]، وقوله هدفاً؟ أم ذلك طيش وغرور وعصبية جاهلية؟

في هذه المعركة التقَى الآباء بالأبناء، والإخوة بالأخوة... خالفَتْ بينهم المبادىء، ففصلَتْ بينهم السيوف.

٤ ــ معنويات عالية:

شجَّعَ الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال وأثناءه، وقوَّى معنويَّاتهم حتى لا يكترثوا بتفوّق قريشٍ عليهم بالعَدد والعُدد، ولم تكن معنويات الذين مارسوا الحربَ، وعرفوها من المسلمين عاليةً فحسب، إنما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالاً، عالية جداً.

---

(١) لعل في هذا الموضع كلمة سقطت خطأ وأن الجملة (وهل نستطيع أن نسمي أبا جهل قائداً.. الخ). المحقق.

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: (إني لفي الصَّفّ يومَ بدرٍ، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنِّ، فكأني لم آمَنُ بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهلٍ؛ فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدتُ الله إن رأيتُه أن أقتله، أو أموت دونه.

وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين: فضرباه حتى قتلاهُ)، وهما ابنا عفراء، وقد استشهدا[1] هذان البطلان في بدرٍ، رضي الله عنهما[2].

فهذه معنويات الأحداث، فكيف تكون معنويات الرجال؟

إن المعنويات العالية، التي كان يتحلّى بها المسلمون في بدرٍ، كانت من أهم أسباب نصرهم في تلك المعركة الحاسمة.

وانتهت المعركة بالنصر، وخذلان عبّاد اللات والعزى، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز[3].

٢١٧ ــ دروس قيمة من غزوة بدر

تحت هذا العنوان، كتب الأستاذ محمود شيت خطاب الزعيم الركن في كتابه: (الرسول القائد) ص ٨٤ قوله:

١ ــ (الاستطلاع):

استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع في الحصول على المعلومات، وليحولوا دون مباغتتهم، وكان حصول الطرفين على المعلومات عن القوات ومواقعها جيداً ومفيداً.

---

(١) الأصح (استشهد) بدون ألف. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (الرسول القائد) ص ٨٣.

(٣) لم يذكر المؤلف كلمة (عزيز). المحقق.

وظهر لنا فائدة استنطاق الأسرى، الذي أجراه الرسول ــ مع غلامي قريشٍ قبل المعركة في معرفة عدد قريش، كما كان استنتاج أبي سفيان من فحصه روث ركائب المسلمين، اللذين استطلعا موقع بدرٍ ومعرفته هويتها رائعاً حقاً.

إن تشبُّثَ الطرفين للحصول على المعلومات، حَرَمَ الطرفين من مبدأ المباغتة، فلم يستفد أحد الطرفين من هذا المبدأ الحيويّ في هذه المعركة.

٢ ــ القيادة:

برزت مزايا الرسول ﷺ في القيادة بمعركة بدرٍ من[١] الشجاعة، وضبط الأعصاب، وعقد المؤتمرات الحربية قبل وأثناء وبعد المعركة، ومساواة أصحابه مع نفسه بكل شيء، كما طبَّق الرسول ﷺ لأول مرة شروط انتخاب المقر الملائم للمعركة وأمَّنَ حراسته.

٣ ــ الضبط والمعنويات والعقيدة:

ظهر بوضوح أثرُ الضبط المتين، والمعنويات العالية، والعقيدة الراسخة في انتصار المسلمين على قريش، وستبقى هذه المزايا حيويةً لكل انتصار في كل حرب.

٤ ــ القضايا التعبوية:

أ ــ في مسير الاقتراب: كانت ترتيبات المسلمين في مسير الاقتراب ملائمةً جداً، مقدمة وقسم أكبر ومؤخرة، وراية لكلٍّ من المهاجرين والأنصار، وراية عامة للقوات كلها؛ كما كانت دوريات الاستطلاع أمام الرتل[٢] تحولُ دون مباغتته، وتزويده بالمعلومات عن قريش.

إن ترتيبات المسلمين في مسير الاقتراب تشابه تماماً ترتيبات القوات النظامية الحديثة في مسير الاقتراب في حرب الصحراء.

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (من) وقد أثبتناها ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) (الرَّتل): حسن تناسق الشيء. لسان العرب. المحقق.

ب ــ في القتال: استخدم المسلمون لأول مرة ــ أسلوب الصف ــ في قتالهم ضدّ قريش بينما جمدت قريش على أسلوب الكرّ والفرّ، وبذلك استطاع الرسولُ ﷺ السيطرة على قواته، والاحتفاظ باحتياط للطوارىء.

للطوارىء.

لقد كان أسلوب الصف في القتال أسلوباً جديداً، بينما كان أسلوب الكر والفر أسلوباً بالياً.

جـ ــ كلمة التعارف: كانت كلمة التعارف في القتال بين المسلمين: أحد. أحد، وبذلك استطاعوا أن يتعارفوا في المعركة.

إن ظروف المعركة ليست ظروفاً اعتيادية، ومن الضروري أن يكون هناك أسلوب واضح للتعارف بين المتقاتلين، خاصة وأن المسلمين والمشركين حينذاك كانوا يتشابهون في كل شيء، في الأشكال والقيافة وفي التسلح والتنظيم، مما يزيد أهمية كلمة التعارف، ويجعل لها قيمة أعظم مما لو كان الطرفان المتحاربان يختلفان في أشكالهم وقيافتهم وتسليحهم وتنظيمهم.

٥ ــ القضايا الإدارية:

أ ــ الأرزاق: كان المشركون ينحرون بين تسعة إبلٍ وعشرة يومياً، لتأمين الطعام الحار للمقاتلين، وكانت هذه الإبل من سراة قريش، أما المسلمون فقد كانوا يكتفون غالباً بالتمر والسويق، لأن حالتهم الاقتصادية كانت متردية حينذاك.

ب ــ الماء: بنى المسلمون حوضاً من الماء في بدرٍ، وملأوه بالماء، واستفادوا منه يوم القتال، أما بقية مياه بدر فغوّروها، لئلا يستفيد منها المشركون.

أما المشركون فكانوا محرومين من الماء يوم القتال، مما جعل شجعانهم يحاولون اقتحام حوض المسلمين، فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً.

لقد كان لنقص الماء عند المشركين يوم القتال أثرٌ كبيرٌ في اندحارهم.

جـ ــ الغنائم: جمع الرسول ﷺ غنائم المعركة، وقسمها بالتساوي بين المسلمين من أهل بدرٍ، ومن عاونهم على إحراز النصر؛ جعل للفارس سهمين يستعينُ بالسهم الزائد على إعاشة فرسه، وإعدادها للحرب، وجعل للراجل سهماً واحداً، وجعل حصة لورثة مَن استشهد ببدر، وجعل حصة لمن تخلَّف بالمدينة، فلم يشهد بدراً، وإنما كان قائماً بعمل للمسلمين، ولمن حرَّضَهُ حين الخروج إلى بدرٍ، وتخلَّف لعذرٍ قبله الرسول ﷺ.

إن النصر في الحرب، لا يحرزهُ المقاتلون فقط، بل يتعاون على إحرازهِ المقاتلون في الخطوط الأمامية، والعاملون في الخلف، لتهيئة أسباب النصر للمقاتلين؛ لذلك لم ينسَ الرسول العظيم العاملين في الخلف حين قسَّم الغنائم بين الناس.

د ــ الأسرى: أولاً ــ أمر الرسول ﷺ بقتل أسيرين لشدة عداوتهما للمسلمين ــ وقد مر في هذا الكتاب ذكرهما ــ إذ اعتبرهما النبي ﷺ مجرمين، لا أسيرين.

لقد كانا عنيفين بعداوتهما للمسلمين، حريصين على التنكيل بهم، شديدين في إيذاء المستضعفينَ منهم، وكانا من ألدّ الخصوم للدعوة الإسلامية.

ثانياً ــ أما الأسرى الباقون وعددهم ثمانية وستون، فقد وزعهم الرسول ﷺ على صحابته قائلاً: استوصوا بالأسارى خيراً... ثم فادى أغنياء الأسرى بالمال، فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف درهم.

أما فقراء الأسرى، فأطلق سراح بعضهم دون مقابل، كما كلَّفَ المتعلمين منهم، بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، ثم أطلق سراحهم بعد تعليم هؤلاء الأطفال.

هـ ــ القتلى والجرحى: حفر المسلمون قليباً، دفنوا فيه قتلى المشركين، وهذا ما يطابق تعاليم الحرب الحديثة في وجوب دفن قتلى الأعداء.

كما اعتنَى المسلمون بجرحَى المشركين، فضمَّدُوا جراحاتهم أسوةً بجرحَى المسلمين.

و ــ التهذيب: استفاد المسلمون من الأسرى المتعلمين لتهذيب أطفالهم، فكان هؤلاء الأطفال، النواة الأولى لكتّاب الوحي ولحملة الثقافة الإسلامية فيما بعد. أ هـ.

٢١٨ ــ أهل بدر فرسان المعركة نواة الجيوش الإسلامية

هؤلاء البدريون الذين شهدوا معركة بدرٍ الكبرى هم نواة الجيوش الإسلامية بعد، قال فيهم فخر الكائنات وسيد السادات سيدنا محمدٌ ﷺ في دعائه أثناء المعركة: [اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد] فعند ذكرهم تتنزل الرحمات (١)، وفي ذكر أسمائهم تحصل البركات وهم:

أ ــ المهاجرون من بني هاشم:

١ ــ محمد رسول الله ﷺ بطل الأبطال وقائد السادات.

٢ ــ حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، وعم رسول الله ﷺ.

٣ ــ علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره.

٤ ــ زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ.

٥ ــ أبو مرثد الغنوي حليف حمزة.

٦ ــ مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة.

٧ ــ أنَسَة مولى رسول الله ﷺ (حبشي).

٨ ــ أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ (فارسي).

٩ ــ عبيدة بن الحارث عبد المطلب. (استشهد).

١٠ ــ الطُّفَيل بن الحارث بن عبد المطلب.

---

(١) لا شك أن منزلة البدريين عند الله عظيمة لكننا لا نوافق المؤلف على قوله (عند ذكرهم تتنزل الرحمات) وإنما تتنزل الرحمات بذكر الله رب العالمين. المحقق.

١١ ــ الحصين بن الحارث بن عبد المطلب.
١٢ ــ مِسْطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب.

ب ــ من بني عبد شمس بن عبد مناف:

١٣ ــ عثمان بن عفان صهر النبي ﷺ.
١٤ ــ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.
١٥ ــ سالم مولى أبي حذيفة.
١٦ ــ صُبَيْح مولى أبي العاص بن أمية.
١٧ ــ عبد الله بن جحش.
١٨ ــ سنان بن مِحْصِنٍ.
١٩ ــ عُكاشة بن محصن.
٢٠ ــ أبو سنان بن محصن.
٢١ ــ سنان بن أبي سنان.
٢٢ ــ شجاعُ بن وَهْبٍ.
٢٣ ــ عُقْبَة بن وهبٍ.
٢٤ ــ يزيد بن رُقَيْش.
٢٥ ــ مُحرز بن نضلة.
٢٦ ــ ربيعة بن أكثم.
٢٧ ــ ثقف من بني سليم.
٢٨ ــ مالك من بني سليم.
٢٩ ــ مُدلج من بني سليم.
٣٠ ــ أبو مَخْشي سويد بن مخشي الطائي.

ج ــ من بني نوفل بن عبد مناف بن قصيّ:

٣١ ــ عتبة بن غزوان.
٣٢ ــ خَبَّاب مولى عتبة بن غزوان.

د ــ من بني أسد عبد العزّى بن قصي:

٣٣ ــ الزبير بن العوام.

٣٤ ــ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي (حليف).

٣٥ ــ سعد الكلبي مولى حاطب.

هـ ــ من بني عبد الدار بن قصي بن كلاب:

٣٦ ــ مُصْعَبُ بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

٣٧ ــ سُوَيْبِطُ بن سعد بن حَرْملة.

و ــ من بني زهرةَ بن كلاب بن مرة[1]:

٣٨ ــ عبد الرحمن بن عوف.

٣٩ ــ سعد بن أبي وقاص.

٤٠ ــ عمير بن أبي وقاص، وعمره (١٦) سنة. (استشهد)[2].

٤١ ــ المقداد بن عمرو (حليف).

٤٢ ــ عبد الله بن مسعود (حليف).

٤٣ ــ مسعود بن ربيعة (حليف).

٤٤ ــ ذو الشمالين عمير بن عمرو (حليف). (استشهد)[2].

٤٥ ــ خبَّاب بن الأرت التميمي (حليف).

ز ــ من بني تيم بن مرة:

٤٦ ــ أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٤٧ ــ طلحة بن عبيد الله.

٤٨ ــ بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق.

٤٩ ــ عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر الصديق.

٥٠ ــ صهيب بن سنان بن النمر بن قاسط (حليف).

---

(١) في الأصل (مرّ). والصواب (مرة). المحقق.

(٢) لم يذكر المؤلف كلمة (استشهد) أمام كل شهيد اكتفاء بوضع خط أحمر تحته. المحقق.

ح ــ من بني مخزوم:

٥١ ــ أبو سلمة بن عبد الأسد.

٥٢ ــ شمّاس واسمه عثمان بن عثمان الشريد.

٥٣ ــ الأرقم بن أبي الأرقم.

٥٤ ــ عمّار بن ياسر العنسي مولى فهر.

٥٥ ــ مُعَتِّب بن عوف الخزاعي مولى لهم.

ط ــ من بني عدي بن كعب:

٥٦ ــ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٥٧ ــ زيد بن الخطاب.

٥٨ ــ عمرو بن سُراقه.

٥٩ ــ عبد الله بن سراقه.

٦٠ ــ سعيد بن زيد بن عمرو.

٦١ ــ مِهْجَعُ مولى عمر بن الخطاب. (استشهد)[٢].

٦٢ ــ واقد بن عبدالله التميمي (حليف).

٦٣ ــ خَوْلى بن أبي خولى العجلي (حليف).

٦٤ ــ مالك بن أبي خولى العجلي (حليف).

٦٥ ــ عامر بن ربيعة العنزي (حليف).

٦٦ ــ عامر بن البُكير (حليف).

٦٧ ــ عاقل بن البكير (حليف). (استشهد).

٦٨ ــ خالد بن البكير (حليف).

٦٩ ــ إياس بن البكير (حليف).

ي ــ من بني جمح:

٧٠ ــ عثمان بن مظعون.

٧١ ــ قُدامة بن مظعون.

٧٢ ــ عبدالله بن مظعون.
٧٣ ــ السائب بن عثمان بن مظعون.
٧٤ ــ مَعْمَر بن الحارث.

ك ــ من بني سَهْم:

٧٥ ــ حُنَيْسُ بن حُذافة.

ل ــ من بني عامر بن لؤي بن غالب بن فهر:

٧٦ ــ أبو سَبْرَةَ بن أبي رَهْم.
٧٧ ــ عبدالله بن مَخْرَمَة.
٧٨ ــ عبدالله بن سُهَيل بن عمرو.
٧٩ ــ وَهْبُ بن سعد بن أبي سَرْح.
٨٠ ــ حاطب بن عمرو.
٨١ ــ عمير بن عوف مولى سهيل بن عمرو.
٨٢ ــ سعد بن خولة (حليف).

م ــ من بني الحارث بن فهر:

٨٣ ــ أبو عبيدة عامر بن الجراح.
٨٤ ــ عمرو بن الحارث.
٨٥ ــ سهيل بن وهب بن ربيعة ــ ابن بيضاء ــ.
٨٦ ــ صفوان بن وهب ــ ابن بيضاء ــ. (استشهد).
٨٧ ــ عمر بن أبي سرح بن ربيعة.

١ [1] ــ (أنصار الله ورسوله من الأوس):

---

(١) لم يذكر في الأصل رقم (١-). وقد أثبتناه، لأن المؤلف ذكر رقم (٢) عند ذكر (الخزرج) كما سيأتي. المحقق.

أ ــ من بني حارثة، ثم من بني عمرو بن مالك بن الأوس، ثم من بني عبد الأشهل من جشم:

٨٨ ــ سعد بن مُعاذ رضي الله عنه.
٨٩ ــ عمرو بن معاذ.
٩٠ ــ الحارث بن الأوس.
٩١ ــ الحارث بن أنس.
٩٢ ــ سعد بن زيد بن مالك.
٩٣ ــ سَلَمة بن سلامة بن وَقْش.
٩٤ ــ عبَّاد بن وقش.
٩٥ ــ سلمة بن ثابت بن وقش.
٩٦ ــ رافع بن يزيد بن كُرْز.
٩٧ ــ الحارث بن خزمة بن عدي (حليف).
٩٨ ــ محمد بن مسلمه الخزرجي (حليف).
٩٩ ــ سلمة بن أسلم بن حُريش (حليف).
١٠٠ ــ أبو الهيثم بن التيهان (حليف).
١٠١ ــ عبيدة بن التيهان (حليف).
١٠٢ ــ عبدالله بن سهل (حليف).

ب ــ من بني ظفر، واسمه كعب بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن أوس:

١٠٣ ــ قتادة بن النعمان بن زيد.
١٠٤ ــ عبيد بن أوس.
١٠٥ ــ نصر بن الحارث بن عَبْدٍ.
١٠٦ ــ مُعَتِّب بنُ عُبَيْدٍ.
١٠٧ ــ عبدالله بن طارق البلوي (حليف).

ج ــ من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس:

١٠٨ ــ مسعود بن سعد.

١٠٩ ــ أبو عبس جبر بن عمرو.

١١٠ ــ أبو بردة بن نيار واسمه هانىء البلوي (حليف).

د ــ من بني عوف بن مالك بن الأوس، ثم من بني ضبيعة بن زيد بن الأوس:

١١١ ــ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.

١١٢ ــ مُعَتِّب بن قُشير بن مُلَيْل.

١١٣ ــ أبو مُلَيل بن الأزعر بن زيد.

١١٤ ــ عُمير بن مَعْبَد بن الأزعر.

١١٥ ــ سهل بن حُنيف بن واهب.

هـ ــ من بني أميّة بن زيد بن عوف:

١١٦ ــ أبو لُبابة بشير بن عبد المنذر.

١١٧ ــ مُبَشّر بن عبد المنذر. (استشهد).

١١٨ ــ رِفاعة بن عبد المنذر.

١١٩ ــ سعد بن عبيد بن النعمان.

١٢٠ ــ عُوَيم بن سعدة بن عائشٍ.

١٢١ ــ رافع بن عَنْجَدَة، وهي أمه.

١٢٢ ــ عبيدة بن أبي عبيد.

١٢٣ ــ ثعلبة بن حاطب.

و ــ من بني عبيد بن زيد بن مالك بن عوف:

١٢٤ ــ أُنَيْس بن قتادة بن ربيعة.

١٢٥ ــ مَعْنُ بن عديّ البلوي (حليف).

١٢٦ ــ ثابت بن أحزم البلوي (حليف).
١٢٧ ــ زيد بن أسلم بن ثعلبة البلوي (حليف).
١٢٨ ــ عاصم بن عدي البلوي (حليف)
١٢٩ ــ ربعي بن رافع البلوي (حليف).

ز ــ من بني معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف:

١٣٠ ــ جَبر بن عَتيك.
١٣١ ــ مالك بن نُميلَة المزني (حليف).
١٣٢ ــ النعمان بن عَصَر البلوي (حليف).

ح ــ من بني ثعلبة بن عمر بن عوف بن مالك:

١٣٣ ــ عبدالله بن جُبَير.
١٣٤ ــ عاصم بن قيس بن ثابت بن النعمان.
١٣٥ ــ أبو ضَيّاح بن ثابت بن النعمان.
١٣٦ ــ أبو حيَّة بن ثابت بن النعمان.
١٣٧ ــ سالم بن عمير بن ثابت.
١٣٨ ــ الحارث بن النعمان بن أمية.
١٣٩ ــ خوَّات بن جبير بن النعمان.

ط ــ من بني جَحْجَبى بن كُلفة بن عوف بن مالك:

١٤٠ ــ المنذر بن محمد بن عقبة.
١٤١ ــ أبو عَقيل بن عبدالله بن ثعلبة البلوي (حليف).

ي ــ من بني امرىء القيس بن مالك بن الأوس، ثم من بني غُنْم بن السَّلِم بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس:

١٤٢ ــ سعد بن خيثمة. (استشهد).
١٤٣ ــ منذر بن قُدامة بن عرفجة.

١٤٤ ــ الحارث بن عرفجة.

١٤٥ ــ تميم مولى سعد بن خيثمة.

٢ ــ الخزرج:

أ ــ من الخزرج بن حارثة، ثم من بني الحارث، ثم من بني امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج بن حارثة:

١٤٦ ــ خارجة بن زيد بن أبي زهير.

١٤٧ ــ سعد بن الربيع بن عمرو.

١٤٨ ــ عبدالله بن رواحة

١٤٩ ــ خلاّد بن سُوَيد بن ثعلبة.

ب ــ من بني زيد بن مالك أخي امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة:

١٥٠ ــ بشير بن سعد بن ثعلبة.

١٥١ ــ سماك بن سعد بن ثعلبة.

ج ــ من بني عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج:

١٥٢ ــ سُبَيع بن قيس بن عيشة.

١٥٣ ــ عبّاد بن قيس بن عيشة.

١٥٤ ــ عبدالله بن عَبْسٍ.

د ــ من بني أحمد بن حارثة بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج:

١٥٥ ــ يزيد بن الحارث بن قيس (يقال له فُسْحُم). (استشهد).

هـ ــ من بني جُشَم وزيد ابني الحارث بن الخزرج، وهما التوأمانِ:

١٥٦ ــ خُبَيْب بن إساف بن عَتَبَة.

١٥٧ ــ عبدالله بن زيد بن ثعلبة.
١٥٨ ــ حُرَيْث بن زيد بن ثعلبة.
١٥٩ ــ سفيان بن بشر بن عمرو.

و ــ من بني جُدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج:

١٦٠ ــ تميم بن بعار بن قيس.
١٦١ ــ عبدالله بن عمير.
١٦٢ ــ زيد بن المَرِنِ بن قيس.
١٦٣ ــ عبدالله بن عُرْفطة.

ز ــ من بني الأبجر، وهم بنو جُدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج:

١٦٤ ــ عبدالله بن ربيع بن قيس.

ح ــ من بني عوف بن الخزرج، ثم من بني عُبَيد بن مالك بن سالم بن غَنْم بن عوف بن الخزرج:

١٦٥ ــ عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ بن سلول.
١٦٦ ــ أوس بن خَوْلَى بن عبدالله.

ط ــ من بني جَزْء بن عدي بن مالك بن سالم وبني ثعلبة بن مالك:

١٦٧ ــ زيد بن وَديعة بن عمرو.
١٦٨ ــ عُقبة بن وهب بن كلدة (حليف).
١٦٩ ــ رِفاعة بن عمرو بن عمرو بن زيد.
١٧٠ ــ عامر بن سَلَمة (حليف من اليمن).
١٧١ ــ أبو خَيثمة معبد بن عبّاد بن قُشَيْر.
١٧٢ ــ عامر بن البُكَيْر (حليف).

ي ــ من بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ثم من بني العجلان بن زيد بن غنْم بن سالم:

١٧٣ ــ نوفل بن عبدالله بن نَضلة بن مالك بن العجلان.

١٧٤ ــ عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان.

ك ــ من بني أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنْم بن سالم بن عوف بن الخزرج:

١٧٥ ــ عبادة بن الصامت.

١٧٦ ــ أوس بن الصامت.

ل ــ من بني دَعْد بن فِهْر بن ثعلبة بن غنْم:

١٧٧ ــ النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد.

م ــ من بني قَرْبوس بن غنْم بن أمية بن لَوْذان بن سالم:

١٧٨ ــ ثابت بن هزال بن عمرو بن قربوس.

ن ــ من بني مِرْضَخه وعمرو ابني غنْم بن أمية بن لَوْذان:

١٧٩ ــ مالك بن الدُّخْشُم بن مِرْضخة.

١٨٠ ــ الربيع بن إياس بن عمرو بن غنْم.

١٨١ ــ ورقة بن إياس بن غنم.

١٨٢ ــ عمرو بن إياس (حليف من اليمن).

١٨٣ ــ المجذَّر بن زياد بن عمرو البلوَي (حليف).

١٨٤ ــ عبادة بن الخَشْخَاش (حليف).

١٨٥ ــ نحَّاب بن ثعلبة بن خَزَمَة بن أصرم (حليف).

١٨٦ ــ عبدالله بن ثعلبة بن خزَمة بن أصرم (حليف).

١٨٧ ــ عُتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية البَهْراني (حليف).

س ــ من بني كعب بن الخزرج، ثم من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، ثم من بني ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة:

١٨٨ ــ أبو دجانة سمّاك بن خرشة.

١٨٩ ــ المنذر بن عمرو بن خُنيس.

ع ــ من بني عمرو بن الخزرج بن ساعدة:

١٩٠ ــ أبو أسيد مالك بن ربيعة بن البَدَن.

١٩١ ــ مالك بن مسعود بن البدن.

ف ــ من بني طريف بن الخزرج بن ساعدة:

١٩٢ ــ عبد ربّه بن حقّ بن أوس.

١٩٣ ــ كعب بن حمار الجهني (حليف).

١٩٤ ــ ضَمْرَة بن عمرو (حليف).

١٩٥ ــ زياد بن عمرو (حليف).

١٩٦ ــ بَسْبَس بن عمرو (حليف).

١٩٧ ــ عبدالله بن عامر البَلويّ (حليف).

ص ــ من بني جُشَم بن الخزرج، ثم من بني سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن سارية بن يزيد بن جشم:

١٩٨ ــ خراش بن الصمة بن عمرو بن الجموح.

١٩٩ ــ الحُبَاب بن المنذر بن الجموح.

٢٠٠ ــ عمير بن الحُمام بن الجموح. (استشهد).

٢٠١ ــ تميم مولى خراش بن الصمة.

٢٠٢ ــ عبدالله بن عمرو بن حرام.

٢٠٣ ــ معاذ بن عمرو بن الجموح.

٢٠٤ ــ مُعَوذ بن عمرو بن الجموح.

٢٠٥ ــ خلاّد بن عمرو بن الجموح.
٢٠٦ ــ عقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حَرام.
٢٠٧ ــ حبيب بن أسود (مولى لهم).
٢٠٨ ــ ثابت بن الجذْع.
٢٠٩ ــ عمير بن الحارث بن لُبْدَة.
٢١٠ ــ بشر بن البراء بن معرور.
٢١١ ــ الطفيل بن النعمان بن خنساء.
٢١٢ ــ سنان بن صيفي بن صخر بن خنساء.
٢١٣ ــ عبدالله بن الجَدّ بن قيس بن صخر بن خنساء.
٢١٤ ــ عتبة بن عبدالله بن صخر بن خنساء.
٢١٥ ــ جبّار بن أمية بن صخر بن خنساء.
٢١٦ ــ خارجة بن حُمَيْر الأشجعي (حليف).
٢١٧ ــ عبدالله بن حمير الأشجعي (حليف).
٢١٨ ــ يزيد بن المنذر بن سَرْح بن خُناس.
٢١٩ ــ معقِل بن المنذر بن سَرْح.
٢٢٠ ــ عبدالله بن النعمان بن بَلْدُمة.
٢٢١ ــ الضحاك بن حارثة بن زيد.
٢٢٢ ــ سواد بن رَزْن بن زيد.
٢٢٣ ــ معبد بن قيس بن صخر بن حَرام.
٢٢٤ ــ عبدالله بن قيس بن صخر بن حَرام.
٢٢٥ ــ عبدالله بن عبد مناف بن النعمان بن سنان.
٢٢٦ ــ جابر بن عبدالله بن رئاب.
٢٢٧ ــ خُلَيْدَة بن قيس بن النعمان.
٢٢٨ ــ النعمان بن يسار (مولى لهم).
٢٢٩ ــ أبو المنذر يزيد بن عامر بن حَديدة.
٢٣٠ ــ قُطبة بن عامر بن حَديدة.

٢٣١ ــ سُليم بن عمرو بن حديدة.

٢٣٢ ــ عنترة مولى قُطبة بن عامر بن حديدة وهو من بني سُليم ثم من بني ذكوان.

٢٣٣ ــ عَبْس بن عامر بن عَدي.

٢٣٤ ــ أبو اليسرِ كعب بن عمرو بن عَبَّاد.

٢٣٥ ــ سهل بن قيس بن أبي كعب بن القَيْنِ.

٢٣٦ ــ عمرو بن طَلْق بن زيد بن أمية بن سِنان.

ق ــ من بني أديّ بن سعد أخي سَلِمَة بن سعد:

٢٣٧ ــ معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ.

ر ــ من بني زُرَيق بن حارثة بن غَضْب بن جُشم بن الخزرج:

٢٣٨ ــ قيس بن مِحْصَن بن خالد.

٢٣٩ ــ أبو خالد الحارث بن قيس بن خالد.

٢٤٠ ــ جُبَيْر بن إياس بن خالد.

٢٤١ ــ أبو عبادة سعد بن عثمان بن خَلْدة.

٢٤٢ ــ عُقبة بن عثمان بن خَلدة.

٢٤٣ ــ عُبادة بن قيس بن عامر بن خالد.

٢٤٤ ــ أسعد ين يزيد بن الفاكه.

٢٤٥ ــ الفاكه بن بِشْر بن الفاكه.

٢٤٦ ــ ذكوان بن عبد قيس بن خَلده.

٢٤٧ ــ مُعاذ بن ماعِص بن قيس بن خَلدة.

٢٤٨ ــ عائذ بن ماعِص بن قيس بن خَلدة.

٢٤٩ ــ مسعود بن قيس بن خَلدة.

٢٥٠ ــ رفاعة بن رافع بن العجْلان.

٢٥١ ــ خَلاّد بن رافع بن العجلان.

٢٥٢ ــ عُبَيْد بن يزيد بن عامر بن العجلان.
٢٥٣ ــ زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سِنان.
٢٥٤ ــ خالد بن قيس بن العجلان.
٢٥٥ ــ رُجَيْلَة بن ثعلبة بن خالد.
٢٥٦ ــ عطية بن نويرة بن عامر.
٢٥٧ ــ خليفة بن عديّ بن عمرو.
٢٥٨ ــ رافع بن المعلّى بن لوذان. (استشهد).

ش ــ من بني عمرو بن الخزرج بن النجار:

٢٥٩ ــ أبو أيوب بن خالد بن زيد الأنصاري.
٢٦٠ ــ ثابت بن خالد بن النعمان.
٢٦١ ــ عُمارة بن حَزْم بن زيد.
٢٦٢ ــ سُراقة بن كعب بن عبد العزّى.
٢٦٣ ــ سهيل بن رافع بن أبي عمرو.
٢٦٤ ــ عدي بن أبي الزغباء الجهني (حليف).
٢٦٥ ــ مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد.
٢٦٦ ــ أبو خزيمة بن أوس بن زيد.
٢٦٧ ــ رافع بن الحارث بن سواد بن زيد.

ت ــ من بني سواد بن مالك بن غَنْم:

٢٦٨ ــ عوف بن الحارث بن رِفاعة. بنو عفراء (استشهد).
٢٦٩ ــ معوّذ بن الحارث بن رِفاعة. بنو عفراء (استشهد).
٢٧٠ ــ معاذ بن الحارث بن رفاعة. بنو عفراء.

٢٧١ ــ النعمان بن عمرو بن رفاعة.
٢٧٢ ــ عبد الله بن قيس بن خالد بن خَلدة.

٢٧٣ ــ عصمة الأشجعي (حليف).
٢٧٤ ــ وديعة بن عمرو الجهني (حليف).
٢٧٥ ــ ثابت بن عمرو بن زيد بن عدي.
٢٧٦ ــ ثعلبة بن عمرو بن مِحْصَن.
٢٧٧ ــ سهل بن عتيك بن النعمانِ.
٢٧٨ ــ الحارث بن الصمه بن عمرو بن عتيك.

ث ــ من بني معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار:

٢٧٩ ــ أبيُّ بن كعب بن قيس.
٢٨٠ ــ أنس بن معاذ بن أنس بن قيس.

خ ــ من بني عديّ بن عمرو بن مالك بن النجار:

٢٨١ ــ أوس بن ثابت بن المنذر بن حَرام.
٢٨٢ ــ أبو شيخ بن أبيّ بن ثابت بن المنذر بن حَرام.
٢٨٣ ــ أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حرام.
٢٨٤ ــ أبو شيخ أبَي بن ثابت أخو حسان.

ذ ــ من بني عديّ بن النجار:

٢٨٥ ــ حارثة بن سُراقة بن الحارث. (استشهد).
٢٨٦ ــ عمرو بن ثعلبة بن وَهْب بن عدي.
٢٨٧ ــ سَليط بن قيس بن عمرو بن عَتيك.
٢٨٨ ــ أبو سَليط أُسَيْرة بن عمرو وهو أبو خارجة.
٢٨٩ ــ ثابت بن خنساء بن عمرو بن مالك.
٢٩٠ ــ عامر بن أمية بن زيد بن الحسحاس.
٢٩١ ــ محرِز بن عامر بن مالك.
٢٩٢ ــ سواد بن غزيَّة بن أهيب البلَوِي (حليف).
٢٩٣ ــ أبو زيد قيس بن سَكَن.

٢٩٤ ــ أبو الأعور بن الحارث بن ظالم.
٢٩٥ ــ سُليم بن مِلْحان.
٢٩٦ ــ حَرام بن ملحان وهو مالك بن ـالد.

ض ــ من بني مازن بن النجار:

٢٩٧ ــ قيس بن أبي صعصعة.
٢٩٨ ــ عبدالله بن كعب بن[1] عمرو.
٢٩٩ ــ عصمَتْ الأسدي (حليف).
٣٠٠ ــ أبو داود عُمير بن عامر بن مالك.
٣٠١ ــ سراقة بن عمرو بن عطيّة.
٣٠٢ ــ قيس بن مخلّد بن ثعلبة بن صخر.

ظ ــ من بني دينار بن النجار:

٣٠٣ ــ النعمان بن عبد عمرو بن مسعود.
٣٠٤ ــ الضحّاك بن عبد عمرو.
٣٠٥ ــ سُليم بن الحارث بن ثعلبة.
٣٠٦ ــ جابر بن خالد بن مسعود.
٣٠٧ ــ سعد بن سُهيل بن عبد الأشهل بن دينار.

ع ــ من بني قيس بن مالك بن كعب بن حارثة بن دينار بن النجار:

٣٠٨ ــ كعب بن زيد بن قيس.
٣٠٩ ــ بُجَيْر بن أبي بجير العبسي (حليف).

غ ــ ذكر فيمن شهد بدراً:

٣١٠ ــ عتبان بن مالك بن عمرو العجلان بن زيد بن غنْم من الخزرج.

---

(١) في الأصل (كعب عمرو). المحقق.

٣١١ ــ عصمة بن الحصين بن وَبَرَة ابن أخي عتبان من الخزرج.
٣١٢ ــ هلال بن المعلّى الخزرجي.
٣١٣ ــ صالح بن شُقْران غلام رسول الله ﷺ.

٢١٩ ــ ملاحظات ضرورية

الأولى: كان البدريون (٣١٣) رجلاً، شهد المعركة فعلاً (٣٠٥) رجال فقط، وثمانية قاموا بأعمالٍ، فضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وأجورهم وهم:

١ ــ عثمان بن عفان، خلفه رسول الله ﷺ على تمريض زوجته رقية بنت الرسول ﷺ وكانت مريضة فأقام عليها حتى ماتت.
٢ ــ طلحة بن عبيد الله.
٣ ــ سعيد بن زيد.
بعثهما يتحسسان [١] خبر العير.
٤ ــ أبو لبابة بن عبد المنذر، خلّفه على أهل المدينة.
٥ ــ عاصم بن عدي العجلاني، خلّفه على أهل العالية.
٦ ــ الحارث بن حاطب: ردّه من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم.
٧ ــ الحارث بن الصمة كُسر بالروحاء.
٨ ــ خوات بن جبير، كسر أيضاً.

٢٢٠ ــ زواج فاطمة الزهراء لعلي [٢] بن أبي طالب رضي الله عنه في السنة الثانية للهجرة

فاطمة الزهراء هي بنت رسول الله ﷺ، وهي سيدة نساء العالمين، ما عدا

(١) في الأصل (يتجسسان) بالجيم. المحقق.
(٢) الأفضل (يعلي) أو (من علي). المحقق.

مريم ابنة عمران عليها السلام،؛ وأم فاطمة هي خديجة بنت خويلد سيدة أهل الجنة ونساء العالمين وكانت أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ.

لقد زوَّجَ النبيُّ ﷺ فاطمة من عليٍّ رضي الله عنه، وقد خطبها أبو بكر وعمر فأبى عليهما، فقال عمر: أنت لها يا علي، فقال علي ما لي من شيء إلا درعي أرهنها؛ فزوَّجه رسول الله ﷺ فاطمة، فلما بلغ فاطمة بكَتْ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: ما لك تبكينَ يا فاطمة؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأولهم سلماً.

وعن سيدنا عليّ رضي الله عنه قال: خطبتُ فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة خُطبتْ إلى رسول الله ﷺ؟ قلتُ: لا، قالت: فقد خَطَبْتَ[1] فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك؟ قلتُ: وهل عندي شيء أتزوَّجُ به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوَّجَكَ، فوالله ما زالت ترجيني، حتى دخلتُ على رسول الله ﷺ، وكانت لرسول الله ﷺ جلالته وهيبته، فلما قعدتُ بين يديه أفحمتُ فوالله ما أستطيع أن أتكلم؛ فقال ﷺ: ما جاء بك؟ ألكَ حاجة؟ فسكتُّ، فقال: لعلك جئت تخطبُ فاطمة؟ قلت: نعم، قال: وهل عندك من شيء تستحلّها به؟ فقلت: لا والله! يا رسول الله! فقال: ما فعلت بالدرع التي سلّحتكها؟فقلتُ عندي، والذي نفس عليّ بيده! إنها لحُطمِيَّة[2]، ما ثمنها أربعمائة درهم. قال: قد زوجتك، فابعث بها، فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ لعلي ليلة البناء بفاطمة: لا تحدثنَّ شيئاً حتى تلقاني، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه، ثم أفرغه على عليٍّ وقال: «اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما». قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، أن رسول الله ﷺ، كان يغار لبناته غيرة شديدة، كان لا ينكح بناته على ضرَّة.

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول

---

(١) في كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي تحقيق الشيخ نايف العباس ومحمد علي دولة جـ ٢ ص ٦٦٦: (فقد خُطبت) بالبناء للمجهول. المحقق.

(٢) حطمية: دروع نسبت إلى بطن من عبد قيس يقال لهم حطمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع.

على المنبر: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني، في أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد علي بن أبي طالب أن يطلّق ابنتي، و ينكح ابنتهم، فإنها بضعة مني، يريبني ما رابها، و يؤذيني ما آذاها.

أمر رسول الله ﷺ أن يجهزوا فاطمة، فَجُعِلَ لها سريرٌ مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف؛ وأرسل رسول الله ﷺ أسماء بنت عميس، فهيأت[1] البيت، فصلّى العشاء، وأرسل فاطمة رضي الله عنها، فجاءت مع أم أيمن (بركة الحبشية) مولاته ﷺ حتى قعدت في جانت البيت، وعليٌّ رضي الله عنه في جانت آخر، ثم جاء رسولُ الله ﷺ بعد ما صلّى العشاء الآخرة فقال: أها هنا أخي؟ قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك؟ قال: نعم، أي هو كأخي في المنزلة والمؤاخاة فلا يمتنع عليَّ تزويجي إياه بنتي؛ ودخل ﷺ وقال لفاطمة: ائتيني بماء، فقامت تعثر في ثوبها من الحياء إلى قعب في البيت، فأتت فيه بماء فأخذه ومجَّ فيه ــ أي وضعه في فمه ورمى به في القعب ــ إناء ضخم كالقصعة ــ ثم قال لها: تقدمي فتقدمت، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال: «اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» ثم قال: أدبري فأدبرت، فصب بين كتفيها، ثم فعل مثل ذلك بعليّ، ثم قال له: ادخل بأهلك باسم الله والبركة.

وكان مهرها رضي الله عنها (٤٠٠)[2] درهم فضة، وخرَّ عليٌّ رضي الله عنه ساجداً لله شكراً على ما أولاه.

وكانت وليمة سيدنا علي رضي الله عنه آصعاً من شعير وتمر وحيس ــ أي تمر وسمن ونحن نسميها (حنينية) ــ وقيل: أولم بكبش، وكان فرشهما ليلة عرسهما جلد كبشٍ.

---

(١) في الأصل (فهيأ) والصواب (فهيأت) لأن الفعل هنا واجب التأنيث. المحقق.
(٢) لقد مرّ أن مهرها كان درعاً قيمته أربعمائة درهم. المحقق.

وتلقب فاطمة رضي الله عنها بالبتول لانقطاعها عن الدنيا، وقد ولدت لسيدنا علي رضي الله عنه، الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم[1]، وكانت ولادتُها بمكة، وقريش تبني الكعبة، وزواجها بالمدينة في شهر رجب وبعد مقدم النبي (ص) المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها سيدنا علي بعد رجوعه من غزوة بدرٍ في السنة الثانية، وكان عمرها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصفاً، وكان عمر سيدنا علي رضي الله عنه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر كما جاء في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر.

٢٢١ ــ غزوة بني سليم في قرقرة الكُدْر

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة من بدر، لم يقم إلا سبع ليالٍ حتى غزا بنفسه؛ لأنه بلغ المسلمين أن جمعاً من غطفان وبني سُليم اعتزم الاعتداء عليهم؛ فخرج الرسول ﷺ وبإمرته مائتا راكبٍ وراجلٍ من المسلمين إلى قرقرة الكدر، بعد أن استعمل على المدينة (سباع بن عرفطة الغفاري وهو من مشاهير الصحابة، وجعل عمرو بن قيس وهو ابن أم مكتوم وكان أعمى على الصلاة).

وقرقرة الكدر تبعد عن المدينة ثمانية برد، ليأخذ عليهم الطريق؛ فلما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار النَّعَم، ولم يجد أحداً، إذ فرَّ المشركون جموع بني سُليم وغطفان لما سمعوا بقدوم المسلمين؛ فجمع المسلمون ما وجدوا من إبلٍ، وقسَّمها عليهم الرسول ﷺ بصرارٍ على ثلاثة أميال من المدينة، وكانت خمسمائة بعير، وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة، وقد أقام في منازل القوم ثلاثة أيام لإظهار قوة المسلمين وعدم اكتراثهم بعدوهم ثم عاد ﷺ مع قوافله إلى المدينة.

٢٢٢ ــ غزوة بني قينقاع وتطهير المدينة

قينقاع: اسم لشعبٍ من اليهود الذين كانوا بالمدينة، أضيف إليهم سوق

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام وكتاب (محمد رسول الله) ٢٣٨.

كان بها، و يقال له: سوق بني قينقاع؛ وهم من موالي الخزرج، وحلفاء عبادة ابن الصامت، وعبدالله بن أبي بن سلول؛ وكان عددهم قليلاً، وصناعتهم الصياغة، وكانت بينهم وبين بني النضير و بني قريظة، عداوة قديمة في الجاهلية، سببها اشتراكهم مع الخزرج في يوم بعاث.

كانت غزوة بني قينقاع في شهر شوال من السنة الثانية من الهجرة عام (٦٢٤) م قال ابن إسحاق: كان من أمر بني قينقاع، أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوقهم، ثم قال لهم: «يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل، مثل ما نزل بقريشٍ من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم».

أجابوه قائلين: يا محمد إنك ترى أنَّا كقومك، لا يغرنَّكَ أنكَ لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصةً، إنَّا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس.

قالوا: له ذلك، لأنهم شعروا بعد بدرٍ بمزيد من قوة المسلمين، هم والمشركون والمنافقون؛ ورأوا محمداً الذي وفد عليهم منذ أقل من عامين فاراً(١) مهاجراً من مكة، يزداد سلطانه و بأسه يوماً فيوماً، و يكاد أن يكون صاحب الكلمة في أهل المدينة جميعاً، وحدهم(٢)؛ وكان اليهود قد بدأ تذمرهم من قبل بدر، حتى أخذوا يتغامزون و يتآمرون وقلوبهم ملأى بالحسد والغلّ والضغينة.

لذا قالوا ما قالوه لرسول الله ﷺ في جوابهم الغليظ، ولم يقفوا عند حدود الأدب؛ بل ادَّعُوا المفاخرة بشجاعتهم، وهم كانوا يتجسسون على المسلمين، لصالح المشركين، ونقلهم كافة المعلومات عن نوايا المسلمين، وحركاتهم إلى قريش، وإظهار عداوتهم بوضوح للمسلمين، ووقاحتهم للرسول ﷺ وهم قد تعرَّضوا لامرأة مسلمة تبيع حليها في سوقهم — سوق بني قينقاع —

(١) لم يكن فراره ﷺ من مكة خوفا على حياته. وإنما كان إلى حيث يجد من يستجيب لدعوته وينصره على تبليغ رسالته. المحقق.

(٢) لعل المؤلف يقصد (وحده) والضمير لمحمد ﷺ. المحقق.

فاستغاثت المرأة، فوثب أحد المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، فشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، ثم لجأ اليهود إلى حصونهم يحتمون بها.

لم يبق بعد هذا التحدي الصارخ أمام المسلمين إلا مقاتلة بني قينقاع، فحاصروهم في قلاعهم خمسة عشر يوماً، حتى اضطروهم على التسليم، ورضوا بما يصنعه الرسول ﷺ في رقابهم ونسائهم وذرياتهم وأموالهم؛ فقام إليه عبد الله بن أبيّ بن سلول، حين أمكنه الله منهم (وكانوا حلفاءه وحلفاء عبادة بن الصامت) فقال: يا محمد! أحسنْ في مواليَّ، فأبطأ عليه النبيُّ ﷺ فقال: يا محمد! أحسنْ في مواليَّ، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب ﷺ حتى رأوا في وجهه ظلالاً ــ أي تلوناً ــ ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليَّ، أربعمائة حاسر؛ وثلاثمائة دارع، منعوني من الأسود والأحمر تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك. وعن عمر بن قتادة أنه قال: خلّوهم لعنهم الله، ولعنه معهم، فأرسلوهم ثم أمر بإجلائهم.

وغنَّم الله عز وجل رسولَهُ والمسلمين ما كان لهم من مال، ولم يكن لهم أرضون، إنما كانوا صاغةً؛ فأخذ رسول الله ﷺ منهم سلاحاً كثيراً، وآلة صياغتهم؛ وكان الذي وليَ إخراجهم من المدينة بذراريهم عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، فمضَى بهم حتى بلغ ذِباب[1]، وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وكان رسول الله ﷺ استخلف على المدينة أبا لبابة ابن عبد المنذر.

وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام، وذهبوا إلى أذرعات[2]، ولم يُدِر[3] الحولُ عليهم حتى هلكوا، وكان عددهم (٤٠٠) أربعمائة حاسر وثلاثمائة

(١) جبل بالمدينة.

(٢) بلدة بأرض الشام بحوران.

(٣) الصواب (ولم يَدُر) لأنه مضارع من (دار) الثلاثي. المحقق.

دارع، فسألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة وأن لهم النساء والذرية، ويجعلوا بقية الأموال للنبي ﷺ، ومنها السلاح، فقبل منهم وصالحهم، فخمَّسَتْ أموالهم؛ جعل ﷺ منها أربعة أخماس للمؤمنين المجاهدين، وخمساً له ﷺ؛ وقد وُجِدَ في منازلهم سلاح كثير، فأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسي، قوساً تدعى (الكتوم) لا يسمع لها صوت إذا رمى بها، كُسرتْ بأحد، وقوساً تدعى (الروحاء) وقوساً تدعى (البيضاء) وأخذ درعين، درعاً يقال لها: (السُّغديَّة) يقال إنها درع داود التي لبسها حين قتل جالوت، والأخرى يقال لها (فضة) وثلاثة أرماح وثلاثة أسياف، ووهب رسول الله ﷺ درعاً لمحمد بن مسلمة، ودرعاً لسعد بن معاذ؛ وكان لواء رسول الله ﷺ يوم بني قينقاع لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وبالقضاء على بني قينقاع في المدينة، طُهِّرت من هؤلاء المستغلين وناقلي أسرار المسلمين لخصومهم، وبجلائهم استقرَّ الأمر فيها للمسلمين، وصارت المدينة قاعدةً أمينة للمسلمين، يرتكزون عليها في الحركات المقبلة.

٢٢٣ ــ الوحدة السياسية بعد تطهير المدينة من اليهود

ضعفت شوكة اليهود بالمدينة بعد جلاء بني قينقاع عنها، فقد كان أكثر اليهود المنتسبين إلى المدينة، يقيمون بعيداً عنها بخيبر وبأمّ القُرى، ولهذه النتيجة كان يقصد سيدنا محمد ﷺ من إجلائهم، وهذا تصرف سياسي كبير، كان آية دالة على سعة الحكمة وبعد النظر من سيدنا محمد رسول الله، وهو مقدمة لم يكن منها بدٌّ للآثار السياسية التي ترتبتْ بعد ذلك على خطة رسول الله ﷺ. فليس شيء أضر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها، وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بدَّ منه، فهو لا بدَّ مُنْتَهٍ إلى تغلّب طائفة على سائرها، غلبةً تنتهي إلى سيادتها؛ وقد تحدَّثَ بعضُ المؤرخين منتقداً تصرُّف المسلمين إزاء اليهود، زاعماً أن حكاية المرأة المسلمة التي ذهبت إلى الصائغ كان من اليسير إنهاؤها، ما دام قد قُتل من المسلمين

فاستغاثت المرأة، فوثب أحد المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، فشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، ثم لجأ اليهود إلى حصونهم يحتمون بها.

لم يبق بعد هذا التحدّي الصارخ أمام المسلمين إلا مقاتلة بني قينقاع، فحاصروهم في قلاعهم خمسة عشر يوماً، حتى اضطروهم على التسليم، ورضوا بما يصنعه الرسول ﷺ في رقابهم ونسائهم وذرياتهم وأموالهم؛ فقام إليه عبد الله بن أبيّ بن سلول، حين أمكنه الله منهم (وكانوا حلفاءه وحلفاء عبادة بن الصامت) فقال: يا محمد! أحسنْ في مواليَّ، فأبطأ عليه النبيُّ ﷺ فقال: يا محمد! أحسنْ في مواليَّ، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب ﷺ حتى رأوا في وجهه ظلالاً ــ أي تلوناً ــ ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليَّ، أربعمائة حاسر؛ وثلاثمائة دارع، منعوني من الأسود والأحمر تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك. وعن عمر بن قتادة أنه قال: خلّوهم لعنهم الله، ولعنه معهم، فأرسلوهم ثم أمر بإجلائهم.

وغنَّم الله عز وجل رسولَهُ والمسلمين ما كان لهم من مال، ولم يكن لهم أرضون، إنما كانوا صاغةً؛ فأخذ رسول الله ﷺ منهم سلاحاً كثيراً، وآلة صياغتهم؛ وكان الذي وليَ إخراجهم من المدينة بذراريهم عُبادة بن الصامت رضي الله عنه، فمضَى بهم حتى بلغ ذِباب[1]، وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وكان رسول الله ﷺ استخلف على المدينة أبا لبابة ابن عبد المنذر.

وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام، وذهبوا إلى أذرعات[2]، ولم يُدِر[3] الحولُ عليهم حتى هلكوا، وكان عددهم (٤٠٠) أربعمائة حاسر وثلاثمائة

---

(١) جبل بالمدينة.

(٢) بلدة بأرض الشام بحوران.

(٣) الصواب (ولم يَدُر) لأنه مضارع من (دار) الثلاثي. المحقق.

دارع، فسألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة وأن لهم النساء والذرية، ويجعلوا بقية الأموال للنبي ﷺ، ومنها السلاح، فقبل منهم وصالحهم، فخمَّسَتْ أموالهم؛ جعل ﷺ منها أربعة أخماس للمؤمنين المجاهدين، وخمساً له ﷺ؛ وقد وُجِدَ في منازلهم سلاح كثير، فأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسي، قوساً تدعى (الكتوم) لا يسمع لها صوت إذا رمى بها، كُسرتْ بأحد، وقوساً تدعى (الروحاء) وقوساً تدعى (البيضاء) وأخذ درعين، درعاً يقال لها: (السُّفديَّة) يقال إنها درع داود التي لبسها حين قتل جالوت، والأخرى يقال لها (فضة) وثلاثة أرماح وثلاثة أسياف، ووهب رسول الله ﷺ درعاً لمحمد بن مسلمة، ودرعاً لسعد بن معاذ؛ وكان لواء رسول الله ﷺ يوم بني قينقاع لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وبالقضاء على بني قينقاع في المدينة، طُهِّرت من هؤلاء المستغلين وناقلي أسرار المسلمين لخصومهم، وبجلائهم استقرَّ الأمر فيها للمسلمين، وصارت المدينة قاعدةً أمينة للمسلمين، يرتكزون عليها في الحركات المقبلة.

٢٢٣ ــ الوحدة السياسية بعد تطهير المدينة من اليهود

ضعفت شوكة اليهود بالمدينة بعد جلاء بني قينقاع عنها، فقد كان أكثر اليهود المنتسبين إلى المدينة، يقيمون بعيداً عنها بخيبر وبأمّ القُرى، ولهذه النتيجة كان يقصد سيدنا محمد ﷺ من إجلائهم، وهذا تصرف سياسي كبير، كان آية دالة على سعة الحكمة وبعد النظر من سيدنا محمد رسول الله، وهو مقدمة لم يكن منها بدٌّ للآثار السياسية التي ترتبتْ بعد ذلك على خطة رسول الله ﷺ. فليس شيء أضر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها، وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بدَّ منه، فهو لا بدَّ مُنْتهٍ إلى تغلّب طائفة على سائرها، غلبةً تنتهي إلى سيادتها؛ وقد تحدَّث بعضُ المؤرخين منتقداً تصرُّف المسلمين إزاء اليهود، زاعماً أن حكاية المرأة المسلمة التي ذهبت إلى الصائغ كان من اليسير إنهاؤها، ما دام قد قُتل من المسلمين

رجلٌ ومن اليهود رجلٌ؛ وقد يدفع هذا القول المنحرف، بأنّ مقتل اليهودي والمسلم لم يُمْحِ[1] ما لحق المسلمين من إهانة في شخص المرأة التي عبث اليهودي بها وأن مثل هذه المسألة عند العروب، أكثر منها عند غيرهم من الأمم، جديرة أن تثور لها الثائرات، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة؛ وفي تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطّلعون على هذا التاريخ؛ ولكن هنالك إلى جانت هذا الاعتبار اعتباراً آخر أقوى منه؛ فحادث المرأة كان من حصار بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة كما كان لمقتل[2] وليّ عهد النمسا (بسير اجيفو) سنة (١٩١٤) م من الحرب الكبرى التي اشتركت فيها أوروبا[3] جميعاً، هو إنما كان الشرارة التي ألهبت ما تأجج به نفوس المسلمين واليهود جميعاً، لهباً، أدّى إلى انفجارها، وإلى كل ما يُحدث الانفجار من آثار؛ والحق أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين، إلى جانب المسلمين بالمدينة قد جعل المدينة على بركان لا مفرَّ من أن ينفجر، في كل حين، وقد كان حصار بني قينقاع وجلاؤهم عن المدينة أوّل مظاهر هذا الانفجار.

٢٢٤ ــ غزوة السويق

ظل الهدوء مخيماً في المدينة شهراً كاملاً بعد جلاء بني قينقاع عنها، وكان جديراً بأن تتلوه أشهر، لولا أن أبا سفيان لم يُطق البقاء بمكة قابعاً تحت خزي هزيمة بدرٍ، دون أن يعيد إلى أذهان العرب أن قريشاً ما تزال لها قوتها وعصبيتها ومقدرتها على الغزو والقتال؛ لذلك جمع أبو سفيان مائتي[4] راكبٍ من قريش في السنة الثانية من الهجرة سنة (٦٢٤)م وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، نذر أن لا يمسَّ رأسه ماء من جنابة، أي لا يأتي النساء حتى يغزوَ محمداً، فخرج

---

(١) الصواب (لم يَمْحُ) لأنه مضارع من (محا) الثلاثي. المحقق.

(٢) (كما كان لمقتل). في الأصل (ما كان مقتل). المحقق.

(٣) أنظر كتاب (حياة محمد) لمحمد حسين هيكل ص ٢٧٥.

(٤) في الأصل (مائتين). والصواب حذف للنون لأجل الإضافة. المحقق.

ليبرَّ بيمينه[1]، فسلك النجدية، حتى نزل على مقربة من المدينة؛ خرجوا سَحَراً، فأتَوْا ناحيةً يقال لها الْعُرَيْض، فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرثٍ لهما، فقتلوهما، وحرقوا بيتين بالعريض ونخيلاً، ثم رأى أبو سفيان أن يمينه بغزو محمدٍ بَرَّتْ، فانكفأ هارباً خائفاً أن يطلبه النبيُّ ﷺ وأصحابه.

وندب سيدنا محمدٌ ﷺ أصحابه فخرجوا على أثره، نحو من مائتي فارس من المهاجرين والأنصار، ورسول الله ﷺ هو القائد على رأسهم، حتى بلغوا قرقرة الكُدْرِ وأبو سفيان ومن معه جادُّون في الفرار، يتزايد خوفُهم، فيلقون ما يحملون من زادهم من السَّويق، فإذا مرَّ المسلمون به أخذوه؛ ولما رأى رسول الله ﷺ القوم أمعنوا في الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة؛ وقد انقلب فرار أبي سفيان عليه، بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدرٍ.

قال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ: يا رسول الله أنطمع لنا أن تكون غزوة؟[2] قال: نعم.

وإنما سميت (غزوة السويق) لأن أكثر ما طرح القوم في هربهم من أزوادهم (السويق)، فرجع المسلمون بسويق كثير، فسميت (غزوة السويق). والسويق: أن تحمص الحنطة أو الشعير ثم تطحن، وقد تمزج باللبن والعسل والسمن، تلتُّ به.

٢٢٥ ــ غزوة ذي أمّر

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها؛ ثم غزا نجداً، يريد غطفان وهي غزوة (ذي أمّر) لأن

---

(١) الغسل من الجنابة والحج والنكاح كان معمولاً بهم في الجاهلية بقية دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

(٢) عبارة الطبري (أتطمع أن تكون لنا غزوة؟) انظر جـ ٢ ص ٢٩٩ المطبعة الحسينية المصرية. المحقق.

جمعاً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمرّ يريدون الإغارة، جمعهم دُعْثُورٌ بن الحارث المحاربي.

فخرج رسول الله ﷺ في (٤٥٠) أربعمائة وخمسين رجلاً، واستعمل على المدينة عثمان بن عفّان رضي الله عنه؛ فلما سمعوا بمجيئه هربوا في رؤوس الجبال؛ فرجع رسول الله ﷺ ولم يلقَ كيداً، وأقام بنجدٍ شهر صفر كله أو قريباً من ذلك؛ وأصاب المسلمون رجلاً منهم يقال له: جبار، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم وضمّه ﷺ إلى بلال ليعلمه الشريعة الإسلامية، كما يعلم غيره ويعتني بذلك اعتناء كبيراً وبتعليم المسلمين. وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بمعجزة من النبي ﷺ مع أنه هو الذي جمع قومه لمحاربته ﷺ، وكان سيداً شجاعاً وبعد أن أسلم ذهب إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام، فاهتدى به خلق كثير[1].

٢٢٦ ــ صلاة العيد ومشروعيتها

وفي السنة الثانية[2] من الهجرة، سنَّ الله تبارك وتعالى للعالم الإسلامي سنةً عظيمة، بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء والمحبة، ويقووا عروة الدين الوثقى؛ وهي الاجتماع في يومي عيد الفطر وعيد الأضحى، وكلاهما بعد انتهاء العمل من إحياء ركن إسلامي ركينٍ: فعيد الفطر بعد أداء فريضة صيام شهر رمضان، والثاني بعد أداء فريضة الحج.

وكان رسول الله ﷺ يجمع المسلمين في صعيدٍ واحدٍ، ويصلي بهم ركعتين تضرعاً إلى الله عز وجل، أن لا يفصم عروتهم، وأن ينصرهم على عدوهم، ثم يخطبهم حاضّاً لهم على الائتلاف، ومذكراً لهم ما يجب عليهم لأنفسهم، ثم يصافح المسلمون بعضُهم بعضاً، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين، ويصلون أرحامهم، ويتفقدون جيرانهم،

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) لمحمد رضا ص ٢٤٦.

(٢) في الأصل (وفي هذه السنة الثانية من الهجرة). المحقق.

حتى يكون السرور عاماً شاملاً لجميع القرى والبلدان يعم جميع المسلمين.

فبعد[1] صلاة عيد الفطر توزع الزكوات والصدقات، وبعد صلاة عيد الأضحى توزع الأضاحي، فيكون السرور قد شمل جميع المسلمين.

نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا، و يوفقنا للسير على منهج سلفنا اللهم آمين.

٢٢٧ ــ السرية الخامسة، سرية زيد بن حارثة إلى القَرْد

بلغ الرسول ﷺ أن عيراً لقريش على رأسها زعيم قريش أو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى ــ وكلهم أسلموا عام فتح مكة ــ قد سلكوا طريق العراق، لأنهم خافوا من طريقهم التي كانوا يسلكونها إلى الشام ما وقع لهم من وقعة بدرٍ.

فبعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بنَ حارثة رضي الله عنه في مائة (١٠٠) راكبٍ، فلقيهم على ماء في نجد يسمى (القَرْد)، فأصاب زيد[2] العير وما فيها، وهرب رجالُها؛ فقدم بالعير على رسول الله ﷺ، فخمَّسها عليه الصلاة والسلام، فبلغت قيمة الخُمُس[3] (عشرين ألف درهم) وكانت هذه السرية في شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة عام (٦٢٤) م.

وكان الهدف من هذه السرية قطع الطريق على تجارة مكة، ليتأثر أهل مكة بفرض هذا الحصار الاقتصادي، لأن أهل مكة يعيشون على التجارة، لأنهم بواد غير ذي ذرعٍ؛ و يشهد على ذلك قول صفوان بن أمية: إن محمداً وأصحابه قد عوَّرُوا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه؟ وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقنا في دارنا هذه ــ مكة ــ أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن

(١) الصحيح أن زكاة الفطر توزع قبل صلاة العيد لا بعدها كما قال المؤلف. المحقق.

(٢) في الأصل (حارثة) بدل (زيد). المحقق.

(٣) في الأصل مضبوطة (الخُمْس) بإسكان الميم. المحقق.

لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة[1] في الشتاء...

قال له الأسود بن عبد المطلب: (تنكَّبْ الطريق على الساحل، وخذ طريق العراق) لذا سلكوا طريق العراق؛ وانتقل خبر هذه القافلة لرسول الله ﷺ عن طريق سليط، فبعث زيداً لها: وقد غنمها زيد وفرَّ رجالُها.

وهكذا حُرِمَ المشركون من طريق مكة العراق، كما حُرموا من قبل من طريق مكة الشام، فأصبح الحصار الاقتصادي مطبقاً عليهم من كافة الطرق المؤدية إلى الشام والعراق.

وصارت المدينة أول قاعدة أمينة للإسلام بعد فرض الحصار على مشركي مكة، وجلاء بني قينقاع عنها.

٢٢٨ ـ قتل اليهودي كعب بن الأشرف

كعب بن الأشرف اليهودي: كان أبوه عربياً من بني نبهان، أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بني النضير، فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً، ذا بطنٍ وهامة، شاعراً مجيداً، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطي أحبار اليهود، ويهجُو رسول الله ﷺ في أشعاره، ويحرّضُ كفّار قريش على قتاله؛ وكان من عداوته أنه لما أصيب أصحاب بدر، قدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، بشيرين بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين، يخبرانهم بفتح الله عز وجل عليه، وقتل وأسر من أسر من المشركين، كبر على كعب بن الأشرف ذلك وقال: أحق هذا؟ أترون أنّ محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان (البشيران)، وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس؟ والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها.

(١) المعروف من كتب السيرة أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن. المحقق.

فلما تيقَّنَ الخبر، ورأى الأسرَى، خرج إلى قريشٍ يبكي قتلاهم، ويحرّضُ بأشعاره على قتال النبي ﷺ وكان ينتقل من قومٍ إلى قومٍ، وأخبارهُ تصلُ إلى النبي ﷺ، فيذكره لحسانٍ فيهجوه.

قال كعب بن الأشرف يبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدرٍ:

طَحَنَتْ رَحَا بدرٍ لِمُهْلَكِ أهلِهِ ... ولِمثلِ بدرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ (١)

قُتِلَتْ سَرَاةُ الناسِ حول حياضهم ... لا تَبعدُوا إنّ الملوكَ تُصَرَّعُ (٢)

كم قد أصيبَ به من أبْيَضَ ماجدٍ ... ذي بهجةٍ تأوي إليه الضُّيَّعُ (٣)

طَلْقِ اليدينِ إذا الكواكبُ أخلفَتْ ... حمَّالِ أثقالٍ يَسُودُ ويربَعُ

ويقولُ أقوامٌ أسَرُّ بسخطهم ... إن ابنَ الأشرفِ ظلَّ كعباً يجزعُ

صَدَقُوا فليتَ الأرضَ ساعةَ قُتِّلُوا ... ظلّت تسوخُ بأهلها وتصدَّعُ

صار الذي أثَرَ الحديثَ بطعنةٍ ... أو عاش أعمىٰ مُرْعَشاً لا يسمعُ

نُبِّئْتُ أنَّ بني المغيرةِ كلَّهم ... خَشَعُوا لِقَتْلِ أبي الحكيم وَجُدِّعُوا (٤)

وابنا ربيعةَ عندهُ ومُنَبِّهٌ ... ما نال مثل المهلكينَ وَتُبَّعُ (٥)

نُبِّئْتُ أنَّ الحارثَ بن هشامِهِمْ ... في الناس يَبني الصالحات ويجمعُ

ليزورَ يثربَ بالجموع وإنما ... يحمي على الحسَبِ الكريمُ الأرْوَعُ (٦)

قال ابن إسحاق: فأجابه حسَّانُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه فقال:

أبكاهُ كعبٌ ثم عُلَّ بعبرةٍ ... منه وعاش مجدَّعاً لا يسمعُ (٧)

---

(١) رحا الحرب: مجتمع القتال ومعظم الحرب، وتستهل: تسيل بالدمع يقال: استهل المطر والدمع: إذا سالا.

(٢) سراة الناس: خيارهم.

(٣) الضيع: جمع ضائع.

(٤) جدعوا: قطعت آنافهم، وأراد هنا ذهاب عزهم.

(٥) تبع: ملك من ملوك اليمن.

(٦) الأروع: الذي يروع بحسنه وجماله.

(٧) عل بعبرة: كررت عليه، ومجدعاً: ذاهب العز ذليلاً.

لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة[1] في الشتاء...

قال له الأسود بن عبد المطلب: (تنكَّبْ الطريق على الساحل، وخذ طريق العراق) لذا سلكوا طريق العراق؛ وانتقل خبر هذه القافلة لرسول الله ﷺ عن طريق سليط، فبعث زيداً لها: وقد غنمها زيد وفرَّ رجالُها.

وهكذا حُرِمَ المشركون من طريق مكة العراق، كما حُرموا من قبل من طريق مكة الشام، فأصبح الحصار الاقتصادي مطبقاً عليهم من كافة الطرق المؤدية إلى الشام والعراق.

وصارت المدينة أول قاعدة أمينة للإسلام بعد فرض الحصار على مشركي مكة، وجلاء بني قينقاع عنها.

٢٢٨ ـ قتل اليهودي كعب بن الأشرف

كعب بن الأشرف اليهودي: كان أبوه عربياً من بني نبهان، أصاب دماً في الجاهلية، فأتَى المدينةَ، فحالف بني النضير، فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً، ذا بطنٍ وهامة، شاعراً مجيداً، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطي أحبار اليهود، ويهجُو رسول الله ﷺ في أشعاره، ويحرّضُ كفّار قريش على قتاله؛ وكان من عداوته أنه لما أصيب أصحاب بدر، قدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، بشيرين بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين، يخبرانهم بفتح الله عز وجل عليه، وقتل وأسر من أسر من المشركين، كبر على كعب بن الأشرف ذلك وقال: أحق هذا؟ أترون أنّ محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان (البشيران)، وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس؟ والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها.

(١) المعروف من كتب السيرة أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن. المحقق.

فلما تيقَّنَ الخبر، ورأى الأسرَى، خرج إلى قريشٍ يبكي قتلاهم، ويحرّضُ بأشعاره على قتال النبي ﷺ وكان ينتقل من قومٍ إلى قومٍ، وأخبارهُ تصلُ إلى النبي ﷺ، فيذكره لحسانٍ فيهجوه.

قال كعب بن الأشرف يبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدرٍ:

طَحَنَتْ رَحَا بدرٍ لِمُهْلَكِ أهلِهِ ... ولمثلِ بدرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ (١)

قُتِلَتْ سَرَاةُ الناسِ حول حياضهم ... لا تَبعدُوا إنّ الملوكَ تُصَرَّعُ (٢)

كم قد أصيبَ به من أبْيَضَ ماجدٍ ... ذي بهجةٍ تأوي إليه الضُّبَّعُ (٣)

طَلْقِ اليدينِ إذا الكواكبُ أخلفَتْ ... حمَّالِ أثقالٍ يَسُودُ و يربَعُ

و يقولُ أقوامٌ أسَرُّ بسخطهم ... إن ابنَ الأشرفِ ظلَّ كعباً يجزعُ

صَدَقُوا فليتَ الأرضَ ساعةَ قُتِّلُوا ... ظلّت تسوخُ بأهلها وتصدَّعُ

صار الذي أثَرَ الحديثَ بطعنةٍ ... أو عاش أعمىٰ مُرْعَشاً لا يسمعُ

نُبِّئْتُ أنَّ بني المغيرةِ كلَّهم ... خَشَعُوا لِقَتْلِ أبي الحكيم وَجُدِّعُوا (٤)

وابنَا ربيعةَ عندهُ وَمُنَبِّهٌ ... ما نال مثل المهلكينَ وَتُبَّعُ (٥)

نُبِّئْتُ أنَّ الحارثَ بن هشامِهِمْ ... في الناس يَبني الصالحات ويجمعُ

ليزورَ يثربَ بالجموعِ وإنما ... يحمي على الحسَبِ الكريمُ الأرْوَعُ (٦)

قال ابن إسحاق: فأجابه حسَّانُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه فقال:

أبكاهُ كعبٌ ثم عُلَّ بعبرةٍ ... منه وعاش مجدَّعاً لا يسمعُ (٧)

---

(١) رحا الحرب: مجتمع القتال ومعظم الحرب، وتستهل: تسيل بالدمع يقال: استهل المطر والدمع: إذا سالا.

(٢) سراة الناس: خيارهم.

(٣) الضبع: جمع ضائع.

(٤) جدعوا: قطعت آنافهم، وأراد هنا ذهاب عزهم.

(٥) تبع: ملك من ملوك اليمن.

(٦) الأروع: الذي يروع بحسنه وجماله.

(٧) عل بعبرة: كررت عليه، ومجدعاً: ذاهب العز ذليلاً.

ولقد رأيتُ ببطنِ بدرٍ منهمُ ... قتلى تسُحُّ لها العيونُ وتَدمَعُ[1]
فابكي فقد أبكيتَ عبداً راضعاً ... شِبْهَ الكُلَيْبِ إلى الكُلَيْبَةِ يَتْبَعُ[2]
ولقد شفى الرحمنُ منّا سيداً ... وأهانَ قوماً قاتلُوهُ وصُرِّعُوا[3]
نَجَا وَأفْلَتَ منهمُ مَنْ قلبُه ... شَعَفٌ يظلُّ لخوفهِ يتصَدَّعُ[4]

قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اكفني ابن الأشرف بما شئت»، ثم رجع ابن الأشرف إلى المدينة، فتغزَّل في نساء المسلمين وذكرهنَّ بسوء، وأبَى أن ينزع عن أذاه، ويكفَّ عن هجاه؛ وكان يرمي إلى إحداثِ ثورةٍ في المدينة ضدَّ رسول الله ﷺ.

فغضب رسولُ الله ﷺ وقال: مَنْ لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن مَسْلَمة أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله هو خالي، أنا أقتلُه، قال عليه الصلاة والسلام: فافعَلْ إنْ قدرتَ على ذلك؛ فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاثاً لا يأكلُ ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال يا رسول الله: قلتُ لك قولاً لا أدري أأفينَّ لك به أم لا؟ قال: إنما عليك الجهد.

ثم أتَى أبا نائلة، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة، وكان شاعراً، وعباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأخبرهم بما وعد به رسول الله ﷺ من قتل ابن الأشرف، فأجابوه، وقالوا: كلنا نقتلُه؛ ثم أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله! لا بدَّ لنا أن نقول، قال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حِلٍّ من ذلك؛ ومعنى ذلك أنهم استأذنوه أن يقولوا قولاً غير مطابقٍ للواقع يسرُّ كعباً ليتوصَّلُوا به إلى قتله؛ وكان لا بدَّ لهم من

---

(١) تسح: تصب الدمع.
(٢) راضعاً: أراد لئيماً.
(٣) أراد بالسيد: الرسول ﷺ.
(٤) القصيدتان في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٣٣.

التماس الحيلة، لأنه كان يقيمُ في حصنٍ منيع خارج المدينة؛ فأباح لهمُ الكذب لأنه من خدع الحرب؛ فجاء محمد بن مَسْلَمة كعبَ بن الأشرف فقال: إن هذا الرجلَ ــ يعني النبيَّ ﷺ ــ قد سألنا صدقةً، ونحن ما نجد ما نأكل، وإنه قد عنّانا[1]، وإني قد أتيتك أستسلفُكَ، قال كعبٌ: وأيضاً والله لتَمَلُّنه[2]، قال: إنا قد اتبعناهُ فلا نحبُّ أن نَدَعَهُ حتى ننظر إلى أي شيء يصيرُ شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، قال: ألم يأنِ لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل؟ ثم أجابهم بأنه يسلفهم، وقال: أرهنوني، قالوا: أي شيءٍ تريدُ؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنكَ نساءنَا وأنتَ أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءنَا، فيسب أحدهم فيقال رهن بوسقٍ أو وسقين؟ هذا عارٌ عَلينا ولكن نرهنك اللأمة ــ أي السلاح ــ مع علمك بحاجتنا إليه، قال: نعم؛ وإنما قالوا ذلك لئلا ينكر عليهم مجيئهم إليه بالسلاح، فواعده أن يأتيه، وجاءه أبو نائلة وقال له: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتُكَ لحاجةٍ، أريد أن أذكرها لكَ فاكتُمْ عني، فقال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً من البلاء، عادَتْنَا العربُ، ورمتْنَا عن قوسٍ واحدةٍ، وقطعت عنا السبل، حتى جاع العيالُ، وجهدت الأنفسُ وأصبحنا وقد جهدنا، وجهدَ عيالُنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنتُ أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول، فقال: إني أردتُ أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لكَ، ونحسنُ في ذلك، وإن معي أصحاباً على مثل رأيي، وقد أردتُ أن آتيكَ بهم، فتبيعهم وتحسنَ[3] إليهم، ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، فقال: إن في الحلقة لوفاء؛ وكان أبو نائلة أخاً لكعبٍ من الرضاعة ومحمد بن مسلمة ابن أخيه من الرضاعة، فجاءه محمد بن مسلمةَ وأبو نائلة ومعهما عبَّاد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر

---

(١) عنّانا: أي اتعبنا بما كلفنا به من الأوامر والنواهي التي فيها تعب، لكنه في مرضاة الله، وهذا من التعريض الجائز.

(٢) أي تزيد ملامتكم وتتضجرون منه أكثر وأزيد من ذلك.

(٣) في الأصل (وتحسنُ) بضم النون. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

وكلهم من الأوس؛ ولما فارقوا النبيَّ ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ــ مقبرة أهل المدينة ــ ثم وجههم، وقال: انطلقوا باسم الله اللهم أعنهم، ثم رجع ﷺ إلى بيته، وكان ذلك بالليل وكانت الليلة مقمرة، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، وكان حديث عهدٍ بعرس، فناداه أبو نائلة، ثم بقية أصحابه، فعرفهم، ووثب في ملحفته، فأخذتْهُ امرأتُه بناحيتها وقالت: إنكَ امرؤٌ محاربٌ، وإن أصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة، قال لها: إنه أبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني، فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر، فقال لها كعب: لو يدعى الفتى لطعنةٍ لأجاب، فنزل فتحدث معهم ساعةً، وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لكَ يا ابن الأشرف أن تمشي إلى شعب العجوز ــ اسم مكان قريب منهم ــ نتحدث به بقية ليلتنا؟ فقال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون فمشوا ساعةً، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه، ثم شم يده، وقال: ما رأيتُ كالليلة طيباً أعطر قط؛ ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأنَّ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها وأمسكه من شعره وقال: اضربُوا عدوَّ الله، فضربوه بأسيافهم فوقع على الأرض، فجزُّوا رأسه فحملوهُ في مخلاةٍ كانت معهم إلى رسول الله ﷺ.

وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة في شهر ربيع الأول سنة (٦٢٤) م.

هذه الحادثة قد أوقعت الرعب في نفوس اليهود جميعاً، فقد قال رسول الله ﷺ: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، فلم يخرج من عظمائهم أحدٌ من شدة خوفهم[1].

٢٢٩ ــ رد استنكار مزعوم

لقد استنكر بعض الأفرنج الذين كتبوا سيرة الرسول ﷺ اغتيال كعب بن الأشرف بأمر رسول الله ﷺ، ولو علموا الحقيقة لما استنكروا أبداً؛ لأن كعباً هو الذي أساء لنفسه، إذ ساقه الغرور والحسد إلى ارتكاب متن الشطط بعدائه

(١) أنظر (كتاب محمد رسول الله) ص ٢٥٠.

للنبي ﷺ، وإيذائه لأعراض المسلمين، وتألبه بالعداوة وانضمامه لمشركي مكة واستثارتهم لحربه، ونقضه العهد وهجوه لرسول الله ﷺ، وتغزله بنساء المسلمين، معتمداً على كل ذلك بجاهه وفصاحته ووفرة ماله وشعره، يوغر الصدور ويؤلب الأعداء على حبيب الله ومصطفاه، لذا كان عرضة للقتل من سوء نيته وخبث طويته، وإظهار عداوته.

وفي هذه الأثناء، وقع لليهود فزعٌ شديدٌ، ممّا جعلهم يلزمون دورهم، لا يخرج أحد منهم مخافة أن يصيبه ما أصاب كعباً، وزاد في قلوبهم الفزع أن أهدر محمدٌ ﷺ دماءهم بعد الذي كان من أمر بني قينقاع، فجاء إليه ﷺ اليهود يشكون إليه أمرهم، ويذكرون له مقتل كعب غيلةً بلا جُرْم ولا حدث علموه، فكان جواب رسول الله ﷺ لهم: إنه آذانا وهجانا بالشعر، وتشبَّب بالنساء المؤمنات ونقض العهد، وشرح لهم ذهاب كعب لقريش وحثهم على حربه.

وبعد حديث طويل بينه وبينهم، دعاهم إلى أن يكتب معهم كتاباً يحترمونه، وخافت اليهود وذلت، وإن بقي في نفسها الحقد والحسد وإضمار العداوة لمحمدٍ وصحابته، ما ظهر بعد أثره منهم.

٢٣٠ ــ زواج رسول الله ﷺ بحفصة بنت عمر بعد زواجه بعائشة

لقد تزوج الرسول ﷺ بخديجة بنت خويلد بمكة وقد شرحت هذا الزواج من سابقٍ في كتابنا هذا، وكانت أول المسلمين بدعوته.

ثم خطب عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة السيدة خديجة. أسلمت عائشة صغيرة بمكة قبل الهجرة في شهر شوال، ودخل بها في المدينة في منزل أبي بكر بالسُّنح بعد الهجرة بثمانية أشهر، وكان مهرها أربعمائة درهم، وكانت أحب نسائه إليه، وسأفرد لها كلمة حول ترجمة تاريخ حياتها بعد هذه الكلمة.

وفي شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة، تزوَّج رسول الله ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعد أن انقضَتْ عدتُها من زوجها خُنَيْس بن

حذافة، وكان ممن شهد بدراً، وتوفي بالمدينة.

قال عمر رضي الله عنه: ولدت حفصةُ وقريشٌ تبني البيتَ قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين.

وقد كان عمر رضي الله عنه عرض حفصةَ ابنتَهُ على أبي بكر فلم يجبه بشيء، وعرضها على عثمان فلم يجبه بشيء، فقال عمر يا رسول الله! قد عرضتُ حفصة على عثمان، فأعرض عني، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك، وزوَّج ابنتك خيراً من عثمان. فتزوَّج عثمانُ أم كلثوم، وتزوَّج رسول الله ﷺ حفصة. وكان ذلك في السنة الثالثة للهجرة.

٢٣١ ــ ترجمة السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه

عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس؛ وهي محدّثةٌ من محدّثاتِ عصرها، ونابغة من نابغات عصرها في الذكاء والفصاحة والبلاغة، فكانت عائشة رضي الله عنها عاملاً كبيراً، ذا تأثير عميق، في نشر تعاليم الرسول ﷺ؛ ولدت بمكة في السنة الثامن قبل الهجرة[1]، ولما تُوفيت خديجة أم المؤمنين ــ في الاحترام والتعظيم وحرمة النكاح، دون نحو النظر والخلوة وكذا سائر أمهات المؤمنين[2] ــ حزن عليها رسول الله ﷺ حزناً شديداً، حتى خشي عليه، ولما خَفَّتْ وطأة الحزن عليه، شرع يختلف إلى بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه و يقول: يا أم رومان! استوصي بابنتك عائشة خيراً، واحفظيني فيها؛ فكان لعائشة بذلك منزلة[3] عند أهلها؛ ثم جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! ألا تزوَّج؟ قال: ومَنْ؟ قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيّباً، فقال: من البكر، ومن الثيّب؟

---

(١) شرح البخاري للعجلوني، وفتح الباري لابن حجر.

(٢) (في الاحترام) إلى (أمهات المؤمنين) كلام معترض قصد به المؤلف تفسير كلمة (أم المؤمنين). المحقق.

(٣) ضبطها المؤلف (منزلةً) بالنصب والصواب الرفع لأنها اسم (كان). المحقق.

قالت: أما البكر، فابنة أحب الخلق إليك، وعائشة بنت أبي بكر، وأما الثيب فسودة بنت زمعة، آمنت بربك[1] واتبعتك. فقال رسول الله ﷺ: فاذكريها عليَّ.

فأتَتْ خولةُ بنتُ حكيمٍ أمَّ رومان فقالت لها: يا أم رومان! وماذا أدخل الله عليكم من الخير؟ قالت: وما ذاك؟ فقالت خولة: رسول الله ﷺ يذكر عائشة، فقالت لها أم رومان: انتظري فإن أبا بكر آت، فجاء أبو بكر فذكرت ذلك، فقال: أو تصلح له وهي ابنة أخيه؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما أنا أخوه وهو أخي، وابنته تصلح لي، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: يا رسول الله! قد كنتُ وعدت بها، أو ذكرتها لمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف لابنه جبير؛ فأتى أبو بكر المطعم فقال: ما تقول في أمر هذه الجارية؟ فأقبل المطعم على امرأته فقال: ما تقولين؟ فأقبلت امرأة مطعم على أبي بكر فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الصبيَّ إليك تصبيهِ وتدخله في دينك الذي أنتَ عليه، ثم قال أبو بكر للمطعم: ما تقول أنت؟ فقال: إنها لتقول امرأتي ما تسمع، فقام أبو بكر وليس في نفسه من الوعد شيء، فقال أبو بكر لخولة: قولي لرسول الله ﷺ فليأت؛ فجاء رسول الله ﷺ فعقد على عائشة وأصدقها أربعمائة درهم[2]، وفي رواية عطية: على متاع بيت قيمته خمسون أو نحو من خمسين[3]، وذلك بمكة في شوال قبل الهجرة لثلاث سنين، وهي بنت ست سنين[4]، وفي رواية أنها كانت بنت سبع سنين[5]، وبنى بها رسول الله ﷺ وهي بنت تسع بالمدينة في شهر شوال في السنة الأولى من الهجرة؛ ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلَّفَ عائشة وبناته في مكة،

---

(١) الصواب (بك) لا (بربك) كما ذكر المؤلف. المحقق.

(٢) سيرة ابن هشام.

(٣) طبقات ابن سعد.

(٤) سنن النسائي وصحيح البخاري وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية.

(٥) سيرة ابن هشام والمستدرك للحاكم ومسند الشافعي وجامع الأصول لابن الأثير.

فلما قدم المدينة بعث زيد بن حارثة ومعه أبو[1] رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة ألف درهم[2] أخذها رسول الله ﷺ من أبي بكر ليشتريا بها ما يحتاجان إليه؛ وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الديلي، ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبدالله بن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله أم رومان وعائشة وأختها أسماء، فخرجوا مصطحبين، فلما انتهوا إلى قديد ــ موضع قرب مكة ــ اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة، ثم رحلوا من مكة جميعاً، وصادفوا طلحة بن عبيدالله يريد الهجرة بآل أبي بكر فخرجوا جميعاً، وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع وأم كلثوم، وسودة بنت زمعه، وحمل زيدٌ أمَّ أيمن وأسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بأم رومان وأختيه، وخرج طلحة بن عبيد الله واصطحبهم جميعاً، فلما قدموا المدينة، نزلوا في دار بني الحارث بن الخزرج.

ولما زُفت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ، قلن[3] نساء الأنصار على الخير والبركة، وعلى خير طائر، وأصلحن من شأنها، ثم بنى بها رسول الله ﷺ في بيت عائشة الذي توفي فيه رسول الله ﷺ، فكانت أحظى نسائه لديه وأحبهن إليه.

فقد حدَّثَ عمرو بن العاص أنه أتى النبيَّ ﷺ فقال: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: من الرجال؟ قال: أبوها، قال: ثم مَنْ؟ قال: عمر، (أخرجه أحمد والترمذي).

وعن أنس: أن النبي ﷺ سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة، فقيل: لا نعني أهلك. قال: أبو بكر، (صحيح على شرط الشيخين). ولما مات رسول الله ﷺ كان عمر السيدة عائشة ثماني عشرة سنة وعاشت بعده أربعين

---

(١) في الأصل (أبا) والصواب بالواو لأنه مبتدأ. المحقق.

(٢) الصواب (خمسمائة درهم) لا (خمسمائة ألف) كما ذكر المؤلف. والتصحيح من طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢٧٣ دار صادر بيروت. المحقق.

(٣) الأفضل (قالت) بدل (قلن). المحقق.

سنة، وتوفيت سنة سبع أو ثمان وخمسين سنة لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان بعد الوتر، وصلى عليها أبو هريرة لإمارته على المدينة حينئذٍ من قبل مروان.

وروت من الأحاديث عن رسول الله ﷺ (٢٢١٠) أحاديث ولها من العمر (٥٨) سنة ولها فضائل جمة ليس هنا مجال لذكرها.

وإن الحكمة من زواجه ﷺ بعائشة رضي الله عنها، بادية للعيان لكل دارس ومطلع، وهي أنه لما مات أبو طالب عم رسول الله ﷺ لشهر من موت خديجة، وسمي العام (عام الحزن) لقد فقد عليه الصلاة والسلام بموت عمه رجلاً كان يناضل عنه ويدفع كل مؤامرة تحاك على حبيب الله ومصطفاه، بل كل عداوة ويذود عن كرامة رسول الله ﷺ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ ولما رأى عداء قريش يشتدُّ عليه، رأى أن يوثّق الرباط بينه وبين قريش؛ فعقد على السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي إذ ذاك بنت سبع أو ثماني سنوات كما شرحت سابقاً [1]، فإن أباها أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان صدراً وجيهاً في قريش، واسع المال عزيز الجانب، يدلك على ذلك مسارعة النبي ﷺ بالعقد عليها، مع أنها قاصرة، وإنه لم يَبْنِ بها إلا بعد ذلك بنحو سنتين، ولم تدهش مكة حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعزّ صاحبين، وأوفى صديقين؛ استقبلتْهُ قريش كما تستقبل أمراً طبيعياً، لأن القصد منه إحكام الروابط بين رسول هذه الأمة وصدّيقها.

وكان من قبل خطبته لعائشة، كانت عند رسول الله ﷺ زوجته سودة بنت زمعة رضي الله عنها، وإليك ترجمتها.

٢٣٢ ـ ترجمة سودة بنت زمعة أم المؤمنين

بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد بن قيس بن عبد شمس رضي الله عنها ببضعة أشهر، تزوج ﷺ بسودة بنت زمعة رضي الله عنها القائلة: (والله! ما بي

(١) الذي ذكره المؤلف سابقاً وهو الصواب (أنه ﷺ عقد عليها وهي بنت ست سنين) ثم قال: (وفي رواية أنها كانت بنت سبع سنين). المحقق.

على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله تعالى يوم القيامة، زوجاً لرسول الله ﷺ)[1].

وسودة هذه من فواضل نساء عصرها، كانت قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ تحت ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو، ولما أسلمت وبايعت النبي ﷺ أسلم زوجها معها، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة، فلما توفي عنها، جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ألا تزوَّج؟ فقال: ومَنْ؟ قالت: سودة بنت زمعة قد آمنتْ بك واتبعتك، فقال النبي ﷺ: اذكريها عليَّ، فانطلقت خولة إلى سودة وأبوها شيخٌ قد حبس على الموسم فحيَّته بتحية الجاهلية فقال لها: أنعمت صباحاً، من أنت؟ فقالت: خولة بنت حكيم، فرحَّب بها، ثم قالت له: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر سودة ابنة زمعة فقال: هو كريم، فما تقولُ صاحبتُكِ؟ فقالت: هي تحب ذلك، فقال لها: قولي له فليأت، فأتى رسول الله ﷺ فتزوجها.

وكان زواج النبي ﷺ بسودة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة بمكة، على صداق قدره أربعمائة درهم، وهاجر بها إلى المدينة[2].

وكانت سودة تحب الصدقة، وهي ذات أخلاق حميدة، فقد قالت السيدة عائشة أم المؤمنين: (ما من الناس أحب إليَّ من أن أكون في مسلاخه من سودة بنت زمعة، إلا أن بها حدَّة)[3].

وروت سودة عن النبي ﷺ خمسة أحاديث، أخرج لها في الصحيحين حديث واحد[4]. وفي رواية أن البخاري روى لها حديثين وروى عنها: عبد الله بن عباس، ويحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد[5] بن زرارة

---

(١) أنظر كتاب (حياة محمد ﷺ) لمحمد حسين هيكل ص ٢٧٥.
(٢) أنظر (أعلام النساء) لعمر رضا كحالة ج ٢ ص ٢٦٨.
(٣) الاستيعاب لابن عبد البر.
(٤) أنظر كتاب المجتنى لابن الجوزي.
(٥) في الأصل (سعد) بدل (أسعد). المحقق.

الأنصاري، وروى لها أبو داود والنسائي. وتوفيت سودة بالمدينة في شهر شوال سنة (٥٤)[١] هـ في خلافة معاوية.

والمغزى من زواجه ﷺ بسودة[٢] ظاهر للعيان، فيه الحكمة والحماية لامرأة أسلمت وخاف عليها من الضياع، وجبراً لها على فقد زوجها، رضي الله عنها وأرضاها.

٢٣٣ ـ غزوة أُحُدٍ

وكانت يوم السبت ١٥ شوال سنة ٣ من الهجرة عام (٦٢٥)م

لم يهدأ منذ وقعة بدرٍ لقريش بالٌ، ولم تُغْنِها غزوةُ السويق شيئاً، وزادتْها سرية زيد بن حارثة التي أخذَتْ تجارتها حين سلوكها سبيلَ العراق إلى الشام، حرصاً على الثأر، واذكاراً لقتلى بدرٍ، وكيف لقريشٍ نسيانُهم وهم أشراف مكة وساداتُها، وذوو النخوة والكرامة من كُبَّارها، وكيف لها نسيانُهم، وما تزالُ نساءُ مكة تذكرُ كلٌّ منهنَّ في القتلى لها ابناً أو أخاً أو أباً أو زوجاً أو حميماً، فهي له تتوجَّعُ، وعليه تبكي. هذا وكانت قريشٌ منذ قدم أبو سفيان بن حرب بالعير التي كانت سببَ بدرٍ من الشام، وعاد الذين شهدوا بدراً، وسلموا من القتل فيها، قد وقفتِ العيرَ بدار الندوة؛ واتَّفَقَ كبراؤها: (جُبَيْرُ بن مطعم، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهلٍ، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزَّى وغيرُهم) على أن تباعَ العير، وأن تُعزلَ أرباحُها، وأن يجهَّزَ بها جيشٌ لقتال محمد في يثرب، يكون الجيشُ جراراً في عَدده وعُدَّتهِ، وأن تستنفرَ بها القبائل. ليشاركوا قريشاً في أخذهم بالثأر من المسلمين وقد استنفروا معهم (أبا عَزَّةَ الشاعر) الذي عفا عنه النبيُّ ﷺ من أسرى بدرٍ، كما استنفروا معهم من اتَّبعهم من الأحابيش وأصرَّت النسوة من قريش؛ على أن يسرن مع الغزاة؛ فتشاور القوم، فمن قائل بخروجهنَّ: (فإنه أقمنُ أن يحفظكم

---

(١) عن كتاب (مناقب أمهات المؤمنين) لعبد الرحمن بن عساكر.

(٢) لم يذكر في الأصل كلمة (بسودة). المحقق.

ـ اي يغضبكم ـ ويذكركم قتلى بدرٍ، ونحن قوم مستميتون، لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا. أو نموت دونه).

ومن قائلٍ: (يا معشر قريش! هذا ليس برأي أن تعرضوا حُرَمَكم، ولا آمنُ أن تكونَ الدَّبْرَةُ عليكم ـ الهزيمة ـ فَتَفْضَحُوا في نسائكم). وبينما هم يتشاورون، صاحَتْ هندُ بنت عتبة زوج أبي سفيان بمن يعترضُ خروج النساء: (إنك والله سلمتَ يوم بدرٍ، فرجعتَ إلى نسائك، نعم نخرج فنشهد القتال، ولا يردُّنا[1] أحدٌ كما رُدَّتِ الفتياتُ في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة ـ مكان بين مكة والمدينة ـ فقتلتِ الأحبةُ يومئذٍ). أن لم يكن معهم من يحرضهم.

وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهنَّ هند، وهي أشدهنَّ على الثأر حرقةً، فقد قُتل يوم بدرٍ أبوها وأخوها وأعز الناس عليها؛ خرجت قريش تقصد المدينة في ثلاثة ألويةٍ عُقدت في دار الندوة، وعلى اللواء الأكبر منها طلحة بن أبي طلحة وهم ثلاثة آلافٍ، ليس معهم من ثقيفٍ سوى مائة رجلٍ، وسائرهم من مكة ساداتها ومواليها وأحابيشها وقد أخذوا معهم من العدّة والسلاح الشيء الكثير، وقادُوا مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير، ومن بينهم سبعمائة دارع.

تهيأ القومُ للمسير بعد أن أجمعوا عليه، والعباسُ بن عبد المطلب عم النبي ﷺ بينهم، واقف على أمرهم، مطلع على كل دقيق وجليل من شأنهم، وكان العباس على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحسُّ لمحمدٍ شعور العصبية وشعور الإعجاب، ويذكر له حسن معاملته إياهُ يوم بدرٍ. ولعل الإعجاب بحسن صنيع الرسول ﷺ يوم بدر معه، والعصبية اللذين جعلاه يشهد مع النبي ﷺ بيعة العقبة الكبرى وخاطب الأوس والخزرج: بأنهم إن لم يكونوا مانعي ابن أخيه، مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوهِ لأهله يذودون عنه[2]. هما

---

(١) ضبطها المؤلف (يردّنا) بفتح الدال المشددة. والصواب الرفع. المحقق.

(٢) في هذا الكلام نظر لأن شهود العباس مع النبي ﷺ بيعة العقبة وخطابة للأوس والخزرج بما ذكر كان قبل بدر بل قبل الهجرة. المحقق.

اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير في هذا العدد الضخم إلى أن يكتب كتاباً يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعُدَّتهم وعديدهم؛ ويدفع به إلى رجل غفاريّ، يسير به إلى النبي ﷺ حتى يبلغ المدينة، في ثلاثة أيام فيدفعه إليه، والرسول ﷺ في مسجد قباء، يأخذه ويعطيه إلى أبي بن كعب، فقرأه عليه، ثم استكتمه الرسول ﷺ على ما في الكتاب، وعاد ﷺ إلى المدينة، فقصد سعد بن الربيع في داره، فقصَّ عليه ما بعث العباس به إليه، واستكتمه أيضاً إياه، على أن زوج سعد كانت بالمنزل، وكانت تسمع ما دار بينهما من الحديث، فلم يبق سراً، وبعث الرسول ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة، يتنطَّسان خبر قريش، فألفياها قاربت المدينة، وأطلقتْ خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وبعث ﷺ من بعدهما، الحُبَاب بن المنذر بن الجموح.

فلما جاءه من خبرهم بالذي أخبره العباس، أخذتْهُ الحيرة عليه الصلاة والسلام،وخرج سَلَمةُ بن سَلامة، فإذا طليعة خيل قريش تقترب من المدينة، وتكاد تدخلها، فعاد فخبَّر قومه بمارأى؛ وخشي الأوسُ والخزرجُ وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التي أعدَّتْ لها قريشٌ خيرَ ما أعدَّتْ في تاريخ حروبها، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبي ﷺ، وحُرست المدينة كلها طيلة الليل، فلما أصبحوا جمع النبي ﷺ أهل الرأي من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام ــ المنافقين ــ وجعلوا يتشاورون، كيف يلقون عدوَّهم؟

رأى النبي ﷺ أن يتحصَّنوا بالمدينة، وأن يدعوا قريشاً خارجها، فإذا حاولوا اقتحامها، كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلُّب عليهم؛ ورأى عبد الله بن أبيّ بن سلول رأي النبي ﷺ وقال: (لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها، ونجعل النساء والأطفال في هذه الصَّياصيّ، ونجعل معهم الحجارة. وَنَشْبِكُ المدينةَ بالبنيان، وقاتلنا بأسيافنا في السِّكَكِ، إن مدينتنا عذراء ما فُضَّتْ علينا قط، وما دخل علينا عدوٌّ فيها إلا أصبناه، وما خرجنا إلى عدوٍّ قط منها إلا أصاب منا، فدعهم يا رسول الله، وأطعني في هذا

الأمر، فإني ورثتُ هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم).

وكان كلام ابن أبيّ هذا، هو رأي الأكابر من أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين ومن الأنصار، كما كان رأي الرسول ﷺ؛ لكن فتياناً من ذوي الحميَّة لم يشهدوا بدراً، ورجالاً شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها، وملأ الإيمانُ قلوبهم، أن ليس لقوَّة أن تغالبهم، أو تتغلب عليهم، أحبُّوا الخروج إلى العدوّ وملاقاته حيث نزل، مخافة أن يظنَّ أنهم كرهوا الخروج، وتحصَّنوا بالمدينة جُبْناً عن لقائه؛ ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربةٍ منها، أقوى منهم يوم كانوا ببدرٍ، لا يعرف أهلوهم من أمرهم شيئاً؛ قال قائل منهم: (إني لا أحبُّ أن ترجع قريشٌ إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه.

مُجرّئة لقريش، وها هم هؤلاء قد وطئوا سَعَفَنَا، فإذا لم نَذُبَّ عن عرضنا ــ عن وادينا المشجر ــ لم يزرع، وإن قريشاً قد مكثَتْ حولاً تجمع الجموع، وتستجلب العربَ من بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاءونا قد قادوا الخيل، وامتطوا الإبل، حتى نزلوا بساحتنا، أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يُكْلَمُوا أي ــ يجرحوا ــ، لئن فعلنا لازدادوا جرأةً، ولشنُّوا الغارات علينا، وأصابوا من أطرافنا، ووضعوا العيونَ والأرصادَ على مدينتنا، ثم لقطعوا الطريق علينا؛ وتعاقب الدُّعاةُ إلى الخروج يتحدَّث كلٌّ حديثه، ويذكرون جميعاً أنهم إذا أظفرهم اللهُ بعدوهم، فذلك الذي أرادوا، وذلك الذي وعد اللهُ رسولَهُ بالحق، وإن همُ انهزموا أو استشهدوا كانت لهمُ الجنة.

وهزَّ حديثُ الشجاعة، وحديث الاستشهاد القلوب، واستنفر روح[1] الجماعة الأنفُسَ، لتجري كلها في هذا التيار، ولتتحدَّثَ كلها على هذه النغمة؛ فلم يبقَ تلك اللحظة أمام الجمع الماثل في حضرة[2] الرسول ﷺ الممتلىء القلب بالإيمان، بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر والحساب، إلا صورة

(١) ضبطت في الأصل (روح) والصواب بالرفع لأنه فاعل. المحقق.

(٢) في الأصل (حضر). المحقق.

الظفر بهذا العدو المعتدي، تُفرِّقُهُ سيوفهم أيدي سبأ، و يبعثه بأسهُم بدداً شذرَ مذر، وتستولي أيديهم على مغانمه ومحارمِه، وصورة الجنة التي أعدَّتْ للذين قُتلوا في سبيل الله، فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين، يلقَوْنَ فيها أحبتهم الذين شهدوا بدراً، واستشهدوا فيها، ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً، إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾(١).

قال خَيثمةُ أبو سعدٍ بن خيثمة: (عسى اللهُ أن يُظفرنا بهم، أو تكون الأخرى فهي الشهادة، لقد أخطأتني وقعةُ بدرٍ، وكنتُ عليها حريصاً، حتى بلغ من حرصي عليها، أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمُه فرُزق الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو يقول: الحَق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، وقد والله ِيا رسول الله أصبحتُ مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرتْ سنّي ورقَّ عظمي، وأحببتُ لقاءَ ربي).

فلما ظهرت الكثرةُ واضحةً في جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدوّ وملاقاته، قال لهم رسول الله ﷺ: إني أخاف عليكم الهزيمة؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج، فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم، وقد كانت الشورَى أساسَ نظامِه لهذه الحياة، فلم يكن ينفرد بأمرٍ إلا ما أُوحي إليه من عند الله تبارك وتعالى.

وكان اليوم يوم جمعة، فصلّى بالناس وأخبرهم أن لهم النصر ما صبرُوا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم؛ ودخل الرسول ﷺ بيته بعد صلاة العصر، ودخل معه أبو بكر وعمر، فعمَّماهُ وألبساهُ دِرْعَه، وتقلَّد سيفه ﷺ، والناس أثناء غيبته هذه في جدل يتحاورون.

قال أسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ وسعدُ بن معاذٍ رضي الله عنهما، وكانا ممن أشار بالتحَّصنِ بالمدينة، للذين رأوا الخروجَ منها: (لقد رأيتم رسول الله يرىَ التحصنَ بالمدينة فقلتم ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره، فردُّوا الأمر

---

(١) من سورة الواقعة الآيتان (٢٥ و ٢٦).

إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه): ولان الداعون للخروج لما سمعوا، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول ﷺ إلى شيء قد يكون لله فيه آية، فلما خرج إليهم لابساً درعه، متقلداً سيفه، أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا: (ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك، والأمر إلى الله ثم إليك).

قال رسول الله ﷺ: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم وما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، انظروا ما آمركم به فاتّبعوه، والنصر لكم ما صبرتم».

وكذلك وضع سيدنا محمد ﷺ إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام، فإذا تمَّ للكثرة رأي بعد بحث، لم يكن لها أن تنقضه لهوًى أو لغايةٍ، بل يجب أن ينفّذ الأمر على أن يحسن من يتولّى تنفيذه، ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحُهُ.

وتقدم القائد العظيم سيدنا محمد ﷺ بالمسلمين، مُتَّجهاً إلى أحدٍ، حتى نزل الشَّيْخين[1]، وهناك بصر بكتيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها، فقيل: هؤلاء حلفاء ابن أبيّ من يهود، قال ﷺ: لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا؛ فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة؛ إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبي يقولون له: لقد نصحته وأشرت عليه برأي من مضَى من آبائكَ، فكان رأيُه من رأيك، ثم أبى أن يقبله، وأطاع الغلمانَ الذين معه، وصادف حديثهم هوًى من نفس ابن أبيٍّ؛ فلما أصبحوا انخذل مع كتيبةٍ من أصحابه وبقي النبي ﷺ ومعه المؤمنون حقاً، وعددهم سبعمائة ليقاتلوا ثلاثة آلاف من المشركين الموتورين يوم بدر، وتخاذل ابن أبي وحلفاؤه المنافقون واليهود وكانوا ثلاثمائة رجلٍ.

وسار المسلمون الصادقون مع الصبح حتى بلغوا أُحُداً، فاجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهورهم؛ وجعل رسول الله ﷺ يصفُّ أصحابه وقد وضع منهم

(١) الشيخان: موضع كان به في الجاهلية أطمانِ فيها شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان، فسمي المكان الشيخين لذلك.

خمسين من الرماة على شعب في الجبل، وقال لهم: «احموا لنا ظهورَنا، فإنا نخافُ أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم، لا تَبرحُوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتلُ فلا تُعينونا ولا تدفعوا عنّا، وإنما عليكم أن ترشقُوا خيلَهم بالنبل، فإن الخيل لا تُقدم على النبل».

فأما قريشٌ فصفَّت صفوفَها، وجعلتْ على الميمنة خالدَ بنَ الوليد، وعلى الميسرة عِكرمةَ بن أبي جهلٍ، ودفعت اللواء إلى عبد العزَّى طلحة بن أبي طلحة، وجعلتْ نساء قريشٍ يمشين خلال صفوفها، يضربنَ بالدفوف والطبول، فيكنَّ تارة في مقدمة الصفوف وتارة في مؤخرتها، وعلى رأسهنَّ هند بنتُ عتبة، زوج أبي سفيان وهنَّ يقلْنَ:

وَيْـهـاً بني عـبـد الـدارْ وَيْـهـاً حـمـاةَ الأدبـارْ
ضَرْباً بكلِّ بتّارْ

و يقلنَ:

إن تُـقْـبـلُـوا نُـعـانِـقْ ونـفـرشُ النمـارقْ
أو تُـدبُـروا نُـفـارقْ فـراقَ غير وامِـقْ

واستعدَّ الفريقانِ للقتال، وكلٌّ يحرِّضُ رجاله؛ فأما قريشٌ فتذكر بدراً وقتلاها؛ وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره، والرسول ﷺ يخطب ويحضُّ على القتال، ويعد رجاله النصر ما صبروا.

٢٣٤ ــ قصة ــ أبي دُجانة سِمَاكِ بنِ خَرَشَةَ رضي الله عنه، وعصابة الموت

بعدما خطب الرسول ﷺ حاثّاً رجاله على الجهاد والصبر، مدَّ يده بسيف فقال: «من يأخذ هذا السيف بحقِّه؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دُجانة سِمَاكُ بن خَرَشَةَ أخو بني ساعدة فقال: وما حقُّه يا رسول الله؟ فقال: أن تضربَ به في العدوِّ حتى ينحني، وكان أبو دجانة رجلاً

شجاعاً له عصابةٌ حمراء، إذا اعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، وأنه أخرج عصابة الموت، فأخذ السيفَ، وأخرج عصابته وعصب بها رأسه، وجعل يتبختَرُ بين الصفين على عادته إذ يختال عند الحرب، فلما رآه الرسول ﷺ يتبختر قال: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه قال: (وجدتُ في نفسي حين سألت النبيَّ ﷺ السيف فنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، فقلتُ: والله لأنظرنَّ ما يصنع، فاتَّبعْته فأخذ عصابة حمراء، فعصبَ بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة (عصابة الموت). وهكذا كان أبو دجانة يقول: إذا عصب بها رأسه، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحنُ بالسفح لدى النخيلِ
ألا أقوم الدهر في الكيولي أضرب بسيف الله والرسولِ

فجعل لا يلتقي أحداً إلا قتله) رواه مسلم[1].

وأبو دجانة هذا شهد بدراً وأحداً، ودافع عن رسول الله ﷺ هو ومصعب بن عمير، وكثرت فيه الجراحات، وقتل مصعب، واستشهد أبو دجانة يوم اليمامة، رضي الله عنه وعن زميله مصعب.

٢٣٥ ــ بدء المناوشات وسير القتال

قامت مفرزة من قوات قريش بقيادة أبي عامر بن عمرو بن صيفي الأوسي بالهجوم على قوات المسلمين، فنشبت الحرب؛ وكان أبو عامر هذا قد انتقل من المدينة إلى مكة، يحرّضُ قريشاً على قتال محمد رسول الله ﷺ، ولم يكن ممن شهد بدراً مع قريش، فخرج إلى أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس ومن عبيد أهل مكة، وكانت المفرزة التي بإمرته، مؤلفة من هؤلاء الأفراد فقط؛ وكان يزعم لقريشٍ أنه إذا نادى أهلَهُ المسلمين من الأوس

(١) أنظر كتاب (دليل الفالحين شرح رياض الصالحين) الجزء الأول ص ٢٩٧ وكتاب سيرة ابن سيد الناس.

الذين يحاربون في صفوف النبي ﷺ استجابوا له، وانحازوا معه؛ ونصروا قريشاً.

خرج أبو عامر منادياً: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر، فأجابه الأوس: المسلمون: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق... ثم هاجموه.

ونشب القتال بين الطرفين بعد أن أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالقتال، وقد حاول أبو عامر كما حاول عكرمة بن أبي جهل أن يلتفّا على أجنحة المسلمين، ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة، ولم يكن من السهل الالتفاف على أجنحة المسلمين، لاستنادها على هضاب جبل أحدٍ؟ فأخفقتْ محاولات المشركين.

وهتف حمزةُ بنُ عبد المطلب رضي الله عنه بكلمة التعارف للمسلمين في أحدٍ (أمتْ أمتْ) ثم اندفع إلى قلب المشركين.

ونادى حامل لواء المشركين طلحةُ بنُ أبي طلحة: (من يبارز؟) فخرج إليه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقتله (١).

واندفع أبو دجانة، وفي يده سيف النبي ﷺ، وعلى رأسه عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، حتى شقَّ صفوف المشركين، ثم رأى إنساناً يحث المشركين على القتال، فحمل عليه بالسيف، فإذا بهند بنت عتبة تولول، فارتدَّ عنها أبو دُجانة، مكرّماً سيف النبي ﷺ أن يضرب به امرأة.

٢٣٦ ــ اشتداد القتال ومقتل السيد حمزة رضي الله عنه وسقوط صنم المشركين

اندفعت قريشٌ إلى القتال، يثورُ في عروقها طلبُ الثأر لمن قتل من أشرافها وسادتها منذ عام بدر، وكان من ورائهم نساؤهم يشجعونهم ويحثونهم (٢) على الاستبسال، وقد أعدَّتْ غير واحدةٍ منهنَّ مولًى، وعدتْهُ بالخير الوفير، لينتقم لها

(١) أنظر كتاب (قادة الفتح الإسلامي ــ الرسول القائد) ص ١٧٨.

(٢) الصواب (يشجّعنهم ويَحْثُثْنَهم). المحقق.

ممن فجعها ببدرٍ في أبٍ أو أخٍ أو زوجٍ أو عزيزٍ، وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشيّاً الحبشي مولى جُبَيْر خيراً كثيراً إن هو قتل حمزة، كما قال له جُبير بن مطعمٍ مولاهُ، وكان عمه قد قتل ببدرٍ: (إن قتلتَ حمزة عم محمدٍ فأنت عتيق).

وتربَّصَ وحشي بين الصفوف يترصَّدُ حمزة، حتى رآه في عرض الناس يحطّم أبطال المشركين، فصوَّبَ عليه حربته، وقذفَهُ بها، فأصابَتْ بطنَ حمزة أسفلَ سُرَّته، وخرجت من بين رجليه، فاستشهد على أثرها. وعلى الرغم من الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين باستشهاد حمزة، رضي الله عنه، فإن قواتهم بقيت مسيطرةً على الموقف تماماً، وأخذ لواء المشركين يسقط بين حينٍ وآخر؛ وقد حمل عثمانُ بن أبي طلحة اللواء بعد أن قتل عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه طلحة بن أبي طلحة؛ فلما لقي هذا مصرعه، حمله أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله علي بن أبي طالب أو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

وتعاقب حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، حتى قُتل منهم تسعة، ثم حمله مولًى لهم، وحملتْهُ امرأة بعد ذلك، لتفرق المشركين عنه.

زحفَتْ صفوف المسلمين، على صفوف المشركين بعد تصدّعها، فانهزم المشركون حتى أحاط المسلمون بنساء المشركين، وحتى وقع الصنم الذي احتملوه للتبرك به من فوق الجمل الذي كان يحمله.

وأخذ المسلمون يطاردون المشركين، حتى أبعدوهم عن معسكرهم، ثم عادوا يجمعون الغنائم.

ورأى الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ ألاَّ يبرحوا أماكنهم ولو رأوه وأصحابه يقتلون؛ فقال بعضهم لبعض: (لِمَ تقيمون ها هنا في غير شيءٍ، وقد هزم الله عدوَّكم، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم؟).

واختلفُوا فيما بينهم، أيتركون مواضعهم، أو يبقون فيها؟ فأصرَّ قائدهم عبد الله بن جُبَير على البقاء، وعصاهُ أكثرُهم، وانطلقوا ولم يبقَ معه غير نفر دون العشرة.

واشترك المنطلقون من الرماة في جمع الغنائم.

٢٣٧ ـ هجوم المشركين بعد ترك الرماة مواضعهم

انتهز خالد بن الوليد، فرصة ترك الرّماةِ لمواضعهم، وكان على ميمنة خيل المشركين، فهاجم مواضع الرماة التي تركوها، واستطاع إجلاء الباقين منهم عن مواضعهم، لقلة عَددهم، وعدم إمكانهم الصمود في موضعهم الواسع، بالنسبة لعددهم الذي أصبح قليلاً.

ولم يفطن المسلمون لهذه المباغتة، وصاح خالدٌ يعلنُ لقريشٍ بأنه التفَّ وراء المسلمين، فعادَتْ قريشٌ المنهزمة للقيام بهجومٍ مضاد ونادوا بشعارهم: (يا للعزَّى يا لهبل)، بينما قام خالد بالالتفاف من الخلف، فأصبح المسلمون مطوقين من جوانبهم كافة.

وتحرَّج موقف المسلمين، وأصبح خطيراً جداً، خاصة وأن صفوفهم لم تكن رصينة في مواضعها، لتستطيع الصمود، إذ تبعثر أفرادها لجمع الغنائم.

كانت حركةُ خالدٍ مباغتةً تامة للمسلمين لم يكونوا يتوقعونها، فتبعثرَ أكثرهم، وبقي منهم القليل إلى جانب النبي ﷺ يقاتلون، ليشقوا لهم طريقاً من بين قوات قريش التي أطبقت عليهم من كل جانب.

واستشهد كثير من المسلمين وهم يحاولون شقّ طريقهم، واستطاع المشركون أن يصلوا قريباً جداً من موضع النبي ﷺ، فرماه أحدهم بحجرٍ أصاب أنفه وكسر رباعيته، وتمالك النبي ﷺ نفسه وسار مع أصحابه الباقين، فإذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون، فأسرع إليه سيدنا علي بن أبي طالب وأخذ بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى.

أخذ المشركون يديمون زخم هجومهم للقضاء على النبي ﷺ وأصحابه، ونادى أحدهم: بأنه قتل محمداً، ولكن أصحاب النبي ﷺ استماتوا في الدفاع عنه.

كانت أم عمارة نسيبة الخزرجية قد خرجت أول النهار ومعها سِقَاءٌ لها فيه ماء، تدور على المسلمين، لتسقي المجاهدين؛ فلما أحاط المشركون بالمسلمين، وأصبح الخطر الداهم محدقاً بالنبي ﷺ نفسه ألقت نسيبة سقاءها، واستلَّتْ سيفاً، وأخذتْ تذود عن النبي ﷺ بالسيف، وترمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليها؛ وصدَّ أبو دجانة بجسمه النبال المنهالة صوب النبي ﷺ، فحمى[1] ظهره عليه، والنبل يقع فيه.

ووقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب النبي ﷺ يرمي بالنبل دونه، والنبي ﷺ يناوله النبل ويقول له: ارم سعد فداك أبي وأمي... وكان يترصد له إصاباته.

ورمى النبي ﷺ عن قوسه، حتى تحطمت القوس، وتساقط المسلمون حوله صرعى واحداً بعد الآخر مستقتلين[2] في الدفاع عنه... حتى استطاعوا شقَّ طريقهم عبر صفوف قريش إلى رابية مشرفة من روابي جبل أحد.

وتركت هذه الاستماتة أثرها في قريش، فتوقَّف زخمُ هجومهم قليلاً، واستفاد المسلمون من هذه الفرصة السانحة، فصعد النبي ﷺ بهم إلى جبل أحد.

وفي طريق صعوده رآهُ كعبُ بن مالك الذي كان مع المسلمين الذين تفرقوا عنه، لهول صدمة مباغتة قريش لهم، ولانتشار إشاعة مقتل النبي ﷺ، فنادى كعب بن مالك بأعلى صوته: (يا معشر المسلمين... أبشروا، هذا رسول الله ﷺ.

فلما سمعت قريشٌ صيحةَ كعبٍ لم يصدّقْها أكثرُهم، وحسبها صيحةً أريد بها شدُّ[3] عزائم المسلمين، إلا أن بعضهم اندفع وراء النبيّ ﷺ وصحابته، وتقدَّم أبيُّ بن خلف وهو يقول: (أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا) فطعنه

---

(١) الصواب (فحنى) بالنون لا بالميم. المحقق.

(٢) في الأصل (مستقيلين) بالياء. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٣) في الأصل (شدّ) والصواب الرفع لأنه نائب فاعل. المحقق.

النبي ﷺ بحربة الحارث بن الصمّة طعنة جعلته ينقلبُ على فرسه، ويعود أدراجه ليموت في الطريق، وما إن وصل إلى قومه حتى[1] سقط عن جواده قتيلاً بطعنة رسول الله ﷺ وكان أول قتيل قُتل بيد النبي ﷺ.

وصل المسلمون إلى هضبة مرتفعة من جبل أحدٍ، ولكنَّ خالد بن الوليد وصل بفرسانه قريباً منهم، فقام المسلمون عليه بهجومٍ مضادٍ، واستطاعوا صدَّ قواتِه.

وقد ذهبت كلُّ محاولات قريش للقضاء على المسلمين أدراج الرياح إذ تجمَّع المسلمون حول النبي ﷺ، وأصبحوا تحت قيادته، بعد أن كانوا متفرقين لجمع الغنائم أولاً، ونتيجة لصدمة المباغتة التي أجراها خالد بن الوليد بالالتفاف حول قواتهم وضربها من الخلف ثانياً، وبلغ الإعياء برجال قريش حداً بالغاً، وفشلت محاولاتهم الهجومية المتكررة، للقضاء على المسلمين نهائياً، فقرَّرَتْ قريشٌ إنهاء القتال. وقبل العودة أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوهُ، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوهُ، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوهُ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمهِ وعلم قريش أن قيام الإسلام بهم، فقال: أما هؤلاء فقد كُفيتموهم، فلم يتمالك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أجاب: (يا عدوَّ الله إن الذين ذكرتَهم أحياء، وقد أبقَى الله لكَ ما يسوءكَ، وإن محمداً يسمع كلامكَ الآن) فقال أبو سفيان: (يوم بيوم بدر، والحرب سجال)، ثم جعل يرتجز: (أعْلُ هبل... اعل هبل) فقال رسول الله ﷺ: (ألا تجيبونه؟) قالوا يا رسول الله بماذا نجيبه؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجلّ)، قال أبو سفيان: لنا العزَّى ولا عزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: ألا تجيبونه؟ فقالوا: بماذا نجيبه؟ فقال: قولوا: (الله مولانا ولا مولى لكم).

ولما انصرف أبو سفيان بن حرب ومن معه نادى: (وإن موعدكم بدر العام القابل)، فقال النبي ﷺ لرجل من أصحابه: (قل نعم، هو بيننا وبينك موعد).

---

(١) في الأصل (أن) بدل (حتى). المحقق.

وصدق الله العظيم حيث قال في كتابه الكريم: ﴿ولقد صَدَقَكُمُ الله وعده إذ تَحُسُّونَهم بإذنِه، حتى إذا فَشِلْتُمْ وتنازعتم في الأمر وعصيْتُمْ من بعدما أراكم ما تحبُّون، منكم مَنْ يريدُ الدنيا، ومنكم مَنْ يريدُ الآخرة، ثم صَرَفَكُمْ عنهم، ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذُو فضلٍ على المؤمنين﴾[1].

٢٣٨ ــ عودة المحاربين المشركين لمكة

عاد المشركون أدراجهم إلى مكة، فلما وصلوا إلى الروحاء[2]؛ سمع أبو سفيان بخروج المسلمين لقتاله، فخاف أن يكون النبي ﷺ قد جاء بقوات جديدة؛ فمرَّ به معبدُ الخزاعي، وكان قد مرَّ بمحمد ﷺ ومن معه، فسأله أبو سفيان عن المسلمين؟ فأجابه معبد ــ وكان لا يزال مشركاً ــ: (إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، وقد اجتمع معه من كان قد تخلَّف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً، ومنكم للثأر طلباً...).

قدَّر أبو سفيان أن اندحار قواته إذا اصطدم بالمسلمين ثانيةً معناه خسارة انتصاره في أحدٍ، والقضاء على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً؛ فلجأ إلى الحيلة، وبعث مع ركبٍ من بني عبد القيس، يقصدون المدينة، أن يبلِّغُوا محمداً: (أن أبا سفيان قد قرَّر السيرَ إليهم ليستأصل بقيتهم) ثم سارع بالرجوع إلى مكة.

٢٣٩ ــ وصول النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة المنورة

بعد عودة المشركين، ووصول النبي ﷺ وصحابته المدينة المنورة؛ قرَّر النبي عليه الصلاة والسلام: القيام بحركة جريئة، تخفف من وقع الهزيمة في أحدٍ، وتردُّ إلى المسلمين معنوياتهم، وتُدخل في روع اليهود والمنافقين الرهبةَ، وتعيد إلى المسلمين سلطانَهم بالمدينة المنورة قوياً كما كان...

---

(١) من سورة آل عمران آية (١٥٢).

(٢) الروحاء: موضع على طريق مكة ــ المدينة، ويبعد عن المدينة ثمانية أميال.

لذلك لم يخرج إلا بأصحابه الذين شهدوا غزوةَ أحدٍ، لمطاردة قوات قريش، فلما وصل إلى موضع (حَمْرَاء الأسد)[1] جاءه من يخبرهُ بأن قريشاً قَرَّرتْ السيرَ إليه، فلم تتضعضع معنويات المسلمين، وقرَّرُوا لقاء قريشٍ، وبقوا ينتظرون هناك هذا الوعد، ثلاثة أيامٍ؛ فلما علموا بانسحاب قريشٍ منصرفين لمكة، عادوا أدراجهم إلى المدينة.

وبهذه الحركة الجريئة استردَّ المسلمون كثيراً من مكانتهم التي فقدوها في وقعة أحدٍ.

٢٤٠ ــ خسائر الطرفين بأحدٍ

١ ــ من المشركين: (٢٢) رجلاً.

٢ ــ ومن المسلمين: (٧١) رجلاً وهم كل من الشهداء رضي الله عنهم[2]:

(من المهاجرين)

من قريش، ثم من بني هاشم بن عبد مناف

١ ــ حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.

٢ ــ عبدالله بن جحش: من بني أمية بن عبد شمس، هوحليف لهم من بني أسد بن خزيمة.

٣ ــ مُصْعَب بن عُمير: من بني مخزوم بن يقظة.

٤ ــ شمّاس بن عثمان.

(من الأنصار)

من الأوس ثم من بني عبد الأشهل:

٥ ــ عمرو بن مُعاذ بن النعمان.

٦ ــ الحارث بن أنس بن رافع.

---

(١) موضع على طريق المدينة مكة وهوعلى ثمانية أميالٍ من المدينة، إليه انتهى رسول الله ﷺ يوم أحد في طلب المشركين.

(٢) ليت المؤلف لم يذكر عبارة (كل من الشهداء رضي الله عنهم)، ليرتبط الكلام اللاحق بكلمة (وهم). المحقق.

٧ ــ عمارة بن زياد بن السكن.
٨ ــ سلمة بن ثابت بن وَقْشٍ.
٩ ــ عمرو بن ثابت بن وقش.
١٠ ــ ثابت بن وقشٍ (والدعمرو وسلمة).
١١ ــ رفاعة بن وقش (أخو ثابت).
١٢ ــ صيفي بن قيظي.
١٣ ــ حباب بن قيظي.
١٤ ــ عبّاد بن سهلٍ.
١٥ ــ الحارث بن سهل بن معاذ (ابن أخي سعد بن معاذ).
١٦ ــ حُسَيْل بن جابرٍ اليمان والد حذيفة بن اليمان.
١٧ ــ إياس بن أوس بن عتيك بن عمرو.
١٨ ــ عبيد بن التيهان.
١٩ ــ عَتيك بن التيهان.
٢٠ ــ حبيب بن زيد بن تيم.
٢١ ــ يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع من بني ظفر.
٢٢ ــ أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد. من بني عمرو بن عوف.
٢٣ ــ حنظلة بن أبي عامر بن صيفي، بن النعمان (غسيل الملائكة).
٢٤ ــ قيس بن زيد بن ضُبَيْعَة.
٢٥ ــ مالك بن أمية بن ضُبيعة.
٢٦ ــ أنيس بن قتادة (من بني عبيد بن زيد).
٢٧ ــ أبو حبة بن عمرو بن ثابت (من بني ثعلبه بن عمرو بن عوف).
٢٨ ــ عبدالله بن جُبَيْر بن النعمان (أمير الرماة).
٢٩ ــ خيثمة (والد سعد بن خيثمة).
٣٠ ــ عبدالله بن سَلِمَةَ (حليف من بني العجلان).
٣١ ــ سُبَيْع بن حاطب بن الحارث بن قيس بن هَبْشَة (من بني معاوية بن مالك).

٣٢ ــسُوَيبق بن الحارث بن حياطب بن هبشة.(من بني معاوية بن مالك).
٣٣ ــمالك بن عميلة (حليف لهم).
٣٤ ــالحارث بن عدي (من بني خطمة).
٣٥ ــعُمير بن عدي.
٣٦ ــعمرو بن قيس بن زيد (من بني النجار).
٣٧ ــقيس بن عمرو بن قيس (ابنه).
٣٨ ــثابت بن عمرو بن زيد.
٣٩ ــعامر بن مُخْلَد.
٤٠ ــأبو هُبَيْرة بن الحارث بن علقمة (من بني مبذول).
٤١ ــعمرو بن مُطَرِّف بن علقمة بن عمرو.
٤٢ ــأوس بن ثابت بن المنذر، أخو حسّان بن ثابت (من بني عمرو بن النجار).
٤٣ ــأنس بن النضر بن ضمضم (عم أنس بن مالك خادم النبي ﷺ من بني عدي بن النجار).
٤٤ ــقيس بن مُخْلد (من بني مازن بن النجار).
٤٥ ــكَيْسان (عبد لهم).
٤٦ ــسليم بن الحارث (من بني دينار بن النجار).
٤٧ ــنعمان بن عبد عمرو (من بني دينار بن النجار).
٤٨ ــخارجة بن زيد بن أبي زهير (من بني الحارث بن الخزرج).
٤٩ ــأوس بن أرقم بن زيد (من بني الحارث بن الخزرج).
٥٠ ــسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير (من بني الحارث بن الخزرج).
٥١ ــمالك بن سنان (والد أبي سعيد الخدري) من بني الأبجر.
٥٢ ــسعيد بن سويد بن قيس.
٥٣ ــعتبة بن ربيع بن رافع.
٥٤ ــثعلبة بن سعد بن مالك بن خالد (من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج).

٥٥ ــ ثَقَف بن فروة بن البدن.
٥٦ ــ عبدالله بن عمرو بن وهب (من بني طريف رهط سعد بن عبادة).
٥٧ ــ ضَمْرة (حليف لهم من جهينة).
٥٨ ــ نوفل بن عبدالله (من بني عوف بن الخزرج ثم من بني سالم ثم بني مالك بن عجلان).
٥٩ ــ عباس بن عباده بن نَضْلة.
٦٠ ــ نعمان بن مالك بن ثعلبة بن فهر.
٦١ ــ المَعْذَر بن زياد البلَوى (حليف لهم).
٦٢ ــ عُبادة بن الْحَشْحَاس.
٦٣ ــ عبدالله بن عمرو بن حَرام (والد جابر بن عبدالله) من بني سلمة ثم من بني حرام.
٦٤ ــ عمرو بن الجموح.
٦٥ ــ خلاّد بن عمرو بن الجموح.
٦٦ ــ أبو أيمن (مولى عمرو بن الجموح).
٦٧ ــ سُلَيْم بن عمرو بن حديدة.
٦٨ ــ عنترة (مولى سُلَيم بن عمرو).
٦٩ ــ سهل بن قيس بن أبي كعب.
٧٠ ــ ذكوان بن عبد قَيس (من بني زريق بن عامر).
٧١ ــ عبيد بن المعلى بن لوذان من بني حبيب. رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل الجنة مثواهم ومأواهم، اللهم آمين.

٢٤١ ــ أسباب انهزام المسلمين في موقعة أحدٍ

كان أبو سفيان بن حرب، هو الذي قاد قريشاً كلها يوم أحدٍ، ولم يكن بأعلم من رسول الله ﷺ بقيادة الجيش وتنظيمه، لكن أبا سفيان استطاع أن يجنّد عدداً كبيراً من قريش، فكان عددهم (٣٠٠٠)

رجل، فيهم (٧٠٠) دارع، ومعهم (٢٠٠) فرس؛ أما مجموع الذين خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ (٧٠٠) رجل منهم (١٠٠) مائة دارع، ولم يكن فيهم سوى فرسين، لأن عبد الله بن أبي انخذل عن رسول الله بثلث الناس وعاد بهم إلى المدينة.

ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن صفّ المسلمين بأصل جبل أحد، وجعل الرماة على جبل صغير، يحمون ظهورهم، وأمرهم بأن لا يبرحوا مكانهم، قائلاً لهم: (احموا ظهورنا حتى لا يأتونا من خلفنا) طمعوا في الغنيمة وهبطوا تاركين مركزهم؛ وبذلك تمكّنَ خالد بن الوليد من الكَرّ على المسلمين بالخيل من الخلف، فانكشفوا، ووقع الاختلاط بينهم، وذاع في الجيش أن محمداً قتل؛ فازداد ارتباك المسلمين، وفروا منهزمين، وفرّ بعضُهم إلى المدينة.

نعم إن الرسول ﷺ لم يتزحزح عن مركزه، وشاهده بعض الصحابة، فالتفوا حوله، وثبتوا معه، وقاتلوا قتالاً شديداً، حتى إن سعد بن أبي وقاص قد رمى وحده بألف سهم، ورمى رسول الله ﷺ عن قوسه، حتى اندقت سِيَتها[1]، واستطاع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يهبط الطائفة التي علت الجبل من قوات قريش، لكن هذا كله كان بعد أن وقعت الهزيمة بالمسلمين، بسبب مخالفتهم أمر رسول الله ﷺ، فقد كانوا منتصرين في بدء المعركة، وقد شرحت لك يا أخي كيف بدأت وكيف تحولت من نصر المسلمين إلى خذلانهم.

٢٤٢ ــ حقيقة النصر والخذلان في وقعة أحدٍ

جاء في كتاب الرسول القائد[2]: لقد أجمع المؤرخون على اعتبار نتيجة وقعه أحدٍ، نصراً للمشركين على المسلمين؛ ولكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما أجمع عليه المؤرخون.

---

(١) في الأصل (سبتها) بالباء لا بالياء. والتصحيح من الطبري جـ ٣ ص ١٨ المطبعة الحسينية المصرية. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (قادة الفتح الإسلامي ــ الرسول القائد) ص ١٩٢ لمؤلفه الزعيم الركن محمود شيت خطاب.

لقد كان بإمكان المشركين القضاء على قوات المسلمين في معركة أحدٍ، بعد أن استطاعوا إحاطتهم من كل الجوانب بقوات متفوّقة عليهم فواقاً ساحقاً، ومع ذلك استطاع محمد ﷺ أن يشقّ طريقه بين القوات المحيطة به، ويخلّص تسعة أعشار قواته من فناء أكيد. إن فشل المشركين في القضاء على قوات المسلمين بعد إحاطتهم بقواتهم المتفوّقة يعتبر إخفاقاً لهم.

وإن نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين بخسائر نسبتُها عشرة بالمائة من قواتهم القليلة يعتبر نصراً لهم.

وبالإضافة إلى نجاح المسلمين في التخلص من الفناء التام في معركة أحدٍ؛ فقد نجحُوا في معرفة المنافقين بين صفوفهم قبل المعركة وبعدها، مما أتاح لهم القيام بالتطهير العام في صفوفهم بعد أحدٍ، على هدىً وبصيرةٍ.

وبذلك تظهر الفائدةُ العظيمةُ لغزوة أحدٍ للمسلمين.

إن نتيجةَ معركةِ أحدٍ نَصْرٌ تعبوي للمشركين على المسلمين، ولكنها فَشَلٌ سَوْقي للمشركين؛ ولا يعدُّ النصرُ التعبويُّ شيئاً يذكر، إلى جانب الفشل السوقي[1]، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلونَ إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قَرْحٌ[2] فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثله، وتلك الأيامُ نداولها بين الناس، وليعلم اللهُ الذين آمنوا[3]، ويتخذ منكم شهداء، واللهُ لا يحب الظالمين، وليمحّصَ اللهُ

---

(١) التعبية: الأعمال العسكرية في المعركة، أو هي الأعمال العسكرية التي تؤثر على سير معركة واحدة، والسوق: هو الإستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب، أو هو الأعمال العسكرية التي تؤثر على سير الحرب كلها، ذلك هو تعريف السوق والتعبية بصورة موجزة للغاية تعطي فكرة للمدنيين فقط، إذ أن لكل من هذين الأصطلاحين تعريفات كثيرة طويلة تستغرق كثيراً من كتب فنّ الحرب، ومن ذلك يتضح أن السوق يعني نتائج الحرب كلها، بينما التعبية تعني نتائج معركة واحدة محلّية.

(٢) قرح: أي جراح.

(٣) أي ليميز بين المؤمنين والمنافقين.

الذينَ آمنوا ويمحق الكافرين، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين﴾[1] أ هـ.

٢٤٣ ـ استشهاد سعد بن الربيع رضي الله عنه، ووصيته

بعد وقف القتال، وانسحاب قريش للعوده إلى مكة؛ قال رسول الله ﷺ: من رجل ينظر، ما فعل سعدُ بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ لأنَّ النبي ﷺ رأى الأسنة قد أشرعت إليه.

فقال رجل من الأنصار هو أبيُّ بن كعب رضي الله عنه، أنا أنظر إليك[2] يا رسول الله، ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى، وبه رمق، وقد طعن اثنتي عشرة طعنة، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال سعد: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خيراً[3]. ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم، إنه لا عذر لكم عند الله أن يخلص[4] إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف، قال ثم لم أبرح أن مات، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره، فقال رسول الله ﷺ: (رحمه الله نصح لله والرسول حيّاً وميتاً).

وكان سعدُ بنُ الربيع كاتباً في الجاهلية، ومن النقباء يوم العقبة وشهد بدراً، واستشهد في وقعة أحد.

إن سؤال رسول الله ﷺ عن سعد بن الربيع في مثل هذا المأزق الحرج، هو من شدة عطفه ومحبته ﷺ لأصحابه، وهذا خلق عظيم في القائد الرسول العظيم؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يسأل عنهم في الحرب، كما يسأل عنهم في حالة

---

(١) أنظر سورة آل عمران الآيات: (١٣٨-١٤٢).

(٢) الصواب (لك) انظر الطبري جـ ٣ ص ٢٤ المطبعة الحسينية المصرية. المحقق.

(٣) نص العبارة بالمصدر السابق (خير ما يُجزي نبي عن أمته). المحقق.

(٤) أي يصل إليه شيء من الأذى.

السلم، ويهتم بشؤونهم الدنيوية والأخروية، ويسأل عنهم إن غاب أحدهم، لذا فإنهم كانوا يحبونه حباً جماً، يفوق كل حب، ويدافعون عنه إلى آخر رمق من حياتهم، ويخشون أن يصل إليه أي أذى؛ وإن نصيحة النقيب الكبير سعد بن الربيع لقومه بالمحافظة على رسول الله ﷺ، وهو يجود بنفسه، ويلفظ آخر أنفاسه أكبر شاهد ودليل على ما قلتُ.

وقد كان قتادة بن النعمان يتقي السهام بوجهه دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخر سهم قد وقع في عينه فندرت منه حدقتُهُ، فأخذها بيده، وسعى بها إلى رسول الله ﷺ فردَّها عليه الصلاة والسلام، وكانت أحسن عينيه.

وهكذا تتجلَّى لنا محبة النبي ﷺ لأصحابه، ومحبتهم له.

٢٤٤ ــ دفن قتلى أحد وتفقد الرسول ﷺ لعمه الحمزة

أمر النبي ﷺ بدفن شهداء أحد، ولم يصلِّ على أحد منهم ولم يغسلهم، وحمل أناس موتاهم ليدفنوهم بالمدينة، فجاءهم منادي رسول الله ﷺ يقول: ردُّوا القتلى إلى مضاجعهم، فأدرك المنادي واحداً، وهو شماس بن عثمان المخزومي، فإنه قتل وحمل إلى المدينة وبه رمق، فقال رسول الله ﷺ احملوه إلى أم سلمة، فحمل إليها، فمات عندها، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَدَّ إلى أحد، فيدفن هناك، ولم يكن قد دفن بالمدينة.

أما من دفن بالمدينة فأبقوه؛ وقال رسول الله ﷺ: انظروا عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا، فاجعلوهما في قبر واحد.

والتمس ﷺ عمه حمزة، فوجده مبقور البطن ومجدوع الأنف والأذنين، فساءه التمثيل به، فقال: لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلنَّ بثلاثين منهم؛ ولما رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً في الدهر لنمثلنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحدٌ من العرب.

فالمثلة: كانت تقترفها العرب في الجاهلية في الحروب انتقاماً من أعدائهم إذا بلغ منهم الغيظ مبلغَهُ.

لكن الإسلام حرمها لشناعتها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله عز وجلّ أنزل في قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين، واصبرْ وما صبرُكَ إلا بالله ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾[1].

فعفا رسول الله ﷺ ونهى عن المثلة وقال: «أصبر وأحتسب».

هذا ما نهى عنه الدين الإسلامي الحنيف، ونهىَ عنه قوادُ الجيوشِ الإسلامية جيوشَهم؛ لكنَّا نرَى بعضَ جيوشِ الدول المتمدنة تقترفُ المثلة بأعدائها، وهم يزعمون: أن الدين الإسلامي دين همجية ووحشية، ويا للأسف لهذا الادعاء، والزعم المكذوب.

٢٤٥ ــ رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة ودعاؤه المأثور

وخرج والمسلمون حوله، وعامتُهم جرحىٰ، ومعه أربع عشرة امرأة كُنَّ بأصل أحدٍ وقال: اصطفُّوا حتى أثني على ربي عز وجل ــ فكان ﷺ يحب النظام ــ فاصطفَّ الرجال خلفه صفوفاً وخلفهم النساء، فقال: «اللهمَّ لكَ الحمدُ كله، لا قابضَ لما بسطتَ، ولا باسط لما قبضتَ، ولا هادي لمن أضللتَ، ولا مضلَّ لمن هديتَ، ولا معطي لما منعتَ، ولا مانع لما أعطيتَ، ولا مقرب لما أبعدتَ ولا مبعدَ لما قربتَ» الحديث...

ثم عاد إلى المدينة، يهدىء روعَ نساءِ القتلى، ويدعو لهنَّ، وقد نهاهنَّ عن اللطم وحلق الرؤوس، وتخميش الوجوه، وشقِّ الجيوب.

---

(١) من سورة النحل، الآيات (١٢٦و١٢٧).

٢٤٦ ــ غزوة أحدٍ في كتاب الله عز وجل

١ ــ أنزل الله تبارك وتعالى من القرآن في غزوة أحدٍ ستين آية في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿وإذ غَدَوْتَ من أهلكَ تُبَوِّىء المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ، والله سميعٌ عليمٌ، إذ همَّتْ طائفَتانِ منكم أن تَفْشَلاَ، والله وَليهُما، وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون﴾(١). زعم أكثر العلماء بالمغازي: أن هذه الآية نزلت في وقعة أحدٍ، وقد كان المسلمون يومئذٍ كثيرين، فلما انشقوا وخالفوا أمر الرسول ﷺ انهزموا.

٢ ــ وقال تعالى: ﴿ليس لكَ من الأمرِ شيءٌ، أو يتوبَ عليهم أو يعذِّبَهم فإنهم ظالمون﴾(٢).

نزلت هذه الآية في وقعة أحدٍ لأن النبيَّ ﷺ لما شجَّهُ عتبة بن أبي وقاص، وكسر رباعيته، جعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى الله؟» فنزلت هذه الآية.

وقيل: إنه لعن أقواماً، فنزلت هذه الآية.

٣ ــ وقال جل شأنه: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِهِ الرسلُ أفَإن ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابِكم، ومن ينقلبْ على عقبيهِ، فلن يَضُرَّ الله شيئاً، وسيجزي اللهُ الشاكرين﴾(٣).

لما وقع الصراخُ بأن محمداً قُتل كما تقدم ذكره في غزوة أحدٍ، قال بعضُهم: لو كان نبياً لما قُتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم.

فقال أنسُ بن النضر عم أنس بن مالك: (يا قوم! إن كان قد قُتل محمدٌ، فإن رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ قاتلوا

---

(١) الآيتان (١٢١و١٢٢) من سورة آل عمران.

(٢) من سورة آل عمران آية (١٢٨).

(٣) من سورة آل عمران الآية (١٤٤).

على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهمَّ إني أعتذر إليك مما يقولُ هؤلاء).

ثم سلَّ سيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه، ولما شجَّ وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، احتمله طلحة بن عبيد الله ودافع عنه أبو بكر وعلي رضي الله عنهما ونفرٌ آخرون معهم.

ثم إن رسول الله ﷺ جعل ينادي ويقول: «إليَّ عباد الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هزيمتهم، فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك، فاستولى الرعبُ على قلوبنا، فولَّينا هاربين.

وقد ذكر الله تعالى الحكمة فيما أصاب المؤمنين بمخالفتهم أمر النبي ﷺ وعرفهم سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب المخالفة، بما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله القائد، أن لا يبرحوا عنه بقوله تعالى:

٤ ــ ﴿ولقد صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إذ تَحُسُّونَهُمْ بإذنه، حتى إذا فَشِلْتُمْ وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبُّونَ، منكم مَنْ يريدُ الدنيا، ومنكم من يريدُ الآخرةَ، ثم صرفكم عنهم، ليبتليَكم، ولقد عفا عنكم، والله ذُو فَضْلٍ على مؤمنين﴾ (١).

وقال تعالى تعزيةً لأصحاب رسول الله ﷺ على ما أصابهم من الجراح والقتل في موقعة أحد:

٥ ــ ﴿ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ إنْ كنتُمْ مؤمنين﴾ (٢).

يعني لا تضعفوا بالذي نالكم من عدوِّكم بأحدٍ من القتل والقروح عن الجهاد، وعن جهاد عدوكم وحربهم، ولا تحزنوا على ما أصابكم، ولا تأسوا على

---

(١) من سورة آل عمران آية (١٥٢).

(٢) من سورة آل عمران آية (١٣٩).

ما نالكم، فتجزوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذٍ، فأنتم الأعلون، يعني الظاهرون عليهم، ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين.

ففي ذلك بشارة في المستقبل الزاهر من النصر المبين على عدوكم، من الله تعالى، ومنه وحده النصر، ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾[1]. اللهم انصر عبادك المؤمنين على عدوك وعدوهم يا رب العالمين.

٢٤٧ ــ غزوة حمراء الأسد في طلب العدو

حمراء الأسد: هو اسم موضع على ثمانية أميالٍ من المدينة، وكانت الغزوة هذه، صبيحة يوم الأحد؛ لأن وقعة أحدٍ كانت يوم السبت وحصلت هذه لست عشرة مضت من شهر شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة المحمدية، وكانت لطلب العدو الذين كانوا بالأمس.

قال الواقدي: باتت وجوهُ الأنصار على باب النبي ﷺ، فلما طلع الفجر، وأذَّنَ بلالٌ بالصلاة، جاء عبد الله بن عمرو المزني فأخبر النبي ﷺ أنه أقبل من عند أهله بملل ــ اسم موضع قرب المدينة المنورة ــ إذا قريش قد نزلوا، فسمعهم يقولون ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول: لا تفعلوا، فإن القوم قد غضبوا، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلَّف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم، فقال رسول الله ﷺ أرشدهم صفوان وما كان برشيدٍ، والذي نفسي بيده: لقد سُوِّمَتْ لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كالأمس الدابر (الذاهب)[2].

ولما صلى رسول الله ﷺ الصبح ندب الناس، وأذَّنَ مؤذِّن رسول الله ﷺ بالخروج، أي أمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو، وأن

---

(١) جزء من الآية رقم (١٠) من سورة الأنفال. المحقق.

(٢) كلمة (الذاهب) من كلام المؤلف تفسيراً لكلمة (الدابر). المحقق.

لا يخرج معنا أحد إلا من خرج معنا أمس، يعني من شهد أحداً، وأراد بذلك إظهار الشدة بالعدوّ[1]، والزيادة في تعظيم من شهد أحداً، ومنع بذلك اختلاط المنافقين؛ لم يشهد هذه الغزوة، إلا من شهد أحداً، عدا جابر بن عبد الله فإنه قال لرسول الله ﷺ: إن أبي خلفني يوم أحدٍ على أخوات لي سبع، فلم أشهد الحرب، فأذن لي أن أسير معك، فأذن له رسول الله ﷺ، فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال غيره.

وبعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم، طليعة في أثر القوم؛ فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد، فبصروا بالرجلين فقتلوهما، ومضى رسول الله ﷺ، ودليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة بن الخزرج حتى عسكر بحمراء الأسد، فوجد الرجلين فدفنهما؛ وكان رسول الله ﷺ مجروحاً، وفي وجهه أثرُ الحلقتين، فقال لطلحة: يا طلحة لن ينالوا منها مثلها حتى يفتح الله علينا مكة، وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا ابن الخطاب إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن.

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نارٍ، حتى ترى من المكان البعيد، وذهب صوتُ معسكرهم ونيرانهم في كل وجهٍ فكبتَ الله بذلك عدوَّهم.

وكان اللواء بيد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واستعمل على المدينة ﷺ عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله قَذَفَ في قلب أبي سفيان الرعب بعد الذي كان منه يوم أحدٍ، فرجع إلى مكة، ثم رجع رسول الله ﷺ بأصحابه، ووصلوا المدينة يوم الجمعة، وقد غاب خمساً وظفر ﷺ عند رجوعه إلى المدينة بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وهو جد عبد الملك بن مروان فأمر بقتله.

---

(١) لعل المؤلف يقصد (إظهار القوة للعدو). المحقق.

٢٤٨ ــ سرية عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه

بعث الرَّجيع

الرجيع ماء بهذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف كما قاله ابن إسحاق والواقدي، وإنما أضيف البعث إلى اسم ذلك الماء، لأن الوقعة كانت بالقرب منه، وكانت في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة سنة (٦٢٥)م.

وسببها: أن بني لحيان من هذيل، مشوا إلى عضل والقارة وهما قبيلتان من بني الهون بن خزيمة بن مدركة، فجعلوا لهم إبلاً على أن يكلموا رسول الله ﷺ أن يُخرج إليهم نفراً من أصحابه، فقدم سبعة نفر مظهرين الإسلام، فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك، يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام؛ وقيل: إنه ﷺ أراد أن يبعث عيوناً إلى مكة ليأتوه بخبر قريش؛ فلما جاء هؤلاء النفر، يطلبون مَنْ يفقههم، بعث معهم ستة من أصحابه للأمرين جميعاً؛ وهذه البعثة مؤلفة من: (عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخبيب بن عدي الأوسي البدري، وزيد بن الدثنّة، وعبد الله بن طارق، وخالد بن البكير).

خرج هؤلاء، حتى أتوا الرجيعَ، فغدرُوا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلاً، ليعينوهم على قتلهم، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، فأخذ عاصم بن ثابت ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا،: إنا والله لا نريد قتلكم، ولكن عهد الله وميثاقه ألاّ نقتلكم، وقالوا ذلك، لأنهم يريدون أن يُسَلِّمُوهم لكفار قريش، ويأخذوا في مقابلتهم مالاً، لعلمهم أنه لا شيء أحب إلى قريش من أن يأتوا بأحدٍ من أصحاب محمدٍ ﷺ يمثّلون به ويقتلونه بمن قُتل منهم ببدرٍ وأحدٍ، فأبوا أن يقبلوا منهم، فأمّا مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا والله لا نقبل من مشرك عهداً وقاتلوا حتى قُتلوا.

وأما زيد وخبيب وعبدالله بن طارق فلانوا ورقّوا ورغبوا في الحياة، فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة، ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا

بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القِرانِ، ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القومُ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبرُه بالظهران؛ وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدّثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما، فابتاع خبيباً حُجَيْر بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل، وكان حُجَيْر أخاً [1] للحارث بن عامر لأمه، ليقتلَهُ بأبيه؛ وأما زيد بن الدثنة فقد ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وكان شراؤهما في شهر ذي العقدة، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، فقتلوا زيداً، وأما خبيب فقد مكث أسيراً، حتى خرجت الأشهرُ الحرمُ، ثم أجمعوا على قتله، وكانوا في أول الأمر أساءوا إليه في حبسه فقال لهم: ما يصنع القومُ الكرام هكذا بأسيرهم؟ فأحسنوا إليه بعد ذلك، وجعلوه عند امرأةٍ تحرسه وهي ماوية مولاة حُجَيْر، وقد قالت ماوية: كان خبيب يتهجد بالقرآن فإذا سمعه النساء بكينَ ورققْنَ عليه، فقلتُ له: هل لكَ من حاجة؟ قال: لا، إلا أن تسقيني العذبَ ولا تطعميني ما ذُبِحَ على النصب ــ الأوثان ــ وتخبريني [2] إذا أرادوا قتلي؛ فلما أرادوا ذلك أخبرته، فوالله ما اكترث بذلك؛ ولما خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوهُ، قال: ذروني أصلي ركعتين فتركوهُ، فصلّى سجدتين، فجرَتْ سُنَّةً لمن قُتل صبراً، أن يصلي ركعتين لله تعالى، ثم قال خبيب: لولا أن يقولوا جزع من الموت لزدتُ من الصلاة، ولا أبالي على أي شقي كان لله مصرعي ثم قال:

ولستُ أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان لله [3] مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصالِ شلوٍ ممزع

اللهمَّ أحصهم عدداً، وخُذْهم بدداً؛ ثم رفعوهُ إلى خشبةٍ، فلما أوثقوهُ إليها، نظر إليهم بعينٍ مُغْضَبةٍ وصاح: (اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً) فأخذتِ القومَ الرجفةُ من صيحته، واستلقوا إلى جنوبهم، حذرَ أن

(١) في الأصل (وكان حجيراً أخ) والصواب رفع الأول لأنه فاعل. ونصب الثاني لأنه مفعول به. المحقق.
(٢) الصواب (وتخبريني). المحقق.
(٣) لعل الصواب (في الله). المحقق.

تُصيبَهم لعنتُه، ثم ضربه أبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف فقتله.

وهكذا استشهد هذا البطل خُبَيْبٌ، كما استشهد زيد في سبيل الله وفي سبيل دينه ونبيه محمدٍ ﷺ؛ وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران، وكان في استطاعة صاحبيها أن يستنقذاهما من القتل، إذا رضيا الردة عن دينهما، لكنهما في يقينهما بالله، وبالروح وبيوم البعث، يوم تُجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ، ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرَى، رأيَا الموتَ وهو غاية كل حيٍّ، خيرَ ما يكون غايةً للحياة في سبيل العقيدة، وفي سبيل الإيمان بالحق، ولكنهما آمنَا، بأن دمهما الزكيّ، الطهور، الذي أريق على أرض مكة، سيدعو إليها إخوتَهم المسلمين يدخلونها فاتحين، يحطمون أصنامها، و يطهرونها من رجس الوثنية والشرك، و يردُّونَ فيها إلى الكعبة بيت الله، ما يجب لبيت الله من تقديس وتنزهٍ عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله، وليس هذا ببعيدٍ.

عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: لما أرادوا قتلَ خُبيب ووضعوا فيه السلاح والرماح والحراب وهو مصلوب نادوهُ وناشدوهُ أتحبُّ أن محمداً مكانكَ؟ قال: لا والله ما أحبُّ أن يفديني بشوكةٍ في قدمه.

وقيل: إن زيد بن الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله، فأجابهم بمثل ذلك، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً يحب أحداً، كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً؛ وإن الذي قتل زيداً نسطاسُ.

وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعدٍ بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنَها[1] يوم أحدٍ، لئن قدرَتْ على رأس عاصم لتشربنَّ في قحفه الخمر، فمنعتْهُ الدَّبْر[2] (الدبابير) فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوهُ حتى يمسي، فتذهب عنه، فنأخذه، فبعث اللهُ

(١) في الأصل (ابنُها) بضم النون والصواب الفتح لأنه مفعول به. المحقق.
(٢) في الأصل (الدُّبر). والصواب ما أثبتناه. والدَّبْر هو النحل. المحقق.

سيلاً، فاحتمل عاصماً، فذهب به، وكان عاصمٌ قد أعطى الله عهداً أن لا يمسّهُ مشركٌ أبداً، ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً منه.

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدبرَ منعته: (عجباً لحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصمٌ نَذَرَ أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع في حياته)(١).

حزن النبيُّ ﷺ وحزن المسلمون لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا في سبيل الله بغدر هُذَيلٍ بهم، ورثاهم حسَّانُ بن ثابت رضي الله عنه، ومما قاله في رثاء خبيب رضي الله عنه:

ما بالُ عَيْنِكَ لا تَرْقَا مَدامِعُهَا ... سحّاً على الصدرِ مثلَ اللؤلؤِ الفَلِقِ(٢)
على خُبَيْبٍ فتَى الفتيانِ قد علِمُوا ... لا فَشلٍ حينَ تلقاهُ ولا نَزِقِ(٣)
فاذهَبْ خُبَيبُ جزاكَ اللهُ طيّبَةً ... وجنَّةَ الخلدِ عند الحُورِ في الرُّفَقِ(٤)
ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ... حينَ الملائكةُ الأبرارُ في الأُفُقِ
فيمَ قتلتُم شهيدَ اللهِ في رجلٍ ... طاغٍ قد أَوْعَثَ في البُلدانِ والرُّفَقِ(٥)

وقال حسان في خبيب أيضاً بعد القصيدة الأولى هذه:

يا عينُ جودي بدمعٍ منك مُنْسَكِب ... وابكي خُبَيْباً مع الفتيانِ لم يُؤَبِ(٦)
صَقْراً توسَّطَ في الأنصارِ مَنْصِبُهُ ... سَمْحَ السجيةِ محضاً غيرَ مُؤْتَشِبِ(٧)
قد هاجَ عيني على علاّتِ عَبْرَتِها ... إذا قيلَ نُصَّ إلى جذعٍ من الخشَبِ
يا أيها الراكبُ الغادي لِطيَّتِهِ ... أبلغْ لديك وعيداً ليس بالكذب

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٨١.
(٢) لا ترقا: أي لا تنقطع.
(٣) ولا نزق: أي سيء الخلق.
(٤) الحور: الحوراء. والرفق: جمع رفيق.
(٥) أوعث: اشتد فساده، ونظراً لتكرار الرفق في البيتين وهو عيب فنقول (في الطرق). قاله ابن هشام وهو في ج ٣ ص ١٧٢.
(٦) فنسكب: سائل، ولم يؤب: لم يعد ولم يرجع.
(٧) سمح: ليّن سهل، والسجية: الطبيعة، والمحض: الخالص من الشوائب.

بني كهينةَ إن الحرب قد لَقِحتْ محلوبَها[1] الصَّابُ إذ تُمري لمحتلبِ[2]
فيها أسودُ بني النجَّارِ تقدمُهم شُهْبُ الأسنةِ في معصوصبٍ لَجِبِ[3]

٢٤٩ ــ سرية بئر معونة

سرية المنذر بن عمرو الخزرجي

(أو سرية القراء)

بئر معونة: اسم لموضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان.

جاء في كتاب معجم البلدان: أنها بين أرض عامرٍ، وحرة بني سليم.

كانت هذه السرية في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة سنة (٦٢٥) م،على رأس أربعة أشهر من وقعة أحُدٍ.

وكان من أمرها كما قاله ابن إسحاق عن شيوخه: أنه قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري، ويعرف بملاعب الأسنة، فعرض النبيُّ ﷺ عليه الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال له: يا محمد إني أرى أمركَ هذا حسناً شريفاً، وقومي خلفي، فلو أنك بعثت معي نفراً من أصحابك لرجوتُ أن يتبعُوا أمركَ، فإنهم إن اتبعوك فما أعز أمرك، فقال ﷺ: إني أخشى أهل نجدٍ عليهم، فقال: أنا لهم جار، فبعث ﷺ المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون؛ فلما وصلوا بئر معونة بعثُوا حرام بن ملحان أخا أم سليم خال أنس بن مالك رضي الله عنه بكتابه ﷺ إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي العامري، وهو ابن أخي أبي براء، فلم ينظر في الكتاب بل وثب على حرام فقتله، واستصرخ بني عامر قومه، فأبوا، وقالوا لا نخفر جوار أبي براء ــ أي لا ينقض عهده ــ فاستصرخ عليهم قبائل من سليم عُصَيَّة ورِعْلاً

(١) في الأصل (محلوبُها) بالرفع والصواب بالنصب لأنه مفعول به مقدم. المحقق.
(٢) شد الحرب بناقةٍ قد صارت لاقحاً.
(٣) المعصوصب: الجيش الكثير، واللجب: كثير الأصوات.

وذكوان، فنفرُوا معه، ورأسوهُ، واستبطأ المسلمون حرام بن ملحان فأقبلوا في أثره، فلقيهم القومُ، فأحاطوا بهم فكاثروهم فتقاتلوا، فقُتِلَ أصحابُ رسول الله ﷺ، وجاء خبرُ أهل بئر معونة لرسول الله ﷺ فقال: هذا سببه عمل أبي براء حيث أخذهم في جواره، قد كنتُ لهذا كارهاً متخوفاً؛ فبلغ ذلك أبا براء فمات عقب ذلك أسفاً على ما صنع ابنُ أخيه عامر بن الطفيل، ومات عامرُ بن الطفيل، بضربة ربيعة بن أبي براء انتقاماً لموت أبيه وخفر جواره.

وبلغ من حزن رسول الله ﷺ أنه ظلَّ شهراً كاملاً يدعُو الله بعد أداء فريضة الفجر، لينتقم لهم من قَتَلَتِهِمْ، وتأثر المسلمون جميعاً لهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين وإن آمنوا بأنهم جميعاً استشهدوا وبأنهم جميعاً لهم الجنة.

وكان حزن النبي ﷺ عظيماً، لأنه لم يرسلهم لقتال إنما هم مبلِّغُون رسالته، وقد جرت عادة العرب قديماً، بأن الرسل لا تقتل.

قال ابن هشام في سيرته: كانت حادثة أصحاب بئر معونة في شهر صفر على رأس أربعة أشهر من وقعة أحد(١).

قال عبدالله بن رواحة يرثي نافع بن بديل بن ورقاء:

رحم الله نافعَ بن بُدَيْلٍ ... رحمةَ المبتغي ثوابَ الجهادِ
صابرٌ صادق وَفِيٌّ إذا ما ... أكثرَ القومُ قال قول السدادِ

وقال حسَّانُ بنُ ثابتٍ يرثي شهداء بئر معونة:

على قتلَى معونةَ فاستهلّي ... بدمع العينِ سَحّاً غيرَ نَزْرِ(٢)
على خيلِ الرسولِ غداةَ لاقَوْا ... ولاقتهم منايَاهم بِقَدْرِ
أصابهمُ الفناءُ بِعَقْدِ قومٍ ... تُخُوِّنَ عقدُ حبلهمُ بغدرِ(٣)

---

(١) أنظرها في ج ٣ ص ١٨٣.
(٢) استهلي: أسيلي دموعك والسح: الصب الكثير، والنزر: القليل.
(٣) تخون: انتقض.

فـيـا لهفي لـلـنـذرِ إذ تـولّـى وأعـنـقَ في مـنـيّـتـهِ بـصبر[1]
وكـائـنْ قد أصيبَ غداةَ ذاكـم مِنَ ٱبْيَضَ ماجدٍ من سرِّ عَمرو[2]

٢٥٠ ــ موقف يهود المدينة ومنافقوها من هذه الأحداث

وجد أهل المدينة من المنافقين واليهود ومن حولها، ما قد أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة، ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريشٍ بأحدٍ، وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد، وما أضعف في نفوسهم من هيبة الرسول العظيم محمدٍ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ومن هيبة أصحابه الكرام.

فكّر الرسول ﷺ في هذه الحالة تفكير سياسي دقيق النظر، بعيد مرامي الرأي، فليس شيء أشد على المسلمين يومئذٍ خطراً من أن تضعف في نفوس مُسَاكنيهم بالمدينة هيبتُهم، وليس ما يُطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلي، يوشك أن يُثيرَ حرباً أهليةً، إذا غزا المدينة غازٍ من جيرانها؛ ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يَتَربَّصُونَ به الدوائر، فقدَّر أن لا شيء خيرٌ من أن يستدرجهم، لتتضح نيَّاتُهم؛ ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر؛ فقد ذهب إلى محلَّتهم على مقربةٍ من قُباء في عشرةٍ من كبَار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلي، وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ، ومن غير أن يعلم أن محمداً أجارهما.

وكان من أمر عمرو بن أمية الضمري أنه كان أسيراً في أيدي جماعة عامر ابن الطفيل، فقال عامر هذا لعمرو: قد كان على أمي نسمةٌ فأنت حرٌّ عنها، وجزَّ ناصيتَهُ، فأعتقه عن رقبةٍ زعم أنها كانت على أمه.

فلما قدم على رسول الله ﷺ قال له: أُبْتُ من بينهم؛ وكان عمرو لما خرج إلى المدينة صادف بمحلٍّ يسمّى القرقرة رجلين من بني عامر ثم

---

(١) أعنق: أسرع السير.

(٢) سر القوم: خالصهم ولبابهم.

من بني كلاب، فنزلا معه في ظلٍّ كان هو فيه، وكان معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: ومن أنتما؟ فذكرا له: أنهما من بني عامرٍ، فتركهما حتى ناما فقتلهما، وظن أنه ظفر بثناء أصحابه الذين قتل ذووهم [1] ببئر معونة، وجاء وأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال له: بئس ما صنعت، قد كان لهما مني أمان وجوار.

لذا ذهب إلى بني النضير حلفاء بني عامر وطلب منهم معاونتهم؛ فلما ذكر لهم ما جاء فيه، أظهروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لإجابته؛ ولكنه ما لبث أن رأى تآمرهم، ويذهب أحدُهم إلى ناحية، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف، ويدخل أحدُهم (عمرو بن جحاش بن كعب) البيت الذي كان محمدٌ ﷺ [2] مستنداً إلى جداره؛ إذ ذاك رابه أمرُهم، وزاد ريبةً ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به؛ لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره.

أما اليهود فقد اختلط عليهم الأمر، ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب محمدٍ، ولا ما يصنعون بهم، فإن هم غدروا بهم، فمحمد لا ريب أنه منتقم منهم شر انتقام، وإن هم تركوهم فلعلَّ ائتمارهم بحياة محمدٍ وأصحابه لا يكون قد افتضح فيظل ما بينهم وبين المسلمين من عهدٍ قائم؛ وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رابهم من غير أن يشيروا بشيء منه؛ لكن أصحاب محمدٍ استبطأوه، فقاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، عرفوا منه أن النبيَّ ﷺ قد دخلها، وأنه قصد توّاً إلى المسجد فيها، فذهبوا إليه؛ فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود، ومن اعتزامهم الغدرَ به، وتنبَّهوا إلى ما كانوا رأوا، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول ﷺ وما أوحيَ إليه؛ وبعث النبيُّ عليه الصلاة والسلام يدعو إليه محمد بن مسلمة وقال له: اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: «إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم

---

(١) في الأصل (ذويهم) بالياء. والصواب ما أثبتناه لأنه نائب فاعل مرفوع بالواو. المحقق.

(٢) لم يذكر في الأصل (ﷺ). المحقق.

العهد الذي جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشراً، فمن رُئِيَ بعد ذلك ضُرِبَتْ عنقُه».

وأبلستْ بنو النضير ــ أي يئست وتحيرت ــ فلم يجدوا لهذا الكلام دفعاً، ولم يحيروا عنه جواباً إلا أن قالوا لا بن مسلمة: يا محمد ما كنّا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس، وذلك إشارة، إلى تحالفهم وإياهم من قبل، في حرب الخزرج، فكان كل ما أجاب به ابن مسلمة (تغيّرت القلوب) فمكثوا على ذلك أياماً.

وإليك يا أخي القارىء ما حدث بعد؛

٢٥١ ــ غزوة بني النضير

بنو النضير: هو اسم قبيلةٍ من اليهود الذين كانوا بالمدينة، وكانوا هم وبنو قريظة، نازلين بظاهر المدينة في حدائق وآطامٍ لهم، كما ذكر ذلك ابن ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان.

قال أهل السير: لما قدم اليهود المدينة، نزلوا السافلة فاستوخموها فأتوا العالية، فنزل بنو النضير بُطحان، ونزل بنو قريظة مهزوراً، وهما واديان يهبطان من حرَّة هناك، تنصبُّ منها مياهٌ عذبةٌ، فاتخذ بنو النضير الحدائق والآطام ــ حصوناً[1] ــ وأقاموا بها.

وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة، وكانوا يمتلكون نخيلاً بجوار المدينة.

كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، على رأس سبعة وثلاثين شهراً تمر من هجرته ﷺ عام (٦٢٥) م. شرحت لك يا أخي القارىء قبل قليل: أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني النضير، وقد خلا بعضهم إلى بعض وتآمروا على قتله ﷺ وقال عمرو بن جحاش[2] بن

---

(١) في الأصل (حصون). والصواب ما أثبتناه لأنه اسم مصروف منصوب. المحقق.

(٢) في الأصل (حجاش). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

كعب بن بَسيل النضري: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة، فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليخبرنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، وجاء رسول الله الخبر بما همُّوا، فنهض سريعاً، كأنه يريد حاجةً، فتوجَّه إلى المدينة ولحقه أصحابه.

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئي بعد ذلك ضُرب عنقُه.

فمكثوا على ذلك أياماً، يتجهزون، وأرسلوا إلى ظهرٍ لهم بذي الْجَدَر وتكاروا من ناسٍ من أشجع إبلاً، فأرسل إليهم ابن أ بي بن سلول لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصنكم، فإن معي ألفين (٢٠٠٠) من قومي، وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غَطَفان، فطمع حييٌّ فيما قال ابن أبيّ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك؛ فأظهر رسولُ الله ﷺ التكبير، وكبَّر المسلمون لتكبيره؛ فسار إليهم النبيُّ ﷺ في أصحابه فصلَّى العصر بفضاء بني النضير وسيدنا عليٌّ رضي الله عنه يحمل رايته، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، فلما رأوا رسول الله ﷺ قاموا على حصونهم ومعهم النبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، فلم تُعنهم، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم؛ فحاصرهم ﷺ وقطع نخلهم، فقالوا: نخرج عن بلادك، فقال: لا أقبله اليوم، ثم قال لهم: اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبلُ إلا الحلقة ــ الدروع والسلاح ــ فرضوا بذلك ونزلوا عليه، وكانت مدة حصارهم خمسة عشر يوماً.

احتمل بنو النضير من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به؛ فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان من سار من أشرافهم إلى خيبر سلاّم بن أبي الحقيق، وكنانة ابن الربيع ابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلُها.

لما أيقن بنو النضير بالجلاء، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم، فجعلوا يخربونها من داخلٍ، وقد كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم، مما يستحسنونه، أو الباب فيهدمون بيوتهم، و ينزعونها ويحملونها على الإبل.

وقد حملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وحزن المنافقون عليهم حزناً شديداً، لكونهم إخوانهم؛ وقبض رسول الله ﷺ ما تركوه من الأموال والدروع والسلاح، فوجد خمسين درعاً، وخمسين بيضة وهي الخوذة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، فكانت أموال بني النضير مختاراً لرسول الله ﷺ، قسّمها بين المهاجرين، ليرفع بذلك مئونتهم عن الأنصار، قال ابن إسحاق: وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ خاصةً يضعها حيث يشاء، فقسّمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ. ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان هما: يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها.

وقُتل في هذه الغزوة عزوك، وكان شجاعاً رامياً من بني النضير قتله سيدنا علي رضي الله عنه، ثم بعث رسول الله ﷺ أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة، ليدركوا الذين فرُّوا من سيدنا علي رضي الله عنه فقتلوهم وطرحوا رؤوسهم في بعض الآبار.

قال ابن إسحاق: ونزل في أمر بني النضير سورة الحشر الشريفة بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته، وما سلط عليهم به رسول الله ﷺ، وما عمل به فيهم.

وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنهما سورة الحشر قال: قل: سورة النضير.

ليس من العسير أن يقدّر الإنسانُ قيمة نصر المسلمين، وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدمته من تقدير الرسول ﷺ لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رؤوسهم

كلما أصاب المسلمين شرٌّ، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء.

وقد اطمأنت المدينة بعد إجلاء بني النضير عنها، فلم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها، واغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود، واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم، وتنفَّسَ الكلُّ الصعداءَ، وكانت فترةَ سكينةٍ وهدوء وطمأنينة، استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً.

وأقول: وأنا فرح بجلاء بني النضير الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، وتآمرهم على حياته الشريفة عندما حاولوا رميه بالصخرة، فالحمد لله على ما تم من نصر مبين وتطهير للمدينة وتوحيد للجبهة الداخلية فيها، بعد أن كان هؤلاء يعيثون فساداً بين أهلها، بمؤازرة المنافقين، فذاقت وبال تآمرها خسراً، وردَّ اللهُ كيدهم عليهم، ونصر المسلمين بحسن طويتهم مع الله تعالى.

وإليك يا أخي القارىء ماذا حدث بعد ذلك من التشريع الإسلامي حيث نزل تحريم الخمر.

٢٥٢ ــ تحريم الخمر أثناء غزوة بني النضير للتشريع الإسلامي.

في السنة الرابعة من الهجرة أثناء غزوة بني النضير حُرِمَت الخمر؛ قال جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: يا رسولَ الله! أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال؟

فنزل فيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿يسألونَكَ عن الخمرِ والميسرِ قل فيهما إثمٌ كبيرٌ، ومنافعُ للناسِ[1]، وإثمهُما أكبر من نفعهما﴾.

فشربها قومٌ وتركها آخرون؛ ثم إن عبد الرحمن بن عوف دعا ناساً فشربوا وسكروا، فقام بعضُهم يصلي المغربَ، فقرأ (قل يا أيها الكافرون أعبدُ ما

(١) أنظر سورة البقرة آية (٢١٩).

تعبدون[1]) فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارَى حتى تعلموا ما تقولون﴾[2].

فَقَلَّ شاربوها؛ ثم اجتمع قومٌ من الأنصار، وفيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار، حتى أنشد سعدٌ شعراً فيه هجاء للأنصار، فضربه أنصاري بلحْي بعيرٍ ــ عظم الحنك ــ فشجَّهُ شجةً موضحة، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فإنها تذهب بالعقل والمال، فنزل قولُ الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ، والأنصابُ والأزلامُ رجْسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكم تُفلحون، إنما يريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذكرِ اللهِ وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون﴾[3]. فقال عمر: انتهينا يا رب.

والحكمة في تحريم الخمر تدريجاً على هذا الترتيب من حكمة الله عز وجل، لأن القوم كانوا قد ألفوا شُرْبَها، وكان انتفاعهم بذلك عظيماً في المادة والمال لا في الجسم، فإنها تضرُّ ضرراً بليغاً، فهي تقلّص الأعصاب، وتشنج العروق، وتتلف الكبد، لذا علم الله أنه لو منعهم دفعةً واحدة لشقَّ ذلك عليهم.

روى أبو داود في سننه عن الشعبي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة: من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة)، قال الخطابي: وتخصيص الخمر بهذه الأشياء الخمس ليس لأجل أن الخمر لا يكون إلا من هذه الخمسة بأعيانها، وإنما جرى ذكرها خصوصاً لكونها معهودة في ذلك الزمان.

والخمر الذي حرمه الشارع هو ما خامر العقل أو ستره؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ عمر رضي الله عنه على منبر النبي ﷺ يقول: (أما بعد:

---

(١) وهذا خطأ والصواب لا أعبد ما تعبدون.

(٢) من سورة النساء آية (٤٣).

(٣) من سورة المائدة الآيتان (٩٠و٩١).

أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة، من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل[1]).

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسكر كثيرهُ فقليله حرام».

وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفرق[2] فملء الكفّ منه حرام». ونهى رسول الله ﷺ عن كل مسكرٍ ومفترٍ.

وقد حرَّم الخمرَ بعضُ الناس في الجاهلية، وقيل: إن أول من حرَّمها الوليدُ بن المغيرة، وقيل: قيس بن عاصم السعدي، ومنهم مقبس بن صبابة السهمي، وعبد المطلب، وأبو طالب، وقصي بن كلاب، وورقة بن نوفل، وشيبة بن ربيعة وغيرهم.

وقد انتشرت المسكرات في بلاد المسلمين، وراجت تجارتها حتى دخلت القرى والأرياف ومضارب البدو، وقد ضعف رجال الدين عن إبطالها، واقتصروا على الوعظ والإرشاد.

اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٢٥٣ ــ غزوة بدرٍ الأخيرة[3] للمواعدة بين أبي سفيان والرسول ﷺ

تذكَّر النبي ﷺ قولة أبي سفيان: (يومٌ بيوم بدرٍ والموعد العام المقبل) ودعوته لمحمدٍ ﷺ للقائه ببدرٍ مرة أخرى؛ وكان العام عام جدبٍ، وكان أبو سفيان يودُّ لو يُؤجِّلُ اللقاء إلى عام آخر.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الفَرَق بفتحتين: مكيال يقال إنه يسع ستة عشر رطلاً.

(٣) أطلق المؤرخون عليها (الآخرة) لا (الأخيرة). المحقق.

خرج رسول الله ﷺ إلى بدرٍ، ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، وذلك في شهر شعبان، واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجي رضي الله عنه، وحمل اللواء سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخرج أبو سفيان في قريش، وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً حتى نزل موضعاً قريباً من مرِّ الظهران، ثم بدا له الرجوع فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصبٍ، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدبٍ وإني راجعٌ فارجعوا، فرجع ورجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

هذه حيلة دبَّرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريدُ حرباً، بل خرج لئلا يقال أخلف وعده ولم يخرج، على أنه لم يعارضه أحدٌ من قريش في الرجوع، فكان الجيش كذلك لا يريد الحرب.

وكان أبو سفيان قد بعث إلى المدينة شخصاً اسمه (نعيم) ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو ليحملهم على عدم الخروج، وذلك ليكون له عذر في الرجوع إلى مكة، ولكن رسول الله ﷺ لم يبال بما سمع من كثرة عدد الجيش، وتثبيط همة الناس، فقال: والذي نفسي بيده! لو لم يخرج معي أحدٌ لخرجت وحدي.

وأقام ﷺ ببدرٍ ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، وفي هذه المدة باع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا ربحاً كثيراً.

وفي بدر الآخرة هذه نزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿الذينَ قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلُوا قل فادرءُوا عن أنفسكمُ الموتَ إن كنتم صادقين. ولا تحسبنَّ الذينَ قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقُون. فَرحينَ بما آتاهمُ اللهُ من فضلهِ ويستبشرونَ بالذين لم يَلْحَقُوا بهم من خلفهم ألاَّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ، وأن الله لا يُضيعُ أجر المؤمنين، الذين إستجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابَهمُ القَرحُ لِلَّذينَ أحسنُوا منهم واتقَوْا أجرٌ عظيم، الذين قال لهُم

الناسُ إن الناسَ قد جمعُوا لكم فاخشَوْهم فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا اللهُ ونعْم الوكيل، فانقلبُوا بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ، لم يَمْسَسْهُمْ سوءٌ، واتبعُوا رضوانَ اللهِ، واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ، إنما ذلكمُ الشيطان يخوّفُ أولياءه، فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾[1].

لذا نرى أن غزوة بدرٍ الآخرة، محتْ آثارَ أحُدٍ محواً تاماً، ولم يبق لقريشٍ العاتية، إلا أن تنتظر عاماً آخر، رازحةً تحت عارٍ من جبنها وخوفها من جنود رسول الله ﷺ، الذين يطلبون الشهادة ابتغاء مرضاة الله تعالى، وجُبْنُ قريش هذا لا يقل وطأة من عار هزيمة أبي سفيان وجنده، في بدرٍ الأولى.

وعاد الرسولُ الكريم إلى المدينة المنورة ليستريح إلى نصر الله تعالى إياه، مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهم، حذِراً دائماً من غدرهم، باثّاً عيونه في كل النواحي.

وإليك يا أخي ما حدث بعد؛

٢٥٤ ــ غزوة ذات الرقاع أو بني ثعلبة ومحارب وبني أنمار

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهري ربيع[2] وبعض شهر جمادى؛ ثم غزا نجداً، يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان نخل، وهي ذات الرقاع، فلقي بها جمعاً من غطفان، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، ثم انصرف المسلمون.

وسبب خروجه ﷺ إلى هذه الغزوة أنه بلغه أنهم جمعوا جموعاً لمحاربته عليه الصلاة والسلام؛ فأخبر أصحابه وأمرهم بالتجهيز، ثم خرج في أربعمائةٍ من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذرٍ الغفاري رضي الله عنه،

(١) من سورة آل عمران الآيات من (١٦٨ إلى ١٧٥).

(٢) يقصد: ربيع الأول وربيع الثاني. المحقق.

وقيل: عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسار إلى أن وصل إلى موضع يسمَّى وادي الشقرة، وبثَّ السرايا فرجعوا إليه من الليل، وأخبروه أنهم لم يروا أحداً، فسار حتى نزل نخلاً، وهو موضع من نجد من أراضي غطفان، فلم يجد في مجالسهم إلا نسوة فأخذَهنَّ، فبلغ الخبرُ القومَ. فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال؛ ثم اجتمع جمعٌ منهم وجاءوا لمحاربة جيش رسول الله ﷺ وأخاف الناس بعضهم بعضاً، ولم يكن بينه وبين القوم حربٌ.

وفي هذه الغزوة وقعت قصة الرجل الذي اخترط سيف النبي ﷺ وهو نائم تحت الشجرة واسمه دعثور[1].

وقد جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه ــ هو الشجر ذو الشوك ــ فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة ــ شجرة طلح ــ فعلَّقَ بها سيفه؛ قال جابر فنمنا نومة، ثم إذا برسول الله ﷺ يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابي جالسٌ، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظتُ وهو في يده صلتاً مجرداً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلتُ: الله، فها هو ذا جالسٌ.

ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[2]. وعفا عنه بعد إسلامه[3][4].

إنني سأشرح للسادة القراء ما حدث بعد ذلك فيما يلي من الغزوات.

٢٥٥ ــ غزوة دومة الجندل، ما بين الحجاز والشام

دومة الجندل مدينة بينها و بين دمشق خمس ليالٍ، و بعدها عن المدينة خمس

---

(١) الأرجح اسمه (غورث) كما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق ص ١٢٠ جـ ٣ طبع دار الجيل/بيروت. وكما ذكر بدليل الفالحين أن اسمه (غورث) أو (غويرث) وهو غورث بن الحارث. انظر ص ١٨ جـ ٢ المجلد ١ دار الكتاب العربي /بيروت. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٩٢.

(٣) ورأيت إسلامه في كتاب سيرة الأمين المأمون. وفي كتاب دليل الفالحين ج ١ ص ٢٦٧.

(٤) الصواب أن إسلامه كان بعد العفو لا قبله. انظر المصدر السابق. المحقق.

عشرة ليلة، وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة تقع بالقرب من تبوك، وهي أول غزوة في الأراضي الشامية.

وكانت هذه الغزوة في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة سنة (٦٢٦) م وهي واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع بين البحر الأحمر وخليج فارس، ولم يقابل الرسول ﷺ القبائل التي أراد مقاتلتها هناك، لأنه قد بلغه أنهم يتجمعون لغزو المدينة وكانت تُغير على القوافل، لأنها ما لبثت حين سمعت باسمه ﷺ أن أخذها الفزع، وولت مدبرة، وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم، ثم عاد إلى المدينة. يقول ابن الأثير: وغنم المسلمون إبلاً لهم، وقال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها، ولم يلقَ كيداً، فأقام بالمدينة بقية سنته.

وكان عدد أصحاب رسول الله ﷺ حين خرج بهم نحواً من الألف.

وانظر معي أيها القارىء الكريم إلى مبلغ ما اتسع إليه نفوذ رسول الله ﷺ وأصحابه، وما بلغ إليه سلطان المسلمين وخوف عدوهم منهم، وفكّر معي في مدى تحمل المسلمين للمتاعب في غزواتهم، مستهينين بالحر والقر والجدب وقلة الماء، مستهينين بالموت لإعلاء كلمة الله والنصر لدينه.

٢٥٦ ــ غزوة بني المصطلق أو المريسيع

الْمُرَيْسيع: هو ماء لبني خزاعه، والمصطلق: هم بطن من خزاعة، وكانت هذه الغزوة في شهر شعبان سنة خمسٍ من الهجرة سنة (٦٢٦)م وسببها: أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أحدٍ، أخذ يجمع الجموع لمحاربة النبي ﷺ، فخرج له ﷺ ومعه كثير من أصحابه، وفيهم كثير من المنافقين، وكان معه ثلاثون من الخيل، عشرة للمهاجرين (١) وعشرة (٢) للأنصار؛ واستعمل على المدينة زيد بن حارثة،

(١) في الأصل (من المهاجرين) بدل (للمهاجرين). المحقق.

(٢) الصواب (وعشرون للأنصار). والتصحيح من السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٦٤. المحقق.

وقيل: أبا ذرٍّ الغفاري؛ وخرجت معه زوجتاه السيدة عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما؛ وقتل رسول الله ﷺ جاسوساً للمشركين في طريقه؛ وبلغ الرسول ﷺ المريسيع من ناحية قُديد إلى الساحل، وصفَّ أصحابه للقتال، ودفع راية المهاجرين لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وراية الأنصار لسعد بن عبادة رضي الله عنه، وحمل المسلمون على المشركين، فقتلوا عشرة، وأسروا باقيهم، وكانوا أكثر من سبعمائة، وسبوا الرجال والنساء والذرية، وساقوا النَّعَمَ والشاء[1]، ولم يقتل من المسلمين إلا رجلٌ واحدٌ وهو هشام بن صبابة رضي الله عنه، وقد قُتل خطأ أصابه رجلٌ من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت وهو يرى أنه من العدوّ.

وكان من جملة السبي (جُوَيْرية بنت الحارث بن ضرار) رئيس بني المصطلق وكانت تحت مسافع بن صفوان، فقتل في هذه الغزوة وكان اسمها برَّة، فسماها رسول الله ﷺ جويرية.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم، لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته[2] على نفسها، وكانت امرأة عاقلة حلوة مُلاَّحة، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه، فأتتْ رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. قالت عائشة: فوالله! ما هو إلا أن رأيتُها، فكرهتُها وقلت: يرى منها ما قد رأيتُ، فلما دخلت على رسول الله ﷺ، قالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، وكاتبتُ على نفسي، فأعنّي على كتابتي، فقال رسول الله ﷺ أو خيرٌ من ذلك؟ أؤدّي عنك كتابتك، وأتزوَّجُكِ، فقالت: نعم؛ ففعل رسول الله ﷺ، فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق، فلقد أعتقَ بها مائةٌ من أهل بيت بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركةً منها على قومها.

ولما تزوجها رسول الله حجبها وقسم لها، وكانت حين تزوجها رسول

(١) في الأصل (والشاه) بالهاء. المحقق.

(٢) في الأصل (فكاتبه) بدل (فكاتبته). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

الله ﷺ بنت عشرين سنة، وتوفيت سنة خمسين، وهي بنت خمس وستين سنة، وبسبب زواجها هدى الله تعالى أكثر بني المصطلق إلى الإسلام، ثم أسلم والدها الحارث، ومن هنا تظهر حكمةُ رسول الله ﷺ [1] في زواجها [2].

٢٥٧ ــ قتل هشام بن صبابة ومقالة ابن أبي بن سلول

سبق أن ذكرت للسادة القراء قتل هشام بن صبابة خطأ، وقد أصابه رجلٌ من الأنصار؛ فبينا الناس على ذلك الماء (المريسيع) وردتْ واردةُ الناسِ، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار يقال له: جهجاه بن سعيد يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا؛ فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السنّ فقال: (أقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عَدَوْنا وجلابيب قريش ما قال القائل: سَمِّنْ كلبَكَ يأكلكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ)، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: ما فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحوَّلُوا إلى غير بلادكم؛ فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله! مُرْ به عباد بن بشر بن وقش فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: (فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمداً يقتلُ أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل) وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناسُ؛ وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغَهُ ما سمع منه، فحلف بالله ما قلتُ ما قال، ولا تكلمتُ به وكان عبد الله بن أبي في قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر رسول الله ﷺ من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل،

---

(١) لم يذكر في الأصل (ﷺ). المحقق.

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٩٨.

حدباً على عبد الله بن أبي، ودفاعاً عنه؛ فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيدُ بن حضير فحيَّاهُ تحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا رسول الله! لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروحُ فيها، فقال رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال أسيد: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة، أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ، قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجُه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال يا رسول الله! ارفقْ به، فوالله لقد جاء الله [1] بك وإن قومه لينظمون له الخرز، ليتوِّجوهُ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً [2].

ثم مَـشَـىَ رسـول الله ﷺ بـالـنـاس يومـهـم ذلـك حتى أمسى ولـيلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك، حتى آذتْهمُ الشمسُ ثم نزل بالناس، فلم يكن إلا أن وجدوا مَسَّ الأرض وقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أبي بن سلول؛ ثم راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له (نقعاء) فلما راح رسول الله ﷺ هبَّت على الناس ريحٌ شديد آذتْهم وتخوَّفوها، فقال رسول الله ﷺ: لا تخافوا فإنما هبَّتْ لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن ثابت بن التابوت أحد بني قينقاع، وكان من عظماء يهود وكهفاً للمنافقين قد مات في ذلك اليوم؛ ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في عبدالله بن أبي ابن سلول، ومن كان على مثل أمره فقال تعالى: ﴿إذا جاءكَ المنافقونَ قالوا نشهدُ إنكَ لرسولُ الله، واللهُ يعلمُ إنكَ لرسولُه، واللهُ يشهدُ إن المنافقينَ لكاذبون﴾ إلى أن ﴿يقولون لئن رَجَعْنَا إلى المدينةِ لَيُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، ولله العِزَّةُ ولرسولِهِ وللمؤمنينَ، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾ [3].

---

(١) لم يذكر في الأصل لفظ الجلالة. والتصحيح من الطبري جـ ٣ ص ٦٥ المطبعة الحسينية المصرية. المحقق.

(٢) في الأصل (مملكا). والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(٣) الآية الأولى من سورة (المنافقون) والآية الثانية (٨) من نفس السورة.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي كان من أمر أبيه ما تقدم ذكره[٤]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه قد بلغني أنك تريدُ قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحملُ إليك رأسه، فوالله! لقد علمت الخزرجُ ما كان بها رجلٌ أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نرفق به، ونحسن صحبتهُ ما بقي معنا.

وقدم مقيس بن صبابة من مكة مسلماً، فقال: يا رسول الله! جئتك مسلماً، وجئتُ أطلب دية أخي هشام، قُتل خطأ، فأمر رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام ابن صبابة، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتداً.

وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم وحدث أمر عائشة المكذوب[٢]. وإليك ذلك...

٢٥٨ ــ نزول آية التيمم وبيان سببه، وسر مشروعيته.

في أثناء هذه الغزوة المباركة، غزوة بني المصطلق، نزلت آية التيمم، وذلك بسبب أن السيدة عائشة رضي الله عنها انقطع عقدُها، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام الناس معه على التماسه[٣]، حتى ابتعدوا عن الماء، ونام رسول الله ﷺ

---

(١) يقصد حديث الإفك. المحقق.

(٢) الذي رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها يفيد أن انقطاع عقدها والتماسها إياه بعد أن فاتها الركب وقد احتملوا هودجها ظنا منهم أنها فيه الخ القصة التي كانت سبباً في حديث الإفك. وأن هذا كان في غزوة بني المصطلق. وللجمع بين قصة ضياع العقد في حديث الإفك وبين ضياعه في قصة التيمم اختلاف كثير بين أهل العلم هل كان ذلك في غزوة واحدة وهي غزوة بني المصطلق فيكون العقد سقط مرتين. أم كان في غزوتين؟ أما سقوط العقد في غزوة بني المصطلق كما روى الشيخان في حديث الإفك فهو محل اتفاق. وإنما الاختلاف في قصة التيمم. وهناك من قال بأن ضياع العقد في قصة التيمم كان في غزوة ذات الرقاع. والله أعلم. ويراجع في هذا الموضوع السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية للسيد أحمد زيني دحلان ص ١١٧ جـ ٢ طبع دار الطباعة بمصر. المحقق.

(٣) لم يذكر في الأصل عبارة (ما تقدم ذكره) وقد أثبتناها لحاجة السياق إليها. المحقق.

واضعاً رأسه على فخذ عائشة رضي الله عنها فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء؛ فأنزل الله تعالى آية التيمم، فكان ضياع العقد سبباً في نزول هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلُوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجُلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جُنُباً فاطَّهّروا، وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ، أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمَّمُوا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمَّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تشكرون﴾[1].

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لابنته بعد أن كان يعاتبها: «والله يا بنتي إنكِ كما عملتِ مباركة».

٢٥٩ ــ عائشة وحديث الإفك

كان حديث الإفك في غزوة بني المصطلق، ولا خلاف في ذلك؛ ولكن علماء السير اختلفوا هل قصة آية التيمم أسبق أو قصة حديث الإفك؛ وخلاصة حديث الإفك أن عائشة رضي الله عنها بعد غزوة رسول الله ﷺ، وحين آذنوا بالرحيل، ابتعدت عن الجيش لقضاء شأنها؛ وبينما هي مقبلة إلى رجلها وجدتْ أن عقدها قد انقطع فعادتْ تبحث عنه فوجدتْهُ، لكنها لما رجَعَتْ وجدت أن الجيش قد رحل، فجلستْ وغلبها النوم فنامت، فرآها صفوان بن المعطّل السُّلَمي وكان وراء الجيش، فاستيقظت باسترجاعهِ ــ أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ــ فأناخَ راحلتَهُ وأركبها، وانطلق حتى أتى الجيش في نحر الظهيرة وهم نزول، فأشاع عبدالله بن أبَي بن سلول في العسكر حديث[2] الإفك وانتشر بعد دخولهم المدينة لشدة عداوته لرسول الله ﷺ ــ وهكذا شأن المنافقين في كل عصر ــ.

مرضت عائشة رضي الله عنها شهراً، واستاء رسول الله ﷺ استياء شديداً، ثم ذهبت عائشة إلى بيت أبيها؛ وقد علمتْ بحديث الناس

---

(١) من سورة المائدة آية (٦).

(٢) وفي حديث ابن عمر: فقال عبدالله بن أبي بن سلول: فجر بها ورب الكعبة.

وقالت لأمها: ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنيه! هوّني عليكِ، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئةً[1] عند رجلٍ يحبُّها لها ضرائر إلا أكثرنَ عليها؛ فبكتْ بكاءً شديداً، مما يتحدَّثُ الناسُ، وكانت لا تنامُ الليلَ من شدة الحزن والبكاء. قلق رسول الله ﷺ واشتدَّ قلقُهُ، واستبطأ الوحي فلم يرَ غير استشارة أصحابه، فدعا ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد، واستشارهما في فراق أهله؛ فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بما يعلم من براءة أهله، وأما علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسلِ الجارية التي كانت تخدم عائشة تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها، فأقسمتْ أنها لم ترَ عليها شيئاً؛ وكانت عائشةُ رضي الله عنها ترجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئها الله بها؛ وما كانت تظنُّ أن الله منزل في شأنها وحياً؛ وبينا رسول الله ﷺ في حيرة، إذ نزل الوحيُ عليه ببراءة عائشة، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خيرٌ لكم، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولّى كبره منهم له عذابٌ عظيمٌ﴾[2].

وعصبةُ الإفك هم: حسانُ بنُ ثابت، ومسطحُ بن أثاثة، وحمنةُ بنت جحشٍ، وعبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق، فلما نزلتْ براءة عائشة جلدهم رسول الله ﷺ كلَّ واحد ثمانين جلدة، إلا عبد الله بن أبيّ فإنه لم يجلده[3]، وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة:

لقد ذاقَ حسَّانُ الذي هو أهلُه ... وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطحُ

تعاطَوْا برجم الغيبِ زوجَ نبيّهم ... وسخطة ذي العرش الكريم فأبرحوا

قال العلامة السهيلي: إن من نسب عائشةَ رضي الله عنها إلى الزنا، كان كافراً، لأن ذلك تكذيب للنصوص القرآنية ومكذّبها كافر. وقال عروة: ما رأيتُ أحداً أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعرٍ من عائشة، ولو لم يكن لعائشة من

---

(١) من الوضاءة وهي الحسن والجمال وكانت عائشة كذلك.

(٢) من سورة النور آية (١١) وتتمه الآيات في براءة عائشة بعدها.

(٣) وقيل: إنه جلده. المحقق.

الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً وعلوَّ مجدٍ، فإنها نزل فيها من القرآن الكريم ما يتلى إلى يوم القيامة.

وجاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجتُ معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمَلُ في هودج، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسولُ الله من غزوته تلك، وقفل؛ دنونا من المدينة، فآذَنَ ليلةً بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلما قضيتُ شأني، أقبلتُ إلى الرحل، فلمستُ صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جَزعٍ[1] ظفارٍ، قد انقطع، فالتمستُ عقدي فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يُرَحِّلُونَ لي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهنَّ اللحم، وإنما يأكلن العلقة[2] من الطعام ــ القليل ــ فلم يستنكر القومُ حين رفعوهُ ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السنِّ، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منزلهم وليس فيه أحدٌ، فأممتُ الموضع الذي كنتُ فيه، وظننت أنهم سيفقدونني، فيرجعون إليَّ؛ فبينا أنا جالسة غلبتني عينايَ فنمتُ، وكان صفوان بن المعطّل السُّلَمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائمٍ فأتاني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه، حين أناخ راحلته فوطئ يدها؛ فركبتُها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة فهلك من هلك، وكان الذي تولَّى الإفكَ عبدالله بن أبيٍّ بن سلول فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ بها شهراً؛ والناسُ يفيضون في قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي ﷺ

---

(١) هو خرز معروف في سواده بياض. وأظفار: مدينة باليمن.

(٢) الصواب (العُلْقة) بالقاف لا بالفاء. وفي الحديث: «وتجتزىء بالعُلْقة» أي: تكتفي بالبُلْغة من الطعام وفي حديث الإفك: «وإنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعام». لسان العرب مادة (علق). المحقق.

اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أمرضُ، إنما يدخلُ فيسلّم فيقول: كيف تيكم؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهتُ، فخرجتُ أنا وأم مِسْطَح قبل المناصع ــ موضع خارج المدينة ــ مُتَبَرَّزَنَا ــ موضع لقضاء الحاجة ــ لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا، وأمرُنَا أمر العرب الأول في البرية، أو في التنزُّه، فأقبلتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ بنت أبي رهم نمشي، فعثرتْ في مِرْطِهَا ــ كسائها ــ فقالت: تعس مسطح، فقلتُ لها: بئسما قلتِ، أتسبينَ رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: يا هنتاه! ــ أي يا هذه ــ ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددتُ مرضاً على مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي، دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلّم، فقال: كيف تِيكُمْ؟ فقلتُ: ائذنْ لي إلى أبويَّ، قالتْ وأنا حينئذٍ أريدُ أن أستيقنَ الخبر من قبلهما؛ فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيتُ أبويَّ، فقلتُ لأمي: ما يتحدث الناسُ به؟ فقالت: يا بنية! هوّني على نفسك الشأن، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قط وضيئةً عند رجلٍ يحبها ولها ضرائر إلا أكثرنَ عليها، فقلتُ: سبحان الله! ولقد تحدّث الناسُ بهذا؟ قالتْ فبتُّ تلكَ الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُ بنوم، ثم أصبحتُ فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحيُ، يستشيرهما في فراق أهله؛ فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الودّ لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً، وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله لم يُضَيِّق اللهُ عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك[1]، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: يا بريرة! هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثكَ بالحق! إن رأيتُ منها أمراً أغمصه ــ أي أعيبه ــ عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السنّ تنام على العجين، فتأتي الدّاجِنُ[2] فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبيّ بن سلول، فقال رسول

(١) في الأصل (تصدقُك) بضم القاف. والأرجح سكونها لأنه مضارع مجزوم في جواب الطلب. المحقق.

الله ﷺ : مَنْ يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرُك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان من قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال: كذبت والله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن الحضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنَّهُ فإنك منافق تجادلُ عن المنافقين؛ فثار الحيَّان الأوسُ والخزرج حتى همُّوا، أن يقتتلوا[1] ورسول الله ﷺ على المنبر فحضَّهم[2] حتى سكتوا وسكت، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي، وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، حتى أظنّ أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحنُ كذلك، إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد ثم قال: يا عائشة! لقد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه؛ فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ، قالت: وأنا جارية حديثة السنّ لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: والله لقد علمتُ أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم، وصدقتم به، ولئن قلتُ لكم إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة لا تصدّقوني، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ والله يعلم إني لبريئة لتصدقني،

---

(١) (أن يقتتلوا) لم تذكر في الأصل. وقد أثبتناها نقلاً من السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية للسيد أحمد زيني دحلان ص ١٢١ جـ ٢ دار الطباعة بمصر. المحقق.

(٢) بالمصدر المذكور (يخفضهم) بدل (فحضّهم). المحقق.

والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون﴾ ثم تحوَّلْتُ على فراشي، وأنا أرجو أن يبرئني الله تعالى، ولكن والله ما ظننتُ أن ينزل في شأني وحياً يُتْلَى، ولأنا أحقرُ في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجمان ــ اللؤلؤ ــ من العرق في يوم شات؛ فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة! احمدي الله فقد برأك الله، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمدُ إلا الله، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ (١) الآيات (٢).

فلما أنزل اللهُ عز وجل هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة، فأنزل اللهُ عز وجل قوله: ﴿ولا يأتلِ أولُوا الفضلِ منكم والسَّعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ إلى قوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ (٣) فقال أبو بكر: بلَى والله إني لأحبُّ أن يغفرَ لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه، وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: يا زينبُ! ما علمتِ ما رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري والله! ما علمتُ عليها إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تُساميني، فعصمها الله بالورع) ا هـ.

هذه هي قصة الإفك، وقد ظهر أن المنافقين قد افتروها، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ لشدة حقدهم على رسول الله ﷺ فنسبوا إلى عائشة، وهي من أشرف بيتٍ، هي ابنة الصدّيق رضي الله عنه وهي البريئة

(١) جزء من الآية رقم (١١) من سورة النور.

(٢) بالمصدر السابق (العشر الآيات) بدل (الآيات). المحقق.

(٣) الآية رقم (٢٢) من سورة النور.

النزيهة العاقلة المفكرة، ولكن أراد أعداء الإسلام والمنافقون أن يلوّثوا سمعتها الطاهرة النقية، ولكن الحقّ سبحانه وتعالى برّأها من كل سوء، وأعلى قدرها.

فاطمة أن زوجُها رسول الله ﷺ وأبوها أبو بكر وأمها وجميع المسلمين. وإن كان هذا شأن الحاسدين والمنافقين في كل زمان، فإن الله عز شأنه لا بدّ أن يكلأ عباده الصالحين و يرعاهم و ينصرهم على القوم الظالمين. ومن نسب إلى عائشة رضي الله عنها الزنا فهو كافر لأنه كذّب نص القرآن. نسأل الله تعالى العصمة لنا ولأزواجنا وللنساء المؤمنات.

٢٦٠ ــ غزوة الخندق وتحزب الأحزاب

وهي تحتوي [١] على اثنين وعشرين بحثاً

١ ــ تاريخ هذه الغزوة:

كانت غزوة الخندق في شهر شوال من السنة الخامسة عام (٦٢٧)م باتفاق المؤرخين وعلماء السير؛ إلا ابن خلدون فإنه يقول في تاريخه: والصحيح أنها في السنة الرابعة، ويقويه ابن عمر: ردّني رسول الله ﷺ يوم أحدٍ: وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة فليس بينهما إلا سنة واحدة، وهو الصحيح، فهي قبل دومة الجندل بلا شكٍ [٢].

٢ ــ تحزّب الأحزاب وسبب تحزبهم:

حزّب نفر من اليهود الأحزاب على رسول الله ﷺ، ومنهم سلاّم بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري، وهوذه بن قيس الوائلي.

---

(١) في الأصل (تحوي). المحقق.

(٢) راجع سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري والواقدي وطبقات ابن سعد، وحياة محمد لمستر موير.

٣ ــ أي الديانتين خير؟

لما دَعَتْ اليهود على لسانِ زعمائهم المذكورين: سلام وحيي وكنانة وهوذة، قريشاً لمحاربة النبي ﷺ وقالوا لهم: سنكون معكم حتى نستأصل محمداً وأصحابه، ارتابت قريش في أمرهم، لأن دين اليهود، قريب في جوهره من الإسلام، وبعيدٌ عن عبادة الأصنام، كلَّ البعدِ، وقريشٌ عبَّادُ أصنامٍ، ولذلك قالوا لهم: يا معشر يهود! إنكم أهل الكتاب الأول ــ التوراة ــ والعلم بما أصبحنا نختلف فيه، نحن ومحمد، أفديننا خيرٌ أم دينُه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فلما قالوا ذلك لقريشٍ سَرَّهُمْ ما قالوا واستعدوا للحرب؛ ثم خرج أولئك النفر من يهود، حتى جاءوا غطفان، ودعوهم إلى مشاركتهم في الحرب، وذكروا لهم استعداد قريشٍ فأجابوهم.

٤ ــ مخالفة اليهود لدينهم وكذبهم:

إن اليهود أجابوا قريشاً بأن دين قريش ــ الوثني ــ خير من دين محمدٍ مخالفين بذلك دينهم الداعي إلى عبادة الله الواحد الأحد، توصلاً إلى غرضهم وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة، وإعادة إخوانهم النضريين إلى ديارهم، وكان خيراً لهم أن يعيشوا مع المسلمين في وفاقٍ، ويكفُّوا عن الدسائس والفتن، والانضمام إلى الأعداء، والكذب الصريح لحقيقة الدين، ونقضهم للعهد بينهم وبين محمد، ولكن الحقد الأسود في قلوبهم والحسد في نفوسهم، حملهم على أن[1] قاموا بما قاموا به من العداوة وتأليب[2] العشائر وقريش على محمد وأصحابه.

لذا قال الأستاذ (ولفنسون) إنهم أخطأوا في تفضيلهم دين قريش على الإسلام، فقال في كتابه (تاريخ اليهود) صفحة (١٤٢) ما نصه حرفياً: (والذي

---

(١) (حملهم على أن) لم يذكر في الأصل. وقد أثبتناه لربط الكلام. المحقق.

(٢) في الأصل (وتألب) بدل (وتأليب). المحقق.

يؤلم كل مؤمنٍ بإلهٍ واحدٍ من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفرٍ من اليهود وبين قريش الوثنيين، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية).

ولا يخفى أن الذين أدلوا بهذا الحديث ليسوا من عامة اليهود، حتى يقال إنهم لا يعلمون ما يقولون، أو إنهم لا يمثّلون اليهود، بل هم من رؤسائهم وأصحاب النفوذ فيهم، فهل هؤلاء لا يستحقون التأديب؟

٥ ــ خروج الأحزاب وقوادهم:

خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي في بني مرة، ومسعود بن رُخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع.

٦ ــ حفر الخندق حول المدينة:

فلما سمع رسول الله ﷺ بتحزبهم وخروجهم لمحاربته أمر بحفر الخندق حول المدينة؛ والذي أشار عليه ﷺ بحفره سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقد كان الفرس يحفرون الخنادق للدفاع في الحرب، قال سلمانُ: يا رسول الله! كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وعلى كل حالٍ، فإن كلمة خندق فارسية الأصل.

اشتغل رسول الله ﷺ بحفر الخندق بنفسه، واشتغل المسلمون معه؛ أما المنافقون فكانوا يتوانون وينصرفون بدون إذن رسول الله ﷺ ويستثقلون العمل، ويثبطون العزائم.

٧ ــ سلمان منا أهل البيت:

خطَّ رسول الله ﷺ الخندق، ثم قطعه أربعين ذراعاً، بين كل عشرة، فاختلف المهاجرون والأنصارُ في سلمان الفارسي رضي الله عنه

وكان رجلاً قوياً جلداً، فقالت **الأنصار** سلمانُ منّا، وقالت المهاجرون سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**».

٨ ــ اعتراض صخرة بيضاء ومعجزة الرسول ﷺ:

بينما جماعةٌ من المسلمين يعملون في حفر الخندق في الجزء المخصص لهم، ومعهم سلمان، إذ ظهرت صخرة بيضاء مَرْوة، فكسرتْ حديدَ معاولهم وشقَّتْ عليهم، فقالوا يا سلمان ارْقَ إلى رسول الله ﷺ فأخبرهُ خبر هذه الصخرة، فإما أن نعدل عنها، فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطَّهُ ــ أي الذي رسمه الرسول ــ فرَقِيَ سلمانُ حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال: يا رسول الله! بأبينا أنت وأمنا، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة، فكسرتْ حديدنا، وشقَّتْ علينا حتى ما نحيك فيها قليلاً ولا كثيراً، فرنا فيها بأمركَ، فإنا لا نحبُّ أن نجاوز خطَّـك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق، وأخذ المعول من سلمان فقال: باسم الله ثم ضربها، فنثر ثلثها، وخرج منها نورٌ أضاء ما بين لابتيها ــ يعني لابتي المدينة ــ فقال: الله أكبر أعطيتُ مفاتيح الشام، والله! إني لأبصر قصورها الحمر الساعة من مكاني، ثم ضرب الثانية فقطع ثُلثاً آخر، فبرقت برقةٌ من جهة فارس، أضاءتْ ما بينَ لابتيها، فقال: الله أكبر أعطيتُ مفاتيح فارس، والله! إني لأبصر قصرَ المدائن الأبيض الآن، فأبشروا بالنصر، فَسُرَّ المسلمون، ثم ضرب الضربةَ الثالثةَ وقال: باسم الله فقطع بقيةَ الحجر، وخرج نور من قِبَلِ اليمنِ فأضاءَ ما بين لابتي المدينة حتى كأنه مصباح في جوف ليلٍ مظلم، فقال: الله أكبر أعطيتُ مفاتيح اليمن، والله! إني لأبصر أبوابَ صنعاء من مكاني الساعة.

وجاء في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: (إنا يوم الخندق نحفر فعرضتْ كدية شديدة [1]، فجاءوا النبيَّ ﷺ فقالوا: هذه كديةٌ عرضتْ في الخندق فقال: أنا نازلٌ، ثم قام وبطنُه معصوب بحجر ــ من

(١) أي قطعة من الأرض لا تعمل فيها المعاول.

ألم الجوع ــ ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوقُ ذواقاً ــ أي من جنس ما يطعم أو يشرب ــ فأخذ النبيُّ ﷺ المعول فضرب في الكدية، فعادتْ كثيباً أُهيلَ).

٩ ــ عدد الجيشين:

كان أهل الخندق ثلاثة آلاف، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من دومة بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجدٍ حتى نزلوا بذنبِ نَقَمىٰ بجانبِ أحُدٍ.

١٠ ــ نقض العهد:

كان كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة قد وادع النبيَّ ﷺ على قومه، وعاقدَهُ على ذلك، فذهب إليه حييُّ بن أخطب النضري وهو أحد الذين حزَّبُوا الأحزاب، فلما سمع كعبٌ حييَّ بن أخطب أغلق دونه بابَ حصنِه، فاستأذنَ عليه، فأبَى أن يفتح له، فألحَّ عليه ابن أخطب ففتح له، وما زال يستميلُه ويغريه حتى نقضَ كعبٌ عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، وصار هو وقومه بنو قريظة مع الأحزاب على رسول الله ﷺ وعلم بذلك رسول الله ﷺ وعظم عند ذلك البلاء واشتدَّ الخوف.

١١ ــ اشتداد الحصار نحواً من شهر:

اشتدَّ الخوف من تحزُّب الأحزاب ولا سيما بعد أن نقض بنو قريظة العهد، وانضمُّوا إلى الأعداء، وظنَّ المؤمنون كلَّ الظنِّ وانتهز المنافقون هذه الفرصة، لتثبيط العزائم، وهمَّ بالفشل بنو حارثة، وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم الله ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر، ولم يَكُنْ بينهم غير الرمي بالنبال.

١٢ ــ اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة:

خرجت فوارس من قريش على خيلهم بعد أن تهيأوا للقتال حتى وقفوا على

الخندق، فلما رأوه قالوا: والله! إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها، ثم يَمَّمُوا مكاناً من الخندق ضيقاً، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة [1] بين الخندق وسلع، وخرج عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذ عليه الثغرة [2] التي اقتحموها، وخرج عمرو بن عبد ودٍّ وطلب المبارزة، وكان عمره تسعين سنة، فبارزه عليُّ بن أبي طالب، فقتله سيدنا عليٌّ رضي الله عنه.

وذكر ابن إسحاق: أن المشركين بعثوا إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال رسول الله: هو لكم، ولا نأكل ثمن الموتى. وخرجتْ خيلُه منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقُتل مع عمرو رجلان هما منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهمٌ فمات منه بمكة، ومن بني مخزوم: نوفل بن عبدالله بن المغيرة وكان قد اقتحم الخندق، فتورط فيه فرموه بالحجارة، فقال: يا معشر العرب! قتلة أحسن من هذه، فنزل إليه سيدنا عليٌّ فقتله؛ ومن الذين يناوشون المسلمين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وذلك قبل إسلامهما.

وَرُمِيَ سعدُ بنُ معاذ يومئذٍ بسهمٍ رماه به رجلٌ يقال له ابن العَرِقة العامري واسمه حيان بن عبد مناف، فقال: خُذْها وأنا ابنُ العَرِقة، فقال سعد: عرق اللهُ وجهك في النار، فأصاب الأكحل منه فقطعه، فقال سعدٌ: اللهمَّ لا تمتني حتى تقرَّ عيني في بني قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، ونقل سعد وهو مجروح إلى خيمة رفيدة، وقد كانت امرأة [3] تداوي الجرحى في المسجد.

١٣ ــ سير القتال:

تحرَّج موقف المسلمين كثيراً، خاصة بعد انضمام بني قريظة للأحزاب كما ذكرتُ آنفاً، فقد كان بإمكان هؤلاء الناقضين للعهد والمواثيق اليهود التسلل

---

(١) (في السبخة) لم يذكر في الأصل كلمة (في). والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق.

(٢) في الأصل (الثغرةُ) بالرفع. والصواب النصب لأنه مفعول به. المحقق.

(٣) في الأصل (امرأة) بالرفع. والصواب النصب لأنه خبر كان. المحقق.

إلى داخل المدينة والتعرض بالنساء والأطفال خاصةً وأنهم يعرفون تفاصيل مسالك المدينة وشوارعها، لأنهم من أهلها مما يؤثر في معنويات المسلمين الذين يقاتلون في ساحة المعركة، لأنهم أصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم وذراريهم وأموالهم. كما كان بإمكان اليهود القرظيين القيام بحركة جريئة لقطع خطّ رجعة المسلمين إلى داخل المدينة، وبذلك يفسحون المجال للأحزاب، لاقتحام الخندق، دون مقاومةٍ تذكر.

لذلك كان وقع نكث بني قريظة لعهدهم شديداً على نفوس المسلمين.

١٤ ــ جاسوس لليهود داخل المدينة:

بعث يهودٌ رجلاً منهم إلى داخل المدينة، فاستطاع التسلل إلى الدور التي تجتمع فيها النساء والأطفال، ولكن هذا اليهودي لم يعد إلى قومه، ليخبرهم عن مواضع النساء والأطفال، وعن درجة مناعتها وحمايتها، لأن امرأةً مسلمةً هي صفية بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ رأته يحوم حول تلك الدور، ليستطلع ما فيها ومن فيها ودرجة قوتها ومقدار حمايتها وحُماتها من المسلمين، فاستطاعت صفيةُ هذه قتله بعمود خشبي.

إن هذا اليهودي كان دورية استطلاع للحصول على المعلومات عن مواضع النساء والأطفال، حتى يمهّد بما يحصل عليه من المعلومات لقيام يهودٍ بهجوم مباغتٍ عليهم، بعد التأكد من عدم تيسر الحماية الكافية لهم، ليضطرّ المسلمون إلى الانسحاب من مواضعهم الأصلية، لنجدة أهليهم وإنقاذ أموالهم.

إن قتل هذا اليهودي أنقذَ المسلمين من خطرٍ داهمٍ، إذ جعل يهود يفكّرون أن في داخل المدينة حرّاساً أشداء من المسلمين، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة، لذلك قبع يهود في حصونهم لا يفكرون في الخروج[1].

---

(١) أنظر كتاب قادة الفتح الإسلامي ص ٢٣١ وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم في مائة رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة (عن طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٧).

١٥ ــ هجوم المشركين على دار النبي ﷺ:

قامت مفرزة من المشركين بالهجوم على المسلمين باتجاه دار النبي ﷺ، فقاتلهم المسلمون النهار كله حتى الليل، فلما حانت صلاة العصر تحرَّج موقف المسلمين، لاقتراب المشركين من منزل النبي ﷺ حتى لم يستطع المسلمون أن يصلوا، ولكنهم استطاعوا مع الليل صدَّ مفرزة المشركين خائبةً على أعقابها.

وقد قال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، حتى غابت الشمس، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً».

١٦ ــ محاولة النبي ﷺ ردَّ بعض الأحزاب عن المدينة:

حاول رسول الله ﷺ أن يردَّ قسماً من الأحزاب عن المدينة لقاء ثلث الثمار، وكاد أن يصل في مفاوضاته مع قادة غطفان إلى هذا الاتفاق، ولكن سادات الأوس والخزرج اقترحوا ألا يعطوا المشركين شيئاً من ثمارهم، فوافق النبي ﷺ على اقتراحهم هذا.

١٧ ــ إن الحرب خدعة:

جاء نُعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة، إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله! إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت) فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»[1]. فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال لهم: يا بني قريظة! قد عرفتم ودّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقتَ لستَ عندنا بمتهمٍ؛ فقال لهم: إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمدٍ، وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم، البلدُ[2] بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره وإن قريشاً

---

(١) قال النووي: اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز، وكذا في قانون الحرب مثل ذلك.

(٢) في الأصل: (البلدَ) بالنصب. والصواب الرفع لأنه مبتدأ. المحقق.

وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره، فليسوا كهيئتكم، إن رأوْا نُهْزة وغنيمة أصابوهما وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا[1] بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به، إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم، حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقةً لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرت برأيٍ صحيح ونصح؛ ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: يا معشر قريش! قد عرفتم ودّي إياكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ، رأيت حقاً عليَّ أن أبلغكموهُ، نصحاً لكم فاكتمُوا عليَّ، قالوا: نفعل ذلك، قال: فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعُوا فيما بينهم وبين محمدٍ، وقد أرسلُوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنا، أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكم[2] فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأرسل إليهم أن نعم؛ فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غَطَفان، فقال: يا معشر غطفان! أنتم أصلي وعشيرتي، وأحبّ الناس إليَّ، ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقتَ بعد ما قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم، ثم قال: فاكتموا عليَّ، قالوا نفعل فلما كانت ليلة السبت في شوال سنة خمسٍ من الهجرة، وكان مما صنع الله عز وجل لرسوله؛ أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان، إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهلٍ في نفرٍ من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفُّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرّستكمُ الحربُ، واشتدَّ عليكمُ القتالُ، أن تشمروا

---

(١) في الأصل: (وخلوُا) بضم اللام. والصواب فتحها لأن الفعل معتل الآخر بالألف. المحقق.

(٢) في الأصل: (فنعطيكم). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

إلى بلادكم، وتتركونا والرجلُ في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد؛ فلما رجعتْ إليهم الرسلُ بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريشٌ وغطفان: تعلمون والله! أن الذي حدثكم به نعيم بنُ مسعودٍ لحقٌّ، فأرسلوا إلى بني قريظة: أنّا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن أنتم تريدون القتالَ فاخرجوا فقاتلوا؛ فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسلُ إليهم بهذا إن الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحقٌّ، ما يريد القومُ إلا أن يقاتلوا، فإن وجدُوا فرصةً انتهزوها، وإن كانوا غير ذلك، تَشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم؛ فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنّا والله! لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً؛ فأبوا عليهم، وخَذَّلَ اللهُ بينهم، وبذلك نجحتِ الخدعةُ.

وفي طبقات ابن سعد: حُصِرَ رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة، حتى خلص إلى كل امرىء منهمُ الكربُ، فأراد رسول الله ﷺ أن يعالج غطفان على أن يعطيهم ثلث التمر، ويخذِّلُوا بين الناس، وينصرفوا عنه، فأبت الأنصار ذلك كما ذكرته سابقاً، فترك ما كان أراد من ذلك؛ وقد تبيَّنَ لنا أن نُعيمَ بن مسعود قد قام بذلك خير قيام.

١٨ ــ حرب الطبيعة:

نجح نُعيم بن مسعود في خدعته، وكان مخلصاً لدينه ورسوله، وأوقع الفشلَ بين بني قريظة، وقريش؛ ثم جاءتهم الريح في ليالٍ شاتيةٍ شديدة البرد، فجعلت تكفىء قدورهم، وتطرح أبنيتهم؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرَّق الله من جماعتهم، دعا حذيفة، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القومُ ليلاً، وكان حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحدٌ إلا حذيفة، أعلمه بهم رسول الله ﷺ، قال حذيفة: فذهبتُ فدخلتُ في القوم، والريحُ وجنودُ الله تفعلُ بهم ما تفعل، لا يُقِرُّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم وجنوداً لم ترَوْها، وكان الله بما تعملون بصيراً﴾(١).

(١) من سورة الأحزاب آية (٩).

١٩ ــ خطبة أبي سفيان:

قام أبو سفيان بن حرب فقال: (يا معشر قريش! لينظر امرؤ جليسَهُ). قال حذيفة: فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلتُ: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: (يا معشر قريش! إنكم والله! ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكرهُ، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله! ما تطمئن لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا، فإني مرتحلٌ) ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثبَ به على ثلاثٍ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائمٌ.

هذه خطبة أبي سفيان في الجيش، وكان قائدهم، ولا بقاءَ للجند بعد رجوع القائد، ونصيحته لهم بالعودة؛ ولا شكَّ أنهم سئموا الإقامة، ولم يرَوْا فائدةً من الانتظار أكثر مما انتظروا؛ وقد ساءتْ حالُهم بسبب اشتداد البرد وهبوب الريح، وعدم رغبة بني قريظة في القتال، وقد كانوا يؤملون دخول المدينة؛ فكان الخندقُ عقبةً في سبيلهم بالرغم من كثرة عددهم؛ ولما سمعت غطفان بما فعلتْ قريشٍ، شمرَّوُا عن ساعد الرجعة إلى بلادهم، تاركين ما استثقلوا من متاعهم، فغنمه المسلمون؛ وانصرف المسلمون عن الخندق، ورجعوا إلى المدينة، ووضعوا السلاح بعد أن حاصرهم المشركون خمسة عشر يوماً؛ وانصرف ﷺ من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

قال رسول الله ﷺ بعد انصراف الأحزاب: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا». وقد كان كما أخبر عليه الصلاة والسلام، وكانت هذه الغزوة آخر محاولة من جانب أشراف مكة للقضاء على الدين الجديد الإسلام.

٢٠ ــ خسائر المسلمين:

ذكر ابن إسحاق أنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة: ثلاثة من الأوس وهم: سعد بن معاذ، وأنس بن أوس، وعبدالله بن سهل وثلاثة من

الخزرج هم: الطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، رضي الله عنهم.

٢١ ــ خسائر المشركين:

كانوا ثلاثة هم: منبه بن عبد العبدري، أصابه سهمٌ فمات منه بمكة، ونوفل بن عبدالله المخزومي، وعمرو بن ودٍّ العامري، قتله سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

جاء في سيرة الرسول[1] ﷺ: أنه حينما قتل سيدنا عليٌّ رضي الله عنه عمرو بن ودٍّ، نُعِيَ إلى أخته عمرة بنت ودٍّ وكنيتها أم كلثوم فقالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟ فقالوا لها: علي بن أبي طالب، فقالت: لم يعد موته، إن كان على يد كفوٍ كريم، لا رقأت دمعتي إن هرقتها عليه، قَتَلَ الأبطالَ، وبارزَ الأقران، وكانت منيتُه على يد كفوٍ كريم من قومه، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتلَ عمرو غير قاتلهِ ... لكنتُ أبكي عليه آخرَ الأبدِ
لكنّ قاتلَ عمروٍ لا يعاب به ... من كان يدعى قديماً بيضة البلدِ
من هاشمٍ في ذُراها وهي صاعدة ... إلى السماء تميتُ الناسَ بالحسدِ
قومٌ أبَى اللهُ إلا أن يكونَ لهم ... كرامةُ الدين والدنيا بلا لَدَدِ
يا أم كلثوم ابكيه ولا تدعي ... بكاءَ معولةٍ حرّى على ولدِ

وفي قتل عمرو بن ودٍّ يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أمسَى الفتى عمرو بن ودٍّ يبتغي ... بجنوب يثرب غارة لم تنظر
ولقد وجدتَّ سيوفَنا مشهورةً ... ولقد وجدتَ جيادَنا لم تقصر
ولقد رأيت غداة بدرٍ عصبةً ... ضربوك ضرباً غير ضرب الحسَّرِ
أصبحتَ لا تدعَى لِيومٍ عظيمةٍ ... يا عمرو أو لجسيمِ أمرٍ منكرِ[2]

---

(١) نشرتها دار الفكر للجميع وهي مأخوذة عن كتاب طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وسيرة ابن سيد الناس، وسيرة الشمس الشامي والحلبية ص ١٧٥.

(٢) عن المصدر السابق ص ١٧٦.

٢٢ ــ أسباب فشل الأحزاب:

١ ــ قيادتهم غير موحدة، لأنهم كانوا متفرقين أحزاباً ولكل قبيلة أو حزب قائد [١] مما لم يتم الاتفاق بينهم على تنفيذ خطة واحدة لكثرة القواد، وتحفظ كل قائد برأيه.

٢ ــ مباغتة الاعداء بحفر الخندق، فقد أخر هجومهم، وعرقل مسعاهم.

٣ ــ رداءة الطقس وذلك بهبوب الرياح القوية الباردة، فلم يصبروا لها، وملُّوا منها، كما صرح قائدهم العام أبو سفيان في خطابه.

٤ ــ انعدام الثقة فيما بينهم وبين اليهود.

٥ ــ عدم الصبر على الحصار رغم كثرة عَددهم وعُددهم فكانوا عشرة آلاف مقاتل، فضجروا، ولم يصبروا حتى فتَّ في عضدهم ذلك ورحلوا وفضلوه على لقائهم للعدو.

٦ ــ الخذلان من الله لهم، لسوء طويتهم، وفقدان الإيمان من نفوسهم، قال الله تعالى: ﴿ وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين ﴾.

وعلى كل حال: الحمد لله الذي انتصر لعباده المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين.

٢٦١ ــ غزوة بني قريظة الغادرين

بنو قريظة قومٌ من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، وسيد الأوس حينئذٍ سعدُ بنُ معاذ.

وقد ذكرت سابقاً: أن بني قريظة، نقضُوا العهد، وحاربُوا رسول الله ﷺ مع الأحزاب، واشتدَّ البلاء على المسلمين؛ ثم كفُّوا عن القتال، لما أوقعه نعيم بن مسعود من الفشل بينهم وبين قريش، فكان تأديبُهم أمراً لا مناص عنه ولا بدَّ منه، لأن وجودهم بالمدينة فتنةٌ تهدِّدُ المسلمين، ولأنهم هم الذين حزّبوا الأحزاب، وانضموا إلى الأعداء في غزوة الخندق.

---

(١) في الأصل (قائداً) بالنصب. والصواب الرفع لأنه مبتدأ. المحقق.

لما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق دخل المدينة لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمسٍ هو وأصحابه، ووضعوا السلاح؛ وكان قد صلّى الظهر، أتى جبريلُ عليه السلام، رسول الله ﷺ كما حدّثني الزهري، معتجراً بعمامةٍ من إستبرق على بغلةٍ عليها رحاله، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أو قد وضعتَ السلاحَ يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعتِ الملائكةُ السلاح بعد، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل: يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامدٌ إليهم فمزلزل بهم.

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق، ووضع السلاح، واغتسل ــ من وعثاء السفر ــ فأتاه جبريل، وقد عصب رأسه الغبارُ فقال: وضعتَ السلاح، فوالله ما وضعته، فقال رسول الله ﷺ فأين؟ قال: ههنا، وأومأ إلى بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله ﷺ.

فأمر ﷺ مؤذناً، فأذّن في الناس، مَنْ كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم فيما قاله ابن هشام في سيرته. وقدّم رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرساً. فلما دنا سيدنا علي رضي الله عنه من الحصن[1]، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، وغرز اللواء عند أصل الحصن، سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حق رسول الله ﷺ [2] فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله! لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال ﷺ: لم؟ أظنك سمعت لي منهم أذى، قال علي: نعم يا رسول الله، قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا

---

(١) حصن بني قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الشرقي.

(٢) راجعها في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق.

القاسم ما كنت جهولاً. ومرَّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مرَّ بكم أحدٌ؟ قالوا: يا رسولَ الله! قد مرَّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحاله، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريلُ بُعِثَ إلى بني قريظة يزلزلُ بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم (١).

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة، كما قال ابن إسحاق، وقال الواقدي: إحدى وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وقد كان حييُّ بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعتْ عنهم قريشٌ وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه؛ فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر اليهود! إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيَّها شئتم: قالوا: وما هنَّ؟ قال: نتابع هذا الرجلَ ونصدّقه، فوالله! لقد كان تبيَّنَ لكم إنه لنبيٌّ مرسلٌ، وإنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دمائكم، وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمدٍ وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا، حتى يحكم اللهُ بيننا وبين محمدٍ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النساءَ والأبناءَ؛ قالوا: نقتلُ هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإذا أبيتم هذه عليَّ فإن الليلةَ ليلةُ السبتِ، وإنه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلَّنا نصيبُ من محمدٍ وأصحابه غِرَّةً؛ قالوا:

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق، وكذا في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق.

نفسدُ سبتنا، ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا، إلا من قد علمتَ، فأصابه من المسخ ما لم يَخْفَ عليكَ.

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً. ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا؛ فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه، قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمدٍ؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، (إنه الذبح) قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماي حتى عرفتُ أني قد خنتُ اللهَ ورسولَه ــ بإذاعة سرِّه ﷺ ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده[1]، وقال: لا أبرح مكاني هذا، حتى يتوب الله عليَّ مما صنعتُ، وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، وقال: لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبرُهُ، وأبطأ عليه، وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقُه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

ثم إن توبة أبي لبابة أنزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، فبشَّرتْ أبا لبابة بذلك، ثم أطلقه رسول الله ﷺ.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوسُ فقالوا: يا رسول الله! إنهم موالينا دون الخزرج. وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله ابن أبيّ بن سلول فوهبهم له.

فلما كلَّمه الأوس، قال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ،

(١) وتعرف باسطوانة أبي لبابة واسطوانة التوبة حتى اليوم بالروضة الشريفة.

وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رُفيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى، وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ لقومه حين أصابه السهمُ بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب (١). ــ (حكم سعد بن معاذ) ــ كان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله ﷺ في بني قريظة، لأنه لما ذهب إليهم، أشار بيده إلى حلقه (إنه الذبح) ثم ندم على هذه الإشارة، واعتبرها خيانة لله ورسوله، وكان ما كان منه؛ أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه في بني قريظة معروفاً أيضاً، لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال: (اللهمَّ لا تمتني حتى تقرَّ عيني في بني قريظة) وقد بقي مجروحاً، إلى أن استدعاه رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة.

فأتاه قومهُ فاحتملوهُ على حمار، وأقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو! أحسنْ في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاَّك ذلك لتحسن فيهم؛ فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فقال رسول الله ﷺ: احكمْ فيهم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبَى ذراريهم، وأن تقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله.

فأمر رسول الله ﷺ أن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث، امرأة من بني النجار، وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليها أرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد رأس

(١) وحادثة سعد وإصابته مرت معنا في كتابنا هذا في غزوة الخندق.

القوم وهم من (٦٠٠-٧٠٠) وقيل: إنهم كانوا من (٨٠٠-٩٠٠).

وقد قالوا لكعب بن أسد: وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب! ما ترى ما يصنع بنا؟ فقال كعب: في كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل.

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ، وأتيَ بحيي بن أخطب وعليه حلة له فقاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة، أنملة أنملة لئلا يسلبها، مجموعةً يداهُ إلى عنقه بحبلٍ، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله! ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس! لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره وملحمة قد كُتبتْ على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقُه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق؛ إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قلتُ: ويلك ما لكِ؟ قالت: أقتل، قلتُ: ولم؟ قالتْ: حدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضربت عنقُها، فكانت عائشة تقول: ما أنسى عجباً منها، طيب نفس، وكثرة ضحك، وقد عرفت أنها تقتل. وكانت تدعى هذه المرأة (بنانة)[1] امرأة الحكم القرظي، كانت طرحتْ على رجل من المسلمين[2] رحى، واسمه خلاّد بن سويد فقتلته، بإرشاد زوجها، لأنه أحبَّ أن لا تبقى بعده فيتزوجها غيرُهُ، ولم يقتل أحدٌ من المسلمين في هذه الغزوة غير خلاد.

(غنائم المسلمين):

أمر رسول الله ﷺ أن يجمع ما في حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك، فجمع فوجد فيها (١٥٠٠) ألف وخمسمائة سيف

(١) في السيرة الحلبية اسمها (نباتة) لا (بنانة). وقيل: (مزنة). المحقق.

(٢) في الأصل (زوجها) بدل (رجل من المسلمين). المحقق.

وثلاثمائة درع و (٢٠٠٠) رمح و (٥٠٠) ترس وجحفة، وَوُجدَ أثاث كثير، وآنية كثيرة، وجمال نواضح ــ أي يسقى عليها الماء ــ، وماشية، وشياه كثيرة، فخمَّس ذلك مع النخل والسبي، ثم قسم الباقي على الغانمين، وكانت أسهم القسمة (٣٠٧٢) سهماً لأن المسلمين (٣٠٠٠) والخيل (٣٦) وللفرس سهمان ولصاحبه سهم. ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخابني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم بها[١] خيلاً وسلاحاً، واصطفى لنفسه من نسائهم (ريحانة بنت عمرو بن جنافة)[٢]، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وعرض عليها الزواج فأبتْ، وكانت حين سباها قد تعاصت بالإسلام وأبتْ إلا اليهودية، ثم أسلمتْ.

(دفن القتلى):

ثم رد عليهم ــ أي القتلى ــ التراب في تلك الخنادق، وعند قتلهم صاحت نساؤهم وشققْنَ جيوبهنَّ، ونشرْنَ شعورَهنَّ، وضربْنَ خدودهنَّ، وملئت المدينة بالنوح والعويل، وكان المتولي لقتلهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام[٣].

وهكذا نال هؤلاء الخائنون الناقضون للعهد جزاءهم العادل، وأراح الله المسلمين منهم.

٢٦٢ ــ وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه

لما انقضى شأن بني قريظة، انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيداً، قال ابن إسحاق: حدثني معاذ بن رفاعة الزرقي قال: حدثني من شئت من رجال قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قُبض سعد بن معاذ في جوف الليل معتجراً بعمامة من إستبرق فقال: يا محمد! من هذا الميت

---

(١) في مختصر سيرة ابن هشام (خناقة) بدل (جنافة). المحقق.

(٢) في الأصل (فيهم) بدل (بها). والتصحيح من مختصر سيرة ابن هشام. المحقق.

(٣) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٢٣.

الذي فتحت له أبواب السماء واهتزَّ له العرش؟ قال: فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجرُّ ثوبَهُ إلى سعدٍ، فوجده قد مات.

وعن الحسن البصري قال: كان سعدٌ رجلاً يادناً، فلما حمله الناس وجدوا له خفَّةً، فقال رجال من المسلمين: والله! إن كان لبادناً وما حملنا من جنازةٍ أخفَّ منه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: إن له حملةً غيركم، والذي نفسي بيده! لقد استبشرت الملائكة بروح سعدٍ، واهتزَّ له العرش.

وعن جابر بن عبد الله قال: لما دُفِنَ سعدٌ ونحن مع رسول الله ﷺ سَبَّحَ رسول الله ﷺ فسبَّحَ الناس معه، ثم كبَّرَ فكبَّر الناسُ معه فقالوا: يا رسول الله مِمَّ سبحت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبرُه[1] حتى فرَّجَ الله عنه.

وقد دفن سعد ببقيع الغرقد، قال رسول الله ﷺ: «كل نائحةٍ تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ».

وأم سعدٍ (كبيشه بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن ثعلبة بن عبد بن الأبجر)، وهي أول من بايع النبي ﷺ من نساء الأنصار[2].

وقد ندبت سعداً لما احتمل نعشه، قالت:

ويل أم سعد سعدا ... صرامة وحدا
وسؤددا ومجدا ... وفارسا معدا
سدبه[3] مسدا ... يقد هاماً قدا

فقال لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: انظري ما تقولين يا أم سعد، فقال رسول الله ﷺ: دعها يا عمر، كل باكية مكثرة إلا أم سعد، ما قالت من خير فلن تكذب[4].

---

(١) في الأصل (قبرَه) بفتح الراء والصواب ضمها لأنه فاعل. المحقق.
(٢) عن سيرة (محمد رسول الله) ص ٣٢٤.
(٣) (سدبه). في الأصل (سديه). والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق.
(٤) أنظر الاستيعاب لابن عبد البر، وسيرة ابن هشام، والإصابة لابن حجر.

٢٦٣ ــ خسائر المسلمين في غزوة بني قريظة

(١) خلاد بن سويد: طرحت عليه رحى.
(٢) أما أبو سنان بن محصن، فمات ورسول الله ﷺ محاصر بني قريظة، فدفن في مقبرة بني قريظة التي يدفنون فيها إلى اليوم.

٢٦٤ ــ ما نزل من القرآن في أمر الخندق وبني قريظة

قال ابن إسحاق: وأنزل الله تعالى في أمر الخندق وأمر بني قريظة من القرآن في سورة الأحزاب، وقد ذكر الله فيها ما نزل من البلاء ونعمته عليهم، وكفايته إياهم، حين فَرَّجَ الله عنهم ذلك بعد مقالة من قال من أهل النفاق.

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوْها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾.

والجنود هم: قريش وغطفان، وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح: الملائكة، يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، وتظنون بالله الظُّنُونا﴾.

فالذين جاءوهم من فوقهم: بنو قريظة، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان.

يقول الله تعالى: ﴿هنالك أُبتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُهُ إلا غروراً﴾ لقول معتب بن قشير إذ يقول ما قال: ﴿وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثربَ لا مُقامَ لكم فارجعوا ويستأذنُ فريقٌ منهمُ النبيَّ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورةٍ إن يريدون إلا فراراً﴾[1]. إلى آخر القصة وهي في سورة الأحزاب، فمن أرادها فليرجع إليها.

---

(١) الآيات (٩-١٣) من سورة الأحزاب. المحقق.

٢٦٥ ــ يهود المدينة وما آل إليه أمرهم

كان بين الأوس والخزرج حروب قديمة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، لقّبهم بالأنصار ووحدّهم، لأنهم همُ الذين نصروهُ.

فتآخى الفريقان في بوتقة الإسلام، وانمحى ما كان بينهما من العداوة والبغضاء، وصاروا بنعمة الله إخواناً على مائدة القرآن وهدي سيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛

أما يهود المدينة، فقد كانت بنو قريظة والنضير حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، وقد عاهدهم رسولُ الله ﷺ وأقرّهم على دينهم وأموالهم؛ لكنهم ثارُوا ونقضوا عهده، وتعنّتوا في مناقشته، وحسدوهُ على انتصاراته، وكادوا له، وعادوا ينكرون عليه نبوّته، فلما رأى رسول الله ﷺ منهمُ الغدر، وشدّة العناد، ودسَّ الدسائس، والتآمر عليه وعلى دينه وأصحابه، أراد التخلصَ منهم، وتطهير المدينة من فتنتهم، متحيناً الفرصَ، فدعا بني قينقاع إلى الإسلام بعد غزوة بدرٍ، وكانوا يسكنون معه بالمدينة؛ فلما أبوا وأجابوه بكل جرأة، غزاهم وأجلاهم إلى أذرعات بالشام في السنة الثانية من الهجرة، وأرسل مَنْ قتل كعب بن الأشرف الشاعر الذي كان يهجو رسول الله ﷺ بأشعاره، ويتشبَّبُ ويتغزَّل بنساء المؤمنين ويحضُّ كفّارَ قريش على قتاله، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة. وغزا ﷺ في السنة الرابعة بني النضير، وقد تقدَّم معنا في كتابنا هذا، سبب هذه الغزوة، وأجلاهم عن المدينة، فمنهم من سار إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى خيبر؛ ثم غزا ﷺ بني قريظة في السنة الخامسة، لأنهم هم الذين حزَّبُوا الأحزاب عليه في غزوة الخندق، وانضموا إلى الأعداء في أحرج المواقف، لأنهم كانوا على نية قريش، وهي القضاء على الإسلام والمسلمين ورسولهم.

وبعد غزوة بني قريظة لم تقم لليهود قائمة بالمدينة، وخضع المنافقون كل الخضوع، وقد كانوا فئةً قليلة؛ أما المدينة فلم تعد ملجأ للمضطهدين، بل صارت مركزاً عظيماً لسلطة دينيةٍ كبيرة، استطاعت إخضاع جزيرة العرب بعد سنين قليلة.

٢٦٦ ـ سرية القرطا [١] وإسلام ثُمامة بن أثال الحنفي

كانت هذه السرية لعشرٍ خلون من شهر المحرم سنة ست من الهجرة.

بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري في ثلاثين راكباً، إبلاً وخيلاً، وأمره أن يسير الليل، ويكمن النهار، وأن يشنَّ الغارة عليهم، ففعل ما أمرهُ به؛ فلما أغار عليهم هرب باقيهم بعد من قتل، وكان المقتول منهم عشرة، وقيل: نحو العشرين، واستاق مائة وخمسين بعيراً، وثلاثة آلاف شاة، فعدلوا الجزورَ بعشرة من الغنم.

وقدم المدينة لليلةٍ واحدة بقيت من المحرم، وغاب تسع عشرة ليلة. وقد أسر (ثمامة بن أثال).

روى ابن إسحاق: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن خيلاً لرسول الله ﷺ أخذتْ رجلاً، ولا يشعرون من هو، حتى أتوا به إلى النبي ﷺ؛ فقال ﷺ: أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، فربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره عليه الصلاة والسلام، لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيرقّ قلبُه؛ فخرج إليه رسول الله ﷺ، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير يا محمد! إنْ تقتلْ تقتُلْ ذا دم، وإن تنعمْ تنعمْ على شاكرٍ، وإن كنت تريد المال فسَلْ تُعْطَ منه ما شئت، فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلتُ لك: إن تنعم تنعم على شاكرٍ، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندكَ يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلتُ لك، فقال ﷺ: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم قال: والله يا محمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، وقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دينٍ أبغض إليَّ من دينك،

---

(١) القرطا: قرية لبني كلاب على طريق البصرة، إلى مكة، وهي إلى مكة أقرب، وبها جبل يسمى البكرات، وبين ناحية ضربة والمدينة سبع ليال.

فأصبح دينُك أحبَّ الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلدٍ أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد إليَّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريدُ العمرة فاذا ترى؟ فبشَّرَهُ النبيُّ ﷺ بخير الدنيا والآخرة، وأمره أن يعتمر؛ فلما قدم مكة يلبي وينفي الشرك عن الله، قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمتُ لله رب العالمين، مع محمدٍ رسول الله ﷺ، ولا والله تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبيُّ ﷺ، وقيل: إنه منع عن مكة الميرة من اليمامة، حتى أكلتْ قريش العلهز[1].

ثم صار ثمامة رضي الله عنه من فضلاء الصحابة، وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه، ولم يرتدَّ مع من ارتدَّ من أهل اليمامة، ولا خرج عن الطاعة قط، وقام مقاماً حميداً بعد وفاة النبي ﷺ حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة الكذاب، فقال ثمامة تالياً قول الله تبارك وتعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيلُ الكتاب من اللهِ العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التَّوبِ شديدِ العقاب[2]﴾. ثم قال: فأين هذا من هذيان مسيلمة؟

فأطاعه ثلاثة آلاف، وانحازوا إلى المسلمين.

٢٦٧ ــ غزوة بني لحيان بقيادته ﷺ

كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة ستٍ من الهجرة، عام (٦٢٧) م، وسببها: أن رسول الله ﷺ حزن على عاصم بن ثابت وأصحابه القرَّاء الذين قُتلوا ببئر معونة في شهر صفر من السنة الرابعة؛ فأظهر قائد الغزوة ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة، فخرج من المدينة، فسلك على غراب ــ اسم جبل بناحية المدينة ــ على طريقه إلى الشام، ثم على مخيض، ثم على البتراء، ثم صفق ذات اليسار، فخرج على بين، ثم على صخيرات اليمام، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة،

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٢٩ والعلهز: الوبر والدم.
(٢) من سورة المؤمن الآيات (١-٣).

ثم أسرع السير حتى نزل على[1] غُران وهي منازل بني لحيان، إلى بلد يقال لها سابه، وكان معه مائتا (٢٠٠) رجلٍ، ومعهم عشرون فرساً، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وقد وجد رسول الله ﷺ أن القوم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال؛ فأقام يوماً أو يومين يبعث السرايا من كل ناحية من نواحيهم، ثم خرج حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه في عشرة فوارس، لتسمع بهم قريش فيذعرهم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيداً، وكانت غيبته ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلةً.

وقد أثَّروُا على معنويات القبائل، وجعلوهم يخافون المسلمين أشد الخوف.

٢٦٨ ـ إغارةُ عُيَيْنَةَ بن حصن الفزاري

بعد قدوم رسول الله ﷺ من غزوته لبني لحيان إلى[2] المدينة، لم[3] يقم إلا ليالي قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في خيل لغطفان في أربعين فارساً على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة، وكانت عشرين لقحةً وفيها رجل من بني غفار وامرأته، فقتلوا الرجل واسمه ذر، واحتملوا المرأة في اللقاح، وذر هو ابن أبي ذرٍ رضي الله عنه وكان يرعى الإبل.

وامرأته اسمها ليلى قد نجت من الأعداء، وذلك أنهم كانوا يريحون نَعَمهم بين يدي بيوتهم، فانطلقت على سهوٍ منهم، وركبت ناقةً للنبي ﷺ واسمها العضباء على غفلة من القوم ليلاً، فانطلقت تعدو مسرعة، ولما علموا بها طلبوها فأعجزتْهم، ونذرت المرأة: إن نجتْ لتنحرنَّها؛ فلما قدمت على النبي ﷺ أخبرته بذلك، وقالت: يا رسول الله! إني نذرتُ لله تعالى أن أنحرها إن نجّاني الله عليها، فقال: بئسما جزيتها أن حملك الله عليها، ونجّاكِ أن تنحريها؛ إنه لا نذرَ لأحدٍ في معصية، ولا لأحدٍ فيما لا يملك، إنما هي ناقةٌ من إبلي، ارجعي إلى أهلكِ على بركة الله.

---

(١) غُران: اسم واد بين أمج وعسفان.

(٢) لم يذكر في الأصل كلمة (إلى). المحقق.

(٣) في الأصل (ولم) بزيادة واو. وقد حذفنا الواو ليستقيم المعنى. المحقق.

٢٦٩ ــ غزوة الغابة أو غزوة ذي قَرَد

ذُو قَرَد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان. وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة ستٍ من الهجرة عام(٦٢٧) م، وفي صحيح البخاري: أنها كانت قبل غزوة خيبر بثلاثة أيام وبعد الحديبية بعشرين يوماً.

وسببها: إغارة عيينة بن حصن الفزاري على لقاح رسول الله ﷺ التي كانت بالغابة كما تقدم ذلك قبل هذا الموضوع. لما أغاروا على اللقاح في يومهم وكانوا أربعين فارساً، جاء الصريخ فنادى: الفزع الفزع، ونُوديَ يا خيل اركبي؛ وأول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي.

ركب رسولُ الله ﷺ في خمسمائة فارسٍ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه كعادته، وخلف سعد بن عبادة رضي الله عنه في ثلاثمائة فارس يحرسون المدينة؛ وعقد لواءً للمقداد رضي الله عنه في رمحه، وقال: امضِ حتى تلحقَكَ الخيول وأنا على أثرك.

وكانت نتيجة هذه الغزوة أنهم أدركوا العدوَّ، فهزموه وقتلوا رؤساءه، واستنقذوا اللقاحَ، وقيل:بعضها. ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحدٌ وهو محرز ابن نضلة؛ وسار رسول الله ﷺ حتى بلغ ذا قَرَدٍ في اتجاه خيبر، فالتجأ العدو إلى بني غطفان، وقد أبلى في هذه الغزوة سلمة بن الأكوع بلاء حسناً، وكان رامياً حاذقاً.

وقد قتل أبو قتادة: مسعدة بن حكمة الفزاري، فأعطاهُ رسول الله ﷺ فرسَهُ وسلاحَهُ، ولقي عكاشةُ بن محصن رضي الله عنه في طريقه، أبان ابن عمرٍو وابنَهُ عمراً على بعيرٍ، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعاً.

وكانت مدة غَيْبة رسول الله ﷺ خمسة أيام وصلّى بذي قرد صلاة الخوف.

وقد جاء من يخبر المسلمين أن عيينة وأصحابه وصلوا موضعاً بعيداً عن ذي قَرَدٍ، فنحروا لهم جزوراً، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غباراً، فتركوا جزورهم

في محلها وهربوا بسرعة، لأنهم ظنوا أن المسلمين اقتربوا من مواضعهم.

ولم يكن هؤلاء الأعراب يصدّقون أنهم يستطيعون النجاة بأنفسهم.

٢٧٠ ــ سرية الغمر بقيادة عكاشة بن محصن الأسدي

الْغَمْرُ: اسم لماءٍ لبني أسد، على بعد ليلتين من فَيْد.

وفَيْد: قلعة بطريق مكة.

وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة النبوية. وكان قائد السرية هو عكاشة بن محصن الأسدي.

خرج عكاشة رضي الله عنه في أربعين رجلاً[١] بأمر النبي فنذر[٢] به القوم، فهربوا، فنزلوا على بلادهم، فوجدوا ديارهم خاليةً لهربهم، فبعث المسلمون طليعةً، فرأوا أثر النَّعَم قريباً، فقصدوها فأصابوا رجلاً منهم فأمّنوه، فدلّهم على نَعَمٍ لبني عمٍّ لهم، فأغاروا عليها، فاستاقوا مائتي /٢٠٠/ بعيرٍ، وأطلقوا الرجلَ، وقدموا بالإبل على رسول الله ﷺ، ولم يلقوا حرباً.

٢٧١ ــ سرية ذي القَصَّة بقيادة محمد بن مسلمة الأنصاري

ذي الْقَصَّةِ: اسم موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرَّبذة[٣]، كما قاله الواقدي المحدث.

كانت هذه السرية في شهر ربيع الثاني الموافق لشهر أغسطس سنة (٦٢٧) م،خرج محمد بن مسلمة رضي الله عنه ومعه عشرة، إلى بني ثعلبة، فورد

---

(١) في الأصل (رجلٍ). والصواب (رجلاً) تمييز منصوب. المحقق.

(٢) (فنذر) أي: علم. المحقق.

(٣) ضبطها في لسان العرب (الرَّبَذَة) بفتح الباء لا بكسرها. وقال: هي قرية قرب المدينة، وفي المحكم: موضع به قبر أبي ذر رضي الله عنه. ا هـ. المحقق.

عليهم ليلاً بمن معه، وقد كمن لهم المشركون لشعورهم بمجيئهم إليهم، فتركوا محمد بن مسلمة حتى نام هو وأصحابه، ثم أحدقوا بهم، فما شعر المسلمون إلا بالنبل قد خالطهم؛ فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس فصاح في أصحابه: السلاح السلاح، فوثبوا فترامَوا بالنبل ساعةً من الليل، ثم انحاز أصحاب محمد ابن مسلمة إليه، وقد قتلوا من القوم رجلاً، ثم حمل القومُ عليهم بالرماح فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة فوقع جريحاً، فحمله رجل من المسلمين، حتى ورد به المدينة جريحاً. فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في شهر ربيع الآخر في أربعين رجلاً إلى منازلهم، فأغار عليهم فلم يجد أحداً، ووجد نعماً وشياه، فساقه، وأصاب رجلاً واحداً فأسلمَ، فتركه أبو عبيدة، وأخذ نَعَماً من نَعَمهم فاستاقه، وشيئاً من متاعهم، وقدم به المدينة.

وظاهر من إرسال محمد بن مسلمة في عشرة رجال، أن السبب هو ما بلغهم من أن بني ثعلبة وأنمار، جمعوا على أن يغيروا على سرح المدينة وهي ترعى بهيفاء[1]، وكانت الماشية قد ازدادت بسبب ما غنمه المسلمون؛ فلما قتل أصحاب[2] محمد بن مسلمة بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، طلباً لثأر المقتولين.

٢٧٢ ــ سرية بني سليم بقيادة زيد بن حارثة

كانت هذه السرية في شهر ربيع الآخر بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سليم بالجموم[3]، فأصابوا نَعَماً وشاءً، ووجدوا جماعة منهم فأسروهم.

---

(١) هيفاء: اسم موضع على سبعة أميال من المدينة.

(٢) في الأصل (فلما قتل محمد بن سلمة). والصواب أن الذين قتلوا هم أصحاب محمد لا محمد. المحقق.

(٣) ناحية ببطن نخل على أربعة أميال من المدينة.

٢٧٣ ـ سرية العيص بقيادة زيد بن حارثة

كانت في شهر جمادى الأولى سنة ست من الهجرة عام (٦٢٧) م إلى العيص بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه.

وسببها أن الرسول ﷺ بلغه أن عيراً قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة ومعه سبعون راكباً، ليتعرض لها، فأدركها وأخذها وما فيها، وأخذ يومئذٍ فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف، وأسر منهم أناساً: منهم أبو العاص بن الربيع، وأم هالة بنت خويلد أخت خديجة، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانةً، وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، فدخلت زينب على رسول الله ﷺ فسألته أن يردَّ عليه ما أخذ منه، فقبل عليه الصلاة والسلام، وقال لها: أكرمي مثواه ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلّين له؛ ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فأدّى إلى كل ذي مال مالهُ، ثم أسلم، وخرج مهاجراً إلى المدينة.

وكانت زينبُ قد هاجرت قبله إلى المدينة، وتركته على شركه ثم بعد أن أسلم وهاجر، وكان ﷺ يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب من أبي العاص.

٢٧٤ ـ سرية حِسْمَى بقيادة زيد بن حارثة

حِسْمَى: أرض ينزلها جذام، وراء وادي القرى، بينها وبين وادي القرى ليلتان وبين وادي القرى والمدينة ست ليالٍ، وذلك من جهة بادية الشام، وكانت هذه الغزوة في جمادى الآخرة سنة ستٍ من الهجرة عام (٦٢٧)م وتسمى أيضاً غزوة وادي القرى.

وسببها: أن رسول الله ﷺ كان قد أوفد دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى قيصر، يدعوه إلى الإسلام، فأعطاهُ جائزة وكساء، فلقيه الهنيد بن عارض في الطريق وهو عائدٌ، فقطعوا عليه الطريق، وأصابوا كل

شيء كان معه، عند جِسْمَى، فسمع بذلك نفرٌ من بني الضبيب رهط رفاعة بن زيد الجذامي ممن كان أسلم، فاستنقذوا ما كان في أيديهم، وردُّوهُ على دحية.

قدم دحية على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة في (٥٠٠) خمسمائة رجل؛ فكان زيدٌ يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بني عذرة، فأقبل بهم حتى هجموا على القوم، فأغاروا عليهم، وأكثروا فيهم القتل، وقتلُوا الهنيد بن عارض وابنَهُ العارض وأخذوا ماشيتَهم ونساءهم، فأخذوا من الإبل ألف (١٠٠٠) بعيرٍ، ومن الشّآء خمسة آلاف (٥٠٠٠) شاة، ومن السبي مائةً، من النساء والصبيان. ولا شكَّ أن هذا الإحصاء تقريبي، كما يستدل عليه من الأرقام، ثم رحل رفاعة بن زيد الجذامي في نفرٍ من قومه، فدفع لرسول الله ﷺ كتابه الذي كان قد كتبه له ولقومه حين قدم عليه فأسلم؛ فلما قرىء الكتابُ لرسول الله ﷺ قال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقال رفاعةُ: أنت أعلم يا رسول الله! لا نحرِّمُ عليك حلالاً، ولا نحلُّ لك حراماً؛ فأرسل رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فردَّ عليهم كلَّ ما أخذ منهم.

وكان إرسال زيد إلى جذام تأديباً لهم على ما صنعوا، حتى لا يعودوا لمثل ما فعلوا أبداً.

٢٧٥ ــ سرية القائد عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

كان رسول الله ﷺ غزا دومة الجندل في شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة عام (٦٢٦) م وقد تقدم ذكرها في كتابنا هذا.

أما هذه السرية، فكانت في شعبان سنة ستٍّ من الهجرة عام (٦٢٧)م؛ أمر رسول الله ﷺ: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن يتجَّهز لهذه السرية، فامتثل الأمر، واعتمَّ بعمامة من كرابيس سوداء، فأدناهُ رسول الله ﷺ منه، فأقعده بين يديه وعممه بيده، ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء؛ ثم حمد الله وصلى على نفسه ﷺ ثم قال: خذه يا ابن عوف، اغزوا جميعاً، ولا تقتلوا وليداً؛

فهذا عهد الله، وسيرة رسوله فيكم؛ فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء؛ وبعثه رسول الله ﷺ إلى كلبٍ بدومة الجندل، وقال: إن استجابوا لك فأسلموا فتزوَّجْ ابنة ملكهم؛ فسار عبد الرحمن بجيشه وكانوا (٧٠٠) سبعمائة رجلٍ، حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيامة يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أبوا أول ما قدم عليهم أن يعطوا إلا السيف؛ ثم أسلم في اليوم الثالث رئيسهم: الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً، وكان ملكهم، وأسلم معه ناسٌ كثيرٌ من قومه، وأقام عبد الرحمن بقيتهم بالجزية، وتزوج تماضر بنت الأصبغ، وقدم بها المدينة، وفازتْ بصحبة رسول الله ﷺ وهي أم ابنة أبي سلمة، رضي الله عنهم جميعاً.

٢٧٦ ــ سرية البطل القائد علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك

فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان كما جاء في كتاب معجم البلدان[١]، وفي طبقات بن سعد[٢] غير أنه ذكر أنه بينها وبين المدينة ست ليال، وتقع شمال المدينة في طريقها إلى تبوك.

وكانت هذه الغزوة في شهر شعبان سنة ستٍّ من الهجرة.

وسببها: أنه بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني سعد بن بكر، يريدون أن يمدُّوا يهود خيبر، فبعث إليهم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مائة رجلٍ؛ فسار الليلَ وكمن النهارَ حتى انتهى إلى الهجع[٣]، فوجدوا به رجلاً؛ فسألوهُ عن القوم؟ فقال: أخبركم على أن تؤمنوني، فأمنوه، فدلّهم، فأغاروا عليهم، فأخذوا خمسمائة بعيرٍ، وألفي شاةٍ، وهربت بنو سعدٍ.

---

(١) أنظر ذلك في ج ٦ ص ٤٢.

(٢) أنظره في ج ٢ ص ٩٢.

(٣) هجع: ماء وعيون علية نخل من جهة وادي القرى كما ذكره ابن ياقوت في معجمه البلدان ج ٨ ص ٤٧١. وتقع شمال المدينة بين فدك وخيبر كما هو في طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٠.

٢٧٧ ــ سرية القائد زيد بن حارثة إلى أمّ قِرْفَةَ

كانت هذه السرية في شهر رمضان سنة ستٍّ من الهجرة.

وسببها: أن زيد بن حارثة رضي الله عنه خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ (وهذه أول مرة خرج فيها أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ في تجارة إلى الشام).

فلما كان بوادي القرى، لقيه ناسٌ من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم.

وقدم زيدُ بن حارثة على رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه في جيشٍ، فأحاطوا بمن وجدوه من بني فزارة فقتلوهم، وأخذوا (أمَّ قِرْفَة) وهي بنت ربيعة بن بدر الفزاري، وكانت ملكة عليهم، وهي ذات شرف في قومها، وكانت عجوزاً مسنَّة، شديدة العداوة للرسول ﷺ وأصحابه، وقد جهَّزت ثلاثين راكباً من ولدها، ومن ولد ولدها، وقالت لهم: اغزوا المدينة، واقتلوا محمداً.

فأسرها قيس بن المحسّر، وقيل: ابن سحل، فقتلها شرَّ قتلةٍ، وقدم زيدُ بن حارثة فرحاً إلى المدينة بنصر الله، فلما وصلها، قرع باب دار النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ إليه، وهو يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبَّلهُ، وسأله عما جرى في غزوته، فأخبره زيدٌ بما ظفر.

٢٧٨ ــ سرية عبد الله بن عَتيك لقتل سلاّم بن أبي الحقيق اليهودي

كانت هذه السرية لقتل أبي رافع عبدالله، أو سلام بن أبي الحقيق اليهودي الذي حرَّضَ الأحزاب مع حيي بن أخطب، ثم فرَّ إلى يهود خيبر، ليتخلَّصَ من القصاص العادل، وقد بذل للمشركين مالاً كثيراً عوناً منه لهم في حربهم لمحمدٍ وهجومهم عليه في المدينة يوم الخندق، وبعدها حرَّضَ بني فزارة والقبائل الأخرى. وكانت هذه السرية في السنة السادسة في شهر رمضان عام(٦٢٧) م.
خرج من الصحابة إلى رسول الله ﷺ لما دعاهم، خمسة من الخزرج وهم:

(١) عبد الله بن عتيك.
(٢) عبد الله بن أنيس
(٣) أبو قتادة
(٤) الأسود بن خزاعي
(٥) مسعود بن سنان الأسلمي
واستأذنوهُ في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر، لأن الأوس كانوا قد أصابوا كعب بن الأشرف، فأراد الخزرج أن لا يكون للأوس فضلٌ عليهم عند رسول الله ﷺ.

فأمرهم بقتله عليه الصلاة والسلام، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة [١] وأمَّرَ عليهم عبدالله بن عَتيك، فذهبوا إلى خيبر، فكمنُوا، فلما هدأت الرِّجْلُ والحركة، جاءوا إلى منزله، وكان في حصنٍ مرتفع فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال عبدالله عن عَتيك: اجلسوا مكانكم قرب الحصن، فإني منطلق، ومتلطّف للبوَّاب لعلي أدخل الحصن، فأقبل حتى دنا من البواب، ثم تقنَّع بثوبه ليخفي شخصه، كأنه يقضي حاجته مخافة أن يُعرف، فدخل وكمن في اصطبل الحيوانات [٢].

وعندما آوى ابن أبي الحقيق إلى فراشه، خرج عبدالله وأخذ مفاتيح الحصن من موضعها الذي كانت فيه، ثم قصد غرفة ابن أبي الحقيق، فناداه ليعرف مكانه من صوته، لأن الظلام كان مخيماً على الغرفة التي كان بها ابن أبي الحقيق، ثم هجم بالسيف عليه حتى قضى عليه، وانسحب إلى أصحابه بعد أن سقط من الدرج، وانكسرت رجلُه [٣].

وعاد المسلمون إلى المدينة، وقد أزالوا عن طريق الدعوة عدواً لدوداً، وتسامع الناسُ بعاقبة مَنْ يؤلِّبُ الناسَ على المسلمين، مما زاد في هيبة الإسلام

---

(١) كما جاء ذلك في تاريخ الطبري.
(٢) أنظر كتاب (الرسول القائد) ص ٢٤٧.
(٣) راجع كتاب أسد الغابة.

والمسلمين في النفوس، وجعلهم يسيطرون سيطرة تامة على المدينة، فلم يبقَ فيها أي صوت يهود أو المنافقين.

وجاء في تاريخ الطبري: ولما صاحت امرأة سلام سلام، الرجل منا يرفع عليها السيف، ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده عن ضربها.

٢٧٩ ــ سرية عبدالله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي

كانت سرية عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي إلى أُسير بن رزام اليهودي بخيبر في شهر شوال سنة ستٍّ من الهجرة سنة (٦٢٨)م وسببها: أنه لما قُتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، أمَرَتْ يهودٌ عليها أسَيْراً، فاقترح عليهم طريقة للانتقام من رسول الله ﷺ فأقرُّوه عليها؛ وحاصلها: أنه يذهب إلى غطفان ويجمعهم، ويسيرُ بهم إلى رسول الله ﷺ في عُقْرِ داره، فسار إلى غطفان، فلما بلغه ﷺ، وجَّه إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفرٍ في شهر رمضان سراً، ليستكشف له الخبر، فذهب إلى ناحية خيبر، ثم عاد فأخبر رسول الله ﷺ بما سمع ورأى، وقدم عليه أيضاً خارجة بنُ حُسَيل وقال له: تركتُ أسير بن رزام يسيرُ إليك في كتائب يهود؛ فندب رسول الله ﷺ الناس له، وقد انتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة، فقدموا عليه فقالوا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك، لتخرج إليه، يستعملك على خيبر، ويحسن إليك، فطمع في ذلك، فشاور يهود، فخالفوهُ في الخروج وقالوا: ما كان محمدٌ يستعمل رجلاً من بني إسرائيل؛ قال: بلى قد مللنا الحرب، فخرج أسيرٌ وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين، فلما كانوا بقرقرة ثبار(١)، ندم أسيرٌ على مسيره إلى رسول الله ﷺ، وأراد الفتك بعبد الله بن رواحة ففطن له، وهو يريدُ السيف، فاقتحم به عبد الله ثم ضربه بالسيف فقطع رجله، فضربه أسيرٌ بمخرش في يده من شوحط فأمَّهُ، وفي رواية عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: وأهوى أسيرٌ بيده إلى سيفي، ففطنتُ له، (يتضَّحُ من ذلك أن

(١) قرقرة ثبار: اسم موضع بين خيبر والمدينة. المحقق.

أسيراً كان أعزل من السلاح) فدفعتُ بعيري وقلتُ: غدراً أيْ عدوَّ الله مرتين، فنزلتُ فسقتُ بالقوم حتى انفرد لي أسيرٌ فضربتُه بالسيف فأندرتُ عامة فخذه وساقه فسقط عن بعيره، ومال أصحابُ النبي ﷺ على أصحابه فقتلوهم ولم يفلِتْ[1] منهم غير رجلٍ واحدٍ، ولم يصب من المسلمين أحدٌ؛ ثم قدموا على رسول الله ﷺ، فحدَّثوهُ الحديث، فقال عليه الصلاة والسلام: «حقاً قد نجَّاكمُ الله من القوم الظالمين».

وقد نال هؤلاء اليهود جزاء غدرهم ومكرهم، ونصر الله المؤمنين عليهم.

٢٨٠ ـ سرية كُرزِ بن جابر الفهري إلى العرانيين

كان كرزُ بن جابر الفهري رضي الله عنه أحد رؤساء قريش، أسلم بعد الهجرة، واستشهد عام الفتح، وهو الذي خرج رسول الله ﷺ لطلبه في غزوة بدرٍ الأولى، وقد مرَّ ذكرها سابقاً.

كانت هذه السرية في شهر جمادى الأولى سنة ستٍ من الهجرة.

وسببها أن أناساً من عكل وعرينة ـ حي من قضاعة وعرينة حي من بجيلة ـ يبلغ عددهم نحو ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، وتلفظوا بكلمة التوحيد، وكانوا حين قدموا المدينة سقاماً، مصفرة ألوانُهم، عظيمةً بطونُهم.

(قال مستر موير في كتابه: كانوا مصابين بداء الطحال).

فقالوا: يا رسول الله! إنا كنّا أهلَ ضرع ـ أي ماشية وإبل ـ ولم نكن أهل ريف، وكرهنا الإقامة بالمدينة، فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل؟ فأمر ﷺ لهم بذود من الإبل[2]، ومعها راع، وأمرهم باللحوق بها، ليشربوا

(١) في الأصل (يُفلَت) بفتح اللام. والصواب: كسرها. اسم فاعل من (أفلت). المحقق.

(٢) الذود: من الثلاثة إلى العشرة.

من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرَّة، وصحَّتْ أجسامُهم باتباعهم إشارة رسول الله ﷺ كفروا بعد أسلامهم، وقتلوا راعي رسول الله ﷺ وكان عبداً له اسمه يسار، وحين قتلوهُ مَثَّلوا به، فقطعوا يده ورجله، وجعلوا الشوك في عينيه، واستاقوا الذَّوْد، وحُمل يسار ميتاً إلى قُباء فدفن هناك.

فهؤلاء أعرابٌ قساةٌ غلاظ القلوب، يقابلون الإحسانَ بالإساءة، يكرمهم رسول الله ﷺ، فيهب لهم الماشية، ويرسل معهم الراعي، رأفة بهم، ويصف لهم الدواء الشافي لدائهم، فيأخذون الإبل، ويشربون ألبانها، وتصح أجسامهم ثم يجحدون النعمة، ويكفرون بعد إسلامهم، ويقتلون ذلك الراعي الأمين المسكين، ويمثلون به أشنع تمثيل، ويسرقون الإبل.

جرائم متعددة يقترفونها، فهل هؤلاء يستحقُّونَ العفوَ والإحسان والمعاملةَ الحسنة؟ كلا؛ بل الحكمة تقضي بقطع دابرهم، واستئصال شأفتهم، ليكونوا عبرةً لمن اعتبر، ولئلا يجرؤ بعد ذلك أحدٌ من أمثال هؤلاء اللصوص القتلة الخائنين أن يعبثَ بالإسلام والمسلمين.

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام لما جاءه الصريخُ بما وقع منهم، بعث في آثارهم خيلاً من المسلمين قريباً من العشرين، وأمّر عليهم كرز بن جابر الفهري رضي الله عنه، فلحقهم فجاء بهم إلى النبي ﷺ، فلما مثلوا بين يديه، أمر ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم، ولم يفلت منهم أحد، وتركوا في ناحية الحرَّة في الشمس حتى ماتوا.

وأنزل الله تبارك وتعالى في هؤلاء الخائنين قوله: ﴿إنما جزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسوله﴾ (١).

وهؤلاء كفروا بعد إيمانهم، وأساءوا بعد إكرامهم، وقتلوا ومثَّلوا، وقطعوا الطريق وسرقوا، فنالوا جزاءهم وكانوا عبرة لمن بعدهم.

---

(١) جزء من الآية رقم (٣٣) من سورة المائدة. المحقق.

٢٨١ ــ سرية عمرو بن أمية الضَّمَري[١]

قال أبو سفيان بن حرب زعيم المشركين بمكة، لنفرٍ من قريش: (ألا أحدٌ يغتالُ محمداً، فإنه يمشي في الأسواق؟) فأتاه أعرابي من الأعراب متطوعاً لقتل النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فأعطاهُ أبو سفيان بعيراً ونفقةً، وقال له: إظْو أمركَ؛ فخرج الأعرابي ليلاً، حتى قدم المدينة بعد خمسة أيام.

ولما رأى رسول الله ﷺ هذا الأعرابي رابَه أمره، ــ أي شك فيه ــ فقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا ليريد غدراً.

وحاول الأعرابي اغتيال رسول الله ﷺ فجذبه أسيدُ بنُ حضير رضي الله عنه فأسره من إزاره، فوجد خنجراً لديه، فقال له رسول الله ﷺ: «اصدقني ما أنت؟» قال: وأنا آمنٌ؟ قال ﷺ: نعم، فأخبرهُ بأمره، وما جعل له أبو سفيان، فخلَّى عنه ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وسلمة بن أسلم، إلى أبي سفيان بن حرب وقال: «إنْ أصبتما منه غِرَّة فاقتلوهُ» فدخلا مكة، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه، فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه وطلبوه.

وهرب عمرو وسلمة، وقد قتل عمرو في طريق عودته إلى المدينة رجلين مشركين[٢].

---

(١) ضبطه في لسان العرب (الضَّمْرِيّ) بفتح الصاد المشددة وسكون الميم. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (قادة الفتح الإسلامي ــ الرسول القائد) ص ٢٥٦.

في هذا الكتاب

أمنية المؤمن في سيرة محبوبه.
وقيثارة الشاعر المبدع في قصيده.
وهدف العالم العامل من مطلوبه.
وغاية المؤرخ العادل في هوايته.
ورغبة كل مسلم في تحقيق رغبته.
تلك هي سيرة سيد الخلق على الإطلاق.

مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ

من يوم ولادته، إلى التحاقه بالرفيق الأعلَى وما تخلل ذلك من أقوالٍ وأعمالٍ وتشريعات وهداية للبشرية، نوَّرتْ سبيل الإنسانية، وحقَّقتْ للعالم السلام العادل، كما قضَتْ على الوثنية والجاهلية؛ كل ذلك مؤكدٌ، بأصحّ روايةٍ، وأسهل عبارة، وأصدق حديث، وأقوى دليل؛ فهي الخلاصة الوافية، لكل طالبٍ وراغب إن شاء الله تعالى.

المؤلف

فهرس الجزء الثاني

الموضوع — الصفحة

١٣٠ - مؤامرة قريش على قتل رسول الله ﷺ ٥
١٣١ - هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة ٦
١٣٢ - الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه يستعدان
للهجرة ٧
١٣٣ - علي بن أبي طالب رضي الله عنه يتأخر ليردّ الودائع ٨
١٣٤ - الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه في الغار
ـــ غار ثور ـــ ٨
١٣٥ - معجزات الغار تكريماً ودفاعاً وحماية عن حبيب
الله ومجتباه ﷺ ١١
١٣٦ - الخروج إلى يثرب مدينة النور والهدى ١٢
١٣٧ - حوادث وأمور في طريق الهجرة ومنها قصة سراقة ١٣
١٣٨ - قصة أم معبد وشاتها ١٥
١٣٩ - متابعة السير في لظى الطريق إلى المدينة ١٨
١٤٠ - مسلمو يثرب في انتظار الرسول ﷺ ١٨
١٤١ - رسول الله ﷺ في قباء ٢٠
١٤٢ - أعمال الرسول ﷺ في قباء ٢١
١٤٣ - هجرة سيدنا علي رضي الله عنه ووصوله إلى قباء ٢٣
١٤٤ - متابعة سير الرسول ﷺ إلى المدينة ٢٣

١٤٥ - الرسول ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري ٢٥
١٤٦ - ذكر الهجرة في القرآن ٢٦
١٤٧ - خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاّها بالمدينة ٢٧
١٤٨ - التعليق على هذه الخطبة الهامة ٢٨
١٤٩ - ترجمة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ٢٩
١٥٠ - من وحي الهجرة المحمدية ٣٢
١٥١ - تكوين الأمة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ ٣٥
١٥٢ - رسول الله ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والانصار ٣٨
١٥٣ - المدينة المنورة واستقرار النبي ﷺ بها ٤٠
١٥٤ - بناء المسجد ومساكن الرسول ﷺ ٤١
١٥٥ - مرض المهاجرين بحمّى المدينة ٤٣
١٥٦ - الخزرج والأوس وما كان بينهما وبين اليهود ٤٤
١٥٧ - العداوة بين الأوس والخزرج وتسميتهم بالأنصار ٤٦
١٥٨ - معاهدة الرسول ﷺ لليهود في المدينة ٤٩
١٥٩ - فتح جديد في الحياة السياسية بعد الوثيقة ٥٣
١٦٠ - تشريع العبادات والمعاملات بعد توقيع المعاهدة
(الصلوات الخمس) ٥٤
١٦١ - مشروعية الأذان للصلاة ٥٥
١٦٢ - فرض صيام شهر رمضان وحكمته وزكاة الفطر ٥٦
١٦٣ - فريضة الزكاة وحكمتها في التشريع الاسلامي ٥٨
١٦٤ - تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ٦٠
١٦٥ - مواقف الرسول ﷺ مع اليهود ٦٢
١٦٦ - اسلام عبد الله بن سلام بن الحارث ٦٣
١٦٧ - حرب الجدل بين سيدنا محمد ﷺ ويهود المدينة ٦٥
١٦٨ - مواصلة الجدل بين سيدنا محمد ﷺ ومنافقي اليهود ٦٦

الموضوع	الصفحة
١٦٩ - محاولة الوقيعة بين الاوس والخزرج	٦٧
١٧٠ - المنافقون في المدينة	٦٩
١٧١ - قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع فنحاص اليهودي . .	٧٠
١٧٢ - العدل والمساواة في الحقوق في الإسلام	٧١
١٧٣ - أهداف دين الإسلام ومقاصده النيرة	٧٤
١٧٤ - مؤتمر الاديان الثلاثة في مدينة يثرب ونتيجته	٧٨
١٧٥ - تفكير الرسول ﷺ وأصحابه في أمر مكة وقريش	٧٩
١٧٦ - سياسة المسلمين بالمدينة	٨٠
١٧٧ - الإذن بالقتال في الآيات القرآنية	٨١
١٧٨ - سر مشروعية القتال والمبادى التي سار عليها الرسول ﷺ	٨٢
١٧٩ - تنفيذ أمر الله بالقتال وبدؤه عملياً	٨٤
١٨٠ - أول سرية في الاسلام على يد حمزة رضي الله عنه	٨٥
١٨١ - السرية الثانية بقيادة عبيدة بن الحارث رضي الله عنه . . .	٨٥
١٨٢ - السرية الثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	٨٦
١٨٣ - غزوة ودّان أو غزوة الأبواء بقيادة رسول الله ﷺ	٨٦
١٨٤ - كتاب العهد بين رسول الله ﷺ وبني ضمرة	٨٧
١٨٥ - الغزوة الثانية غزوة بواط	٨٧
١٨٦ - الغزوة الثالثة غزوة العشيرة	٨٨
١٨٧ - غزوة بدر الأولى	٨٨
١٨٨ - السرية الرابعة سرية عبد الله بن جحش الاسدي إلى نخلة	٨٩
١٨٩ - مفاجآت من الوفيات في العام الأول من الهجرة	٩٠
١٩٠ - ردُّ فرية واتهام من بعض المستشرقين	٩٢

الموضوع	الصفحة
١٩١ - غزوة بدر الكبرى بقيادة رسول الله ﷺ	٩٣
١٩٢ - رسول الله ﷺ يستشير أصحابه	٩٦
١٩٣ - الخلاف بين أبي سفيان وأبي جهل	٩٨
١٩٤ - مسير الجيشين ونزول المطر	٩٨
١٩٥ - بناء حوض على القليب	٩٩
١٩٦ - بناء العريش للقائد محمد رسول الله ﷺ	١٠٠
١٩٧ - عتبة بن ربيعة ينصح قريش بالرجوع فيأبى أبو جهل	١٠١
١٩٨ - تعديل صفوف المسلمين ودعاء رسول الله ﷺ	١٠٢
١٩٩ - اقتحام الحوض من قبل المشركين وقتله	١٠٣
٢٠٠ - بدء الحرب والمبارزة في أرض المعركة ببدر	١٠٣
٢٠١ - تعديل صفوف المسلمين والحث على الجهاد	١٠٤
٢٠٢ - ألوية المسلمين في بدر وألوية المشركين يوم بدر	١٠٥
٢٠٣ - تزاحف الناس والتحام القتال	١٠٦
٢٠٤ - عون الله للمسلمين وامدادهم بالملائكة يوم بدر	١٠٨
٢٠٥ - سيما الملائكة يوم بدر	١٠٩
٢٠٦ - إلقاء قتلى المشركين في القليب	١١٠
٢٠٧ - أسرى المشركين وفداؤهم	١١١
٢٠٨ - رِقةُ قلب رسول الله ﷺ على عدوه النضر بن الحارث	١١٢
٢٠٩ - جزاء عدو الله ورسوله رقبة بن أبي معيط	١١٣
٢١٠ - رأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وجماعته المستشارين	١١٤
٢١١ - تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بدفع بدلات الفداء	١١٥
٢١٢ - البشائر تزف لأهل المدينة بنصر الله	١١٧
٢١٣ - الشاعر المخلص كعب بن مالك رضي الله عنه يقول بعد المعركة	١١٨
٢١٤ - من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وخسارة الفريقين	١١٩

الموضوع	الصفحة
٢١٥ - النظام واحتقار الموت هما من اسباب النصر	١٢٠
٢١٦ - الاسباب الحقيقية في انتصار المسلمين ببدر	١٢٢
٢١٧ - دروس قيمة من غزوة بدر	١٢٦
٢١٨ - أهل بدر فرسان المعركة نواة الجيوش الاسلامية	١٣٠
٢١٩ - ملاحظات ضرورية	١٤٧
٢٢٠ - زواج فاطمة الزهراء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في السنة الثانية للهجرة	١٤٧
٢٢١ - غزوة بني سليم في قرقرة الكدر	١٥٠
٢٢٢ - غزوة بني قينقاع وتطهير المدينة	١٥٠
٢٢٣ - الوحدة السياسية بعد تطهير المدينة من اليهود	١٥٣
٢٢٤ - غزوة السويق	١٥٤
٢٢٥ - غزوة ذي أمّر	١٥٥
٢٢٦ - صلاة العيد ومشروعيتها	١٥٦
٢٢٧ - السرية الخامسة سرية زيد بن حارثة إلى القرد	١٥٧
٢٢٨ - قتل اليهودي كعب بن الاشرف	١٥٨
٢٢٩ - رد استنكار مزعوم	١٦٢
٢٣٠ - زواج رسول الله ﷺ بحفصة بنت عمر بعد زواجه بعائشة	١٦٣
٢٣١ - ترجمة السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه	١٦٤
٢٣٢ - ترجمة سودة بنت زمعة أم المؤمنين	١٦٧
٢٣٣ - غزوة أحد	١٦٩
٢٣٤ - قصة أبي دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه وعصابة الموت	١٧٥
٢٣٥ - بدء المناوشات وسير القتال	١٧٦

الموضوع	الصفحة
٢٣٦ - اشتداد القتال ومقتل السيد حمزة رضي الله عنه وسقوط صنم المشركين	١٧٧
٢٣٧ - هجوم المشركين بعد ترك الرماة مواضعهم	١٧٩
٢٣٨ - عودة المحاربين المشركين لمكة	١٨٢
٢٣٩ - وصول النبي ﷺ وصحابته إلى المدينة المنورة	١٨٢
٢٤٠ - خسائر الطرفين بأحد	١٨٣
٢٤١ - أسباب انهزام المسلمين في موقعة أحد	١٨٦
٢٤٢ - حقيقة النصر والخذلان في وقعة أحد	١٨٧
٢٤٣ - استشهاد سعد بن الربيع رضي الله عنه ووصيته	١٨٩
٢٤٤ - دفن قتلى أحد وتفقد الرسول ﷺ لعمه حمزة	١٩٠
٢٤٥ - رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة ودعاؤه المأثور	١٩١
٢٤٦ - غزوة أحد في كتاب الله عز وجل	١٩٢
٢٤٧ - غزوة حمراء الأسد في طلب العدو	١٩٤
٢٤٨ - سرية عاصم بن ثابت رضي الله عنه ـ بعث الرجيع ـ	١٩٦
٢٤٩ - سرية بئر معونة سرية المنذر بن عمرو الخزرجي أو (سرية القراء)	٢٠٠
٢٥٠ - موقف يهود المدينة ومنافقوها من هذه الأحداث	٢٠٢
٢٥١ - غزوة بني النضير	٢٠٤
٢٥٢ - تحريم الخمر أثناء غزوة بني النضير للتشريع الاسلامي	٢٠٧
٢٥٣ - غزوة بدر الأخيرة للمواعدة بين أبي سفيان والرسول ﷺ	٢٠٩
٢٥٤ - غزوة ذات الرقاع أو بني ثعلبة ومحارب وبني أنمار	٢١١
٢٥٥ - غزوة دومة الجندل ما بين الحجاز والشام	٢١٢
٢٥٦ - غزوة بني المصطلق أو المريسيع	٢١٣
٢٥٧ - قتل هشام بن صبابة ومقالة ابن أبي بن سلول	٢١٥

الموضوع	الصفحة
٢٥٨ - نزول آية التيمم وبيان سببه، وسر مشروعيته	٢١٧
٢٥٩ - عائشة وحديث الإفك	٢١٨
٢٦٠ - غزوة الخندق وتحزب الأحزاب	٢٢٤
٢٦١ - غزوة بني قريظة الغادرين	٢٣٦
٢٦٢ - وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه	٢٤٢
٢٦٣ - خسائر المسلمين في غزوة بني قريظة	٢٤٤
٢٦٤ - ما نزل من القرآن في أمر الخندق وبني قريظة	٢٤٤
٢٦٥ - يهود المدينة وما آل إليه أمرهم	٢٤٥
٢٦٦ - سرية القرطا واسلام ثمامة بن أثال الحنفي	٢٤٦
٢٦٧ - غزوة بني لحيان بقيادته ﷺ	٢٤٧
٢٦٨ - إغارة عيينة بن حصن الفزاري	٢٤٨
٢٦٩ - غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد	٢٤٩
٢٧٠ - سرية الغمر بقيادة عكاشة بن محصن الأسدي	٢٥٠
٢٧١ - سرية ذي القصة بقيادة محمد بن مسلمة الأنصاري	٢٥٠
٢٧٢ - سرية بني سليم بقيادة زيد بن حارثة	٢٥١
٢٧٣ - سرية العيص بقيادة زيد بن حارثة	٢٥٢
٢٧٤ - سرية حِسْمَى بقيادة زيد بن حارثة	٢٥٢
٢٧٥ - سرية القائد عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل	٢٥٣
٢٧٦ - سرية البطل علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك	٢٥٤
٢٧٧ - سرية القائد زيد بن حارثة إلى أمّ قِرْفة	٢٥٥
٢٧٨ - سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلاّم بن أبي الحقيق اليهودي	٢٥٥
٢٧٩ - سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير ابن رزام اليهودي	٢٥٧
٢٨٠ - سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرانيين	٢٥٨
٢٨١ - سرية عمرو بن أمية الضمري	٢٦٠
في هذا الكتاب	٢٦١